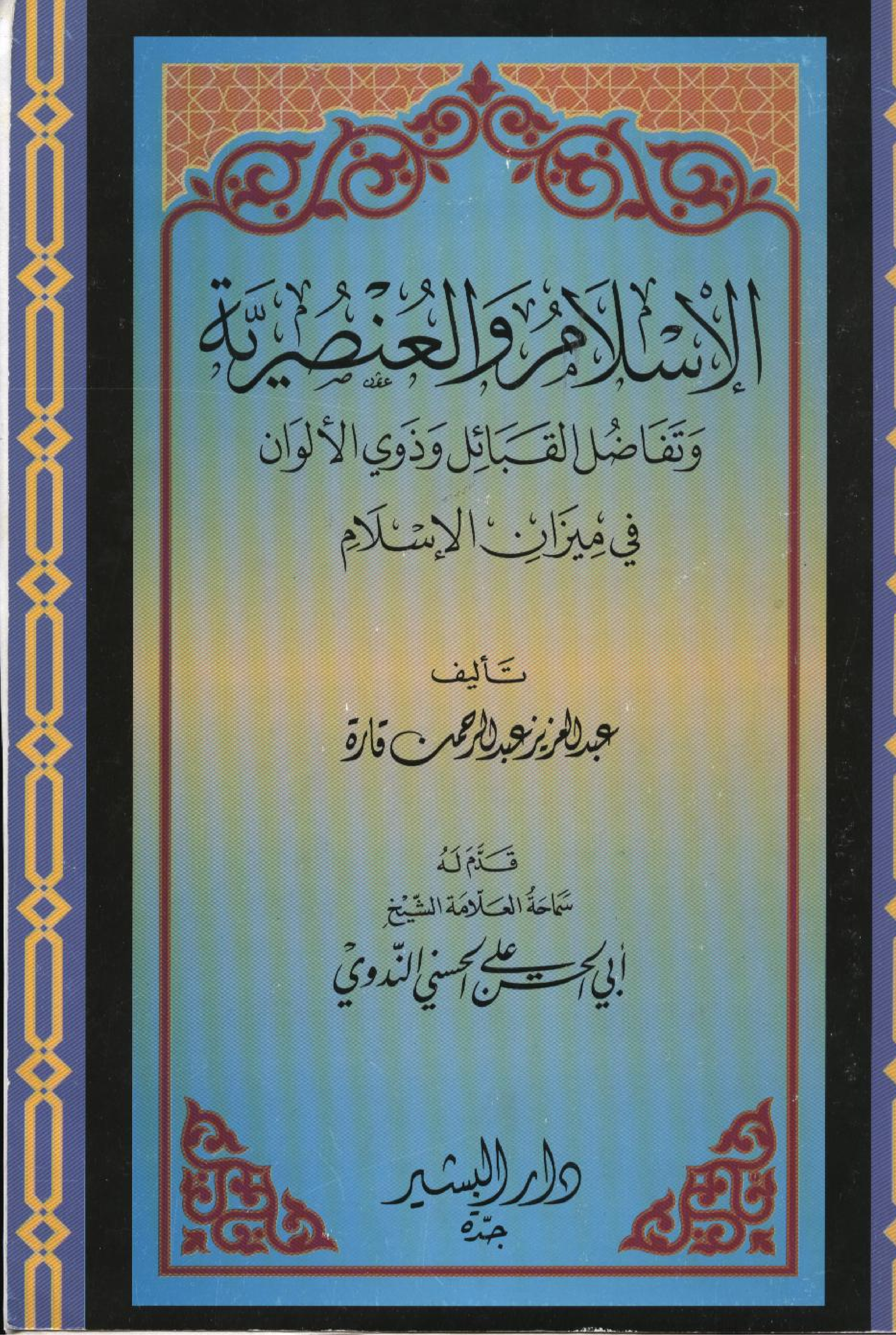


الإسلام والعنصرية
وتفاضل القبائل وذوي الألوان
في ميزان الإسلام
تأليف
عبد العزيز عبد الرحمن قارة
قدم له
سماحة العلامة الشيخ
أبي الحسن علي الحسني الندوي
دار البشير
جدة

الإسلام والعنصرية

يسمح لجميع الجماعات والمراكز الإسلامية في أنحاء العالم طبع هذا الكتاب وترجمته للغات المحلية بدون الرجوع للمؤلف ، وكذلك طلب نسخ مجانية لهذا الغرض .

كما يحق لجميع المكتبات العامة بمختلف أنواعها طلب نسخ مجانية من هذا الكتاب وذلك عن طريق الكتابة للمؤلف على عنوانه التالي :

المملكة العربية السعودية

المديـنة المنورة

ص . ب ٢٥٥٣٨

والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل ، ، ، ،

الإسلام والعنصرية

وتفاضل القبائل وذوي الألوان

في ميزان الإسلام

تأليف

عبد العزيز عبد الرحمن قارة

قدم له

سماحة العلامة الشيخ

أبي الحسن علي الحسني الندوي

دار البشير

جدة

الطَّبْعَةُ ٱلثَّانِيَةُ

١٤١٦

١٩٩٥

تطلب جميع منشوراتنا في المملكة العربية السعودية

من دار البشير بجدة

جدة: ٢١٤٦٣ - ص.ب: ٢٨٩٥ - هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ - ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم سماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندْوي[(١)]

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فقد ورد في كتاب الله تعالى وفي حديث رسوله الكريم ﷺ تأكيد شديد على التآخي بين المسلمين ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، وجاء في الحديث الشريف : « المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » ، وجاء في حديث آخر : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

ولقد ربط الله تعالى المسلمين جميعاً في رباط واحد ، وجعلهم تابعين للأمير ،

---

(١) سماحة الشيخ أبي الحسن عَلَم من أعلام العلم والدعوة إلى الله تعالى ، في هذا العصر ، على ساحة العالم الإسلامي كله ، وهو أشهر وأكبر من أن يعرَّف به ، إنما أحب أن ألفتَ النظر إلى جانب واحد في شخصه حفظه الله تعالى ، هو أنه عربي قرشي هاشمي سيد شريف من سلالة آل البيت النبوي الطاهر ، ومع ذلك يرى القارىء الكريم تأكيده على وحدة الإسلام وتآخيهم ، وأن المناداة بالعرقية تمزيق وتشتيت لهم . بل إن هذا المعنى موجود في كتاباته كثيراً جداً .

وأمر آخر يتعلق بكلمته هذه ، لقد قدمت إلى سماحة الشيخ نسخة من الطبعة الأولى لهذا الكتاب الذي صدر باسم « الأخوة الإيمانية » فقرَّظه بهذا الاسم ، ولما زدت عليه شيئاً كثيراً يتعلق بالعنصرية اضطررت إلى تغيير اسمه إلى « الإسلام والعنصرية » ، ولم أشأ تغيير شيء في كلام الشيخ حفظه الله وأمتع به الإمة .

المؤلف

وبذلك يتحد اتجاههم ، ويسير أمرهم على خط واحد ، وتكون عداوتهم واحدة ، وصداقتهم واحدة ، فتصبح قوتهم الصغيرة مع التضامن فيما بينهم قوة كبيرة ، وتأثيرهم مع وحدتهم تأثيراً كبيراً ، ودام العز والسلطان ما دام فيهم الالتزام بوحدة أطرافهم وعناصرهم المختلفة ، وإن كان ذلك في نطاق محدود .

وبهذه القوة دام سلطان المسلمين في الأندلس نحو سبعة قرون ، ولما تفرقوا على الأسر والقبائل ، بل تشتتوا لأغراضهم الشخصية تحطمت قوتهم ، وأجبرهم عدوهم على التنازل عن السياسة ، وتجرعوا المرارة في شبه الجزيرة الخضراء ، وهكذا كانت ودامت للمسلمين الشوكة والقوة حتى بلغ نفوذهم إلى قلب أوروبا ، ولكن تفرقت القوة الإسلامية الجبارة على النعرات القومية : العربية والتركية والكردية والبربرية وغيرها من النعرات الإقليمية والعنصرية ، فصار المسلمون دويلات حقيرة وأصبحوا كالريش في مهب الرياح . هذا من ناحية وضعهم بالنسبة إلى غيرهم .

أما وضعهم الداخلي فهو مؤسف جداً أيضاً : القادة يتقاتلون فيما بينهم لإحراز القيادة ، وأصحاب العلم يتهارشون فيما بينهم لإحراز المناصب ، والعامة منهم يتخاصمون لطلب المنافع الشخصية ، ثم قد يصبح كل واحد من هؤلاء المستهدِفين الهدفَ المادي أو تحقيق الهوى الفردي فريسة المكائد الخارجية والمؤامرات الأجنبية .

لقد كانت الأخوة الإسلامية أقوى سلاح في صورة وحدتها السياسية لصيانة المسلمين من عداوة الأعداء وردع هجماتهم ، وفي صورة الأخوة الداخلية لتعاونهم وتضامنهم مع أنفسهم ، فكان القليل منهم بهذه الأخوة كثيراً ، وكان الضعيف منهم مع هذه الوسيلة قوياً ، وكان الفقير منهم مع هذه الوسيلة غنياً ، وكان العاجز منهم مع هذه القوة قادراً .

إن الأخوة الإسلامية دامت خصوصية متميزة للمسلمين ، عرفهم بها أعداؤهم ، وهابوهم على أساسها ، ولا يزالون يحذرون من عودتها إليهم ، ويتوجسون خوفاً

من ظهور آثارها وبقاياها فيهم ، لأنها لم تمت فيهم بل إنما انهارت وضعفت ، يمكن إثارتها وتحريكها ، فأعداؤهم يخافون من يقظتها وعودتها ، ولذلك يقومون بالمكائد ، ويحيكون المؤامرات لقمع هذه الخصوصية منهم ، فيثيرون خلافات داخلية في شعوب الإسلام ، وخلافات شخصية بين قادة المسلمين ، ويناصرون أطراف النزاع فيزيدون بذلك تفرقاً وتعادياً فيما بين المسلمين وبذلك يسهل لأعداء الإسلام الحصول على مكاسب ، ويتيسر لهم الاستغلال من الوضع العدائي بينهم .

نجد أمثلة لذلك واضحة في منطقة الشرق الأوسط وآسيا الغربية ، وفي مناطق أخرى يقطنها المسلمون كأغلبيات ، ولم يعد الأمر قاصراً بأغلبيات المسلمين ، بل إنما توجد آثاره وتأثيراته في الأقليات المسلمة كذلك ، فإنهم مواجهون في كل مكان لمؤامرات الأعداء الذين يستغلون هذا التفرق بين صفوف المسلمين ، وهذا الفراغ من الأخوة الإسلامية .

ولقد تجاوز الأمر حدود مكائد العدو ومؤامراته حتى إن المسلمين هم أنفسهم يلعبون هذا اللعب الخطير ، لعب تشتيت أخوة المسلمين وتفريق وحدتهم ، ويقومون بالخصومات الشخصية إلى حد القتل والسلب ، وقد بلغ بهم الأمر إلى حد أنهم لم يعودوا يستحيون من الذهاب إلى خصوم الإسلام وإلى المحاكم الكافرة والمعاندة للإسلام ليدينوا بمساعدة خصومهم من أبناء أمتهم ، ويسعى بعضهم ضد بعض لكسر قوته وتحطيم عزته ، إنه يبني بذلك لنفسه وحدها قوة على أنقاض قوة أخيه ، ويبني لنفسه عزة على أنقاض عزة أخيه ، ولا يبالي المسلمون بأن القضاة في المحاكم هم محايدون أو معاندون للإسلام وأعداء له ، وبأن أعداءهم يضحكون عليهم ، وبسبب هذا الوضع المؤسف انتشرت الشحناء والبغضاء في قلوب المسلمين بعضهم لبعض ، إلى أن بلغ الأمر إلى حد الأسى الشديد والرثاء المؤسف ! .

إنه يجب في هذه الحالة أن يشمر الدعاة والمصلحون عن ساق الجد ، و ينادوا

المسلمين للعودة إلى وحدتهم وأخوتهم التي هي من واجبات دينهم وأمتهم ، والتي هي من أوامر ربهم وشريعتهم ، ومن توجيه نبيهم وأئمة دينهم ، فإنه من أوجب الواجبات في هذا العهد الذي أصبح فيه المسلمون كالقصعة التي تداعى عليها الأكلة ، وكغثاء السيل ، كما أخبر به الصادق المصدوق رسول الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ .

ولا يزال المسلمون يمتازون - رغم تهاونهم في الدين وتكاسلهم في اختيار أسباب الوحدة والأخوة بشيء من التآخي ، وهذا التآخي القليل ينفعهم في بقاء صورة من العز والقوة فيهم يحسدهم عليها الكفار ويسعون لتفتيتها ، فعلى المسلمين أن ينتبهوا للمؤامرة ويرجعوا إلى ما أمر الله تعالى به وقام رسوله ﷺ بتطبيقه ، وقد قام الرسول ﷺ بتطبيقه في مجتمع المدينة المنورة حيث جعل المهاجرين والأنصار إخوة فيما بينهم ، فكان كل مهاجري أخاً لأنصاريّ ، وقد قام كل أخوين لهذا الارتباط بأخوة أشد من أخوة الدم والنسب ، وكما جعل الله تعالى أخوة الإسلام من أجزاء الإيمان حيث قال رسوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وهذه الأخوة حينما تبلغ درجتها العالية فإنها تصبح قوة هائلة تتحطم عليها مكائد الأعداء ، وتسري هذه الأخوة في كافة جوانب الحياة الاجتماعية وتربطها برباط واحد ، وتنحل كثير من قضاياهم بدون المرافعة إلى القاضي بهذه الأخوة ، وهذه الأخوة نعمة اجتماعية عظيمة للمسلمين ، فكلما ضعفت وهانت فيهم خسروا خسراناً كبيراً ، والتاريخ شاهد على ذلك ، والقرآن الكريم وحديث رسول الله ﷺ يذكرانا أهميتها وفائدتها ، ويذكران صورها وأحوالها المختلفة ويعطيان أحكاماً واضحة تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم .

وإنه لمن بواعث سرورنا أن نرى عالماً خبيراً بنظرة الإسلام إلى الوحدة ، وباحثاً إسلامياً وهو سعادة لواء متقاعد الشيخ عبد العزيز عبد الرحمن قارة يؤلف كتاباً جليلاً في هذا الموضوع بعنوان « الأخوة الإيمانية » فإنه تضمن تذكيراً وإيضاحاً لما

أوجبه الإسلام على المسلمين من الالتزام بالأخوة الإسلامية لأنها أمر شريعتهم ، ووجدوا التأكيد به مراراً وتكراراً في كتاب الله عز وجل ، وفي حديث رسوله محمد ﷺ ، ولقد ساق أمثلة مؤثرة ، وشرح جوانب مهمة لهذه الأخوة ، وكل ذلك مستند إلى مآخذ ومصادر موقرة ، فإن هذا الكتاب يسد حاجة كبيرة للمسلمين ، ويجب أن تأتي على منواله كتب أخرى ، وأن تعمم في المسلمين هذه الجهود ، فيعم بها النفع ، والله هو الموفق ، وصلى الله وسلم على نبيه محمد وعلى آله وصحبه .

١٢-١٠-١٤١٥

السيد
أبي الحسن علي الحسني الندوي

*****



بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع سنته وهديه أجمعين .

وبعد : فهذه هي الطبعة الثانية من كتابي « الأخوة الإيمانية » باسمه الجديد « الإسلام والعنصرية » مع مزيد من الإضافات وقفت عليها أثناء مطالعاتي ، ومزيد من التعديلات استجابة وبياناً لما اشتبه على بعض قراء الكتاب ، جزاهم الله خيراً .

ولا بد من التنبيه في مقدمة هذه الطبعة إلى أمر ما كنت أظن أنه يخفى على القارىء الكريم ، فإذا بي أجدني مضطراً إلى بيانه .

ذلكم أن ما أنعاه على القَبَليّة والقَبَليين ، والعنصرية والعنصريين إنما هو تحزُّبهم لذلك ، دون التفات منهم إلى شرع الله الحنيف ! فالمقياس عندهم نعرتهم وعنصريتهم ، وتعاليهم بها على عباد الله الآخرين ! فالأخوة عندهم لمن كان من قبيلتهم ، أو جماعتهم ، أو بلدهم ، أو على مذهبهم ونزعتهم ! لها يتعصبون ، ومن أجلها يعملون ، وفي سبيلها يقاتلون !! .

أما أني أذمُّ القبائل والشعوب ، وأقدح في الأعراق والأنساب ، وما إلى ذلك ، فمعاذ الله وحاشا لله !! .

ولست بغافل - والحمد لله - عن فضائل العرب عامة ، وعن بعض قبائلهم وأفخاذهم خاصة ، كقريش ، وبني هاشم ، وآل بيت النبوة الأطهار ، وفضائل المهاجرين والأنصارِ ، وبني أسلم وغفار ، وبني تميم وعبد القيس وغيرهم ممن صحت فيهم الأخبار - ما اتقوا واستقاموا - .

لكن من ينتمي إلى قبيلة من هؤلاء ، وينصرهم ظالمين أو مظلومين ، محقين أو مبطلين ، وينسى إسلامه وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ فهذا الذي أوجه إليه كتابي وكلَّ ما فيه من لوم وعتب ! لأنه نسي الانتصار لمحمد ﷺ والكتاب الذي أنزل عليه ، وراح يتعصب لزيد وعمرو !.

لأنه نسي تشريع محمد ﷺ الذي أكرم قبيلته بالثناء عليها !.

لأنه نسي اتباع محمد ﷺ وهو الذي شرَّف آل بيت النبوة بانتمائهم إليه !.

إنه يريد أن يمشي وراء قوميات ونعرات جاهلية وضعها جدُّه وسيده محمد ﷺ تحت قدميه ، ولا يريد أن يدعو - أو أن ندعو نحن - إلى جمع شمل مليار ونصف مليار من المسلمين على وجه هذه المعمورة .

وما أجمل قوله وتشبيهه ﷺ - بأبي هو وأمي - حين سمع منادياً ينادي : يا آل فلان ، يا آل فلان ، فقال معلِّماً وزاجراً : « دعوها ، فإنها منتنة! » .

وأي مسلم عاقل يرى هذا التجمع الرهيب من كفار الشرق والغرب ، على المسلمين ، ثم لا يرضى عن دعوتنا إلى « الأخوة الإيمانية » !!.

اللهم فاشهد !.

وصلى الله على سيدنا محمد ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المدينة المنورة ٣/٦/١٤١٥هـ عبد العزيز قارة

بسم الله الرحمن الرحيم

التقدمة :

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستغفره ، ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .
الحمد لله الذي ألف بين قلوب المؤمنين وجعلهم كالجسد الواحد ، وكالبنيان المرصوص ، بعد أن كانوا قبل إسلامهم أعداءً لبعضهم ، يقتل بعضهم بعضاً ، ويسفكون دماءهم لأتفه الأسباب .

والحمد لله كثيراً حيث جعل المؤمنين متحابين فيما بينهم ، متراحمين متآلفين متعاونين ، يؤثر بعضهم بعضاً ، ويتحملون إساءة بعضهم لبعض ، ويعفو بعضهم عن بعض ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، مما أهَّلهم ليكونوا سادة العالم وقادته وهداته ، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يعيد فينا هذه الصفات الخالدة .

وبعد : فإن هذا البحث قد كتب لإخوان لنا في الإسلام ، موزَّعين في أنحاء العالم الإسلامي وأرجائه المترامية ، تراهم متمسكين بالإسلام جداً غيورين عليه ، مستعدين للموت في سبيله كل لحظة ! لكن لبعدهم عن بلاد الإسلام الآهلة بالعلم والعلماء تسيطر عليهم أفكار ناشئة عن عادات قبلية تكوّنت لديهم ، فأبعدتهم عن تعقُّل هذا الإسلام تماماً وفهم روحه وجوهره .

أثَّرت عليهم العادات القبلية ، وسيطرت عليهم العصبيات الجاهلية ، بحيث أصبحت توازي غيرتُهم عليها غيرتهم على دينهم وإسلامهم أو تزيد !! .

وكما أننا نراهم يقدِّمون دماءهم في سبيل إسلامهم أمام الكافرين نراهم يقدمونها أيضاً في سبيل العنصريات والعصبيات الجاهلية أمام القبائل الأخرى سواء كانوا كافرين أو مسلمين ! .

وترى هذه العنصريات القَبَلية منتشرة في كثير من البلاد الإسلامية وقد أدت إلى إزهاق أرواح كثيرة من البشر مما دفعني لكتابة هذا البحث الموجز لهؤلاء الإخوة على أمل أن يقوم علماؤهم بترجمته للغاتهم بعد أن يتم توزيعه على علمائهم وطلبة العلم منهم باللغة العربية .

ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به جميع المسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

وكتبه

عبد العزيز عبد الرحمن قارة

المدينة المنورة ٩/ ٢/ ١٤١٤هـ

* * *

الفصل الأول
كيف عالج القرآن الكريم العنصرية بأنواعها

كلكم لآدم فلا تفاوت

البشر كلهم لآدم عليه السلام ، هذه حقيقة أثبتها القرآن الكريم وأحاديث خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه .

إنها حقيقة يؤمن بها كل من آمن بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً ، بل تؤمن بها جميع الأديان السماوية السابقة .

ومع هذا فمن العجب أن نجد نحن المسلمين من بيننا من يعتقد أن أصله أفضل ، أو أن جنسه أرقى .

آيات الله سبحانه وتعالى في خلقه

إن الله سبحانه وتعالى فاضل بين الناس في أمور كثيرة في الإيمان والكفر في العلم والجهل ، في الغنى والفقر ، في الجمال والقبح ، في القوة والضعف ، في الذكاء والغباء ، ولكن ليس في الأصل والنسب ، وهذه الصفات التي يتفاضل الناس بها من علم ورزق وجمال وقوة وغيرها، موجودة في كل شعب ، وفي كل قبيلة ، وفي كل مدينة وبلد وقرية في العالم كله ، وهي من آيات الله سبحانه وتعالى . حتى بين الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً ، قال تعالى : ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية (٢٥٣) .

والله سبحانه وتعالى جعل البشرية شعوباً وقبائل للتعارف والتآلف ، والتعاون والتحاب .

والمسلم لايحتقر الإنسان غير المسلم لشخصه ، بل يحتقر اعتقاده إذا كان مشركاً أو كافراً ، بدليل أنه إذا أسلم المشرك أو الكافر أصبح أخاً للمسلم على الفور ، بل إن المسلم مكلف أن يهجر أخاه المسلم إذا كان مجرماً أو عاصياً أو منحرفاً أو ظالماً أو خائناً حتى لو كان من قبيلته أو عائلته أو أبنائه ، ويصبح أحب الناس إليه إذا توقف عن ذلك وتاب إلى الله .

التقسيم الرباني للبشر كما جاء في القرآن الكريم

لقد سوّى الإسلام بين بني البشر ، وقرّر وأكّد المساواة الكاملة بين الجميع ، وليس هناك مايسمى (طبقية) داخل المجتمع الإسلامي ، فالجميع متساوون في الحقوق والواجبات ، وليس هناك ميزة لأحد على الآخر إلا بالتقوى ، فمن كان أكثر عبادة أو عملا لمصلحة الإسلام ، أو جهاداً في سبيله بنفسه أو بماله أو بهما معاً للدعوة إلى الله ، فهو الأفضل والأكرم عند الله ، وعندما يقوم بهذه الأعمال السامية ليس له فضل على الناس ، لأن هذه الأعمال ابتغى بها وجه الله سبحانه وتعالى ، وليس ليتفاضل بها على الآخرين ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾[1] .

يقول الله سبحانه وتعالى أول سورة النساء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾[2] .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية (١٣) .

(٢) سورة النساء ، الآية (١) .

يقول سيد قطب رحمه الله تعليقاً على هذه الآية في كتابه الشهير « في ظلال القرآن » بعد شيء من الاختصار :

هذه الآية العظيمة الكريمة التي ابتدأت بها سورة النساء ترد الناس إلى رب واحد وخالق واحد وأسرة واحدة ، وتجعل وحدة الإنسانية هي «النفس» ووحدة المجتمع هي الأسرة ، وتستجيش في النفس تقوى الرب ورعاية الرحم . . . ، لتقيم على هذا الأصل الكبير كل تكاليف التكافل والتراحم في الأسرة الواحدة ، ثم في الإنسانية الواحدة ، وترد إليه سائر التنظيمات والتشريعات التي تنظمها السورة .

إن هذه الحقائق الفطرية البسيطة لهي حقائق كبيرة جداً ، وعميقة جداً وثقيلةٌ جداً . . . ، ولو ألقى الناس أسماعهم وقلوبهم إليها لكانت كفيلة بإحداث تغييرات ضخمة في حياتهم ، وبنقلهم من الجاهلية أو من الجاهليات المختلفة إلى الإيمان والرشاد والهدى ، وإلى الحضارة الحقيقية اللائقة بالناس والنفس ، واللائقة بالخلق الذي ربُّه وخالقه هو الله .

إن هذه الحقائق تجلو للقلب والعين مجالاً فسيحاً لتأملات شتى :

١- إنها ابتداء تذكر الناس بمصدرهم الذي صدروا عنه ، وتردهم إلى خالقهم الذي أنشأهم في هذه الأرض . . . هذه الحقيقة التي ينساها الناس فينسون كل شيء ! ، ولا يستقيم لهم بعدها أمر ! .

إن الناس قد جاءوا إلى هذا العالم بعد أن لم يكونوا فيه . . . ، فمن الذي جاء بهم ؟ إنهم لم يجيئوا إليه بإرادتهم ، فقد كانوا - قبل أن يجيئوا - عدماً لا إرادة له . . . .

٢- كما أنها توحي بأن هذه البشرية التي صدرت من إرادة واحدة ، تتصل في رحم واحدة ، وتلتقي في وشيجة واحدة ، وتنبثق من أصل واحد ، وتنتسب إلى نسب واحد :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ . . . ﴾(١) .

ولو تذكر الناس هذه الحقيقة ، لتضاءلت في حسهم كل الفروق الطارئة ، التي نشأت في حياتهم متأخرة ، ففرقت بين أبناء النفس الواحدة ، ومزقت وشائج الرحم الواحدة ، وكلها ملابسات طارئة ما كان يجوز أن تطغى على مودة الرحم وحقها في الرعاية ، وصلة النفس وحقها في المودة ، وصلة الربوبية وحقها في التقوى .

واستقرار هذه الحقيقة كان كفيلاً باستبعاد الصراع العنصري ، الذي ذاقت منه البشرية ما ذاقت ، وما تزال تتجرع منه حتى هذه اللحظة الحاضرة ، في الجاهلية الحديثة ، التي تفرق بين الألوان ، وتفرق بين العناصر ، وتقيم كيانها على أساس هذه التفرقة ، وتذكر النسبة إلى الجنس والقوم ، وتنسي النسبة إلى الإنسانية الواحدة والربوبية الواحدة .

واستقرار هذه الحقيقة كان كفيلاً كذلك باستبعاد الاستعباد الطبقي السائد في وثنية الهند ، والصراع الطبقي الذي تسيل فيه الدماء أنهاراً ، في الدول الشيوعية ، والذي ماتزال الجاهلية الحديثة تعتبره قاعدة فلسفتها المذهبية ، ونقطة انطلاقها إلى تحطيم الطبقات كلها ، لتسويد طبقة واحدة ، ناسية النفس الواحد التي انبثق منها الجميع ، والربوبية الواحدة التي يرجع إليها الجميع ! .

٣- والحقيقة الأخرى التي تتضمنها الإشارة إلى أنه من النفس الواحدة ﴿ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا . . . ﴾ ، كانت كفيلة - لو أدركتها تلك البشرية - أن توفر عليها تلك الأخطار الأليمة ، التي تردت فيها ، وهي تتصور في المرأة شتى

---

(١) سورة النساء ، الآية (١) .

التصورات السخيفة ، تراها منبع الرجس والنجاسة ، وأصل الشر والبلاء . . . وهي من النفس الأولى فطرة وطبعاً ، خلقها الله لتكون لها زوجاً ، وليبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً ، فلافارق في الأصل والفطرة ، إنما الفارق في الاستعداد والوظيفة . . . .

٤- كذلك توحي الآية بأن قاعدة الحياة البشرية هي الأسرة ، فقد شاء الله أن تبدأ هذه النبتة في الأرض بأسرة واحدة ، فخلق ابتداءً نفساً واحدةً ، وخلق منها زوجها ، فكانت أسرة من زوجين ، ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً . . .﴾ ولو شاء الله لخلق - في أول النشأة - رجالاً كثيراً ونساءً ، وزوجهم ، فكانوا أسراً شتى من أول الطريق ، لا رحم بينها من مبدأ الأمر ، ولا رابطة تربطها إلا صدورها عن إرادة الخالق الواحد ، وهي الوشيجة الأولى ، ولكنه سبحانه شاء - لأمر يعلمه ولحكمة يقصدها - أن يضاعف الوشائج ، فيبدأ بها من وشيجة الربوبية - وهي أصل وأول الوشائج - ثم يثني بوشيجة الرحم ، فتقوم الأسرة الأولى من ذكرٍ وأنثى - هما من نفس واحدة وطبيعة واحدة وفطرة واحدة - ومن هذه الأسرة الأولى يبث رجالاً كثيراً ونساءً ، كلهم يرجعون ابتداءً إلى وشيجة الربوبية ، ثم يرجعون بعدها إلى وشيجة الأسرة ، التي يقوم عليها نظام المجتمع الإنساني، بعد قيامه على أساس العقيدة .

إبليس أول عنصري يستكبر عن أمر ربه ويدَّعي أنه الأفضل

قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ

ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾[١] .

هذه القصة ، قصة إبليس وآدم ، ذكرها الله تبارك وتعالى في سورة البقرة ، وفي أول سورة الأعراف ، وفي سورة الحجر ، والإسراء والكهف ، وهاهنا في سورة ص ، وهي أن الله سبحانه وتعالى أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه السلام بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، وتقدم إليهم الأمرُ متى تم خلقه وتسويته فليسجدوا له ، إكراماً وإعظاماً واحتراماً وامتثالاً لأمر الله تعالى عز وجل ، فامتثل الملائكة كلهم سوى إبليس – ولم يكن منهم جنساً – ، كان من الجن ، فخانه طبعه ، وجبلته أحوجَ ماكان إليه ، فاستنكف عن السجود لآدم وخاصم ربه عز وجل ، وادعى أنه خير من آدم ، لأنه مخلوق من نار ، وآدم مخلوق من طين ، والنار خير من الطين في زعمه ، فقد خالف أمر ربه وكفر بذلك ، فأبعده الله عز وجل ، وأرغم أنفه وطرده عن باب رحمته وحضرة قدسه ، وسماه إبليس ، لأنه قد أُبلس من الرحمة ، وأنزله من السماء مذموماً مدحوراً إلى الأرض .

لقد رفض إبليس السجود حسداً لآدم ، واحتقاراً له ، لأنه اعتقد أنه أفضل منه حيث قال : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ أفضل منه في الأصل وفي العنصر حسب اعتقاده . إذاً فإبليس لعنه الله أول العنصريين ، وأول من أوجد العنصرية ، عنصرية التفاضل ، وعنصرية الجنس ، حيث أراد أن يميز ويفضل نفسه على آدم عليه السلام .

والفرق بين إبليس والعنصريين من البشر ، أن إبليس ادَّعى أنه خُلِقَ من

---

(١) سورة ص ، الآيات (٧١-٨٦) .

النار وليس من الطين ، وأن النار أفضلُ من الطين بزعمه ، أما العنصريون من البشرِ فهم يفضلون أنفسهم على بني جنسهم من البشر ، بدون أن يذكروا سبباً أو مبرراً ، لأن أبا البشر جميعاً واحد ، وهو آدم ، وأمهم واحدة ، وهي حواء ، فمن أين أتى التفاضل إذاً ؟ .

يخيل إليَّ أن إبليس أقوى العنصريين ، لأنه ميز نفسه وهو من جنس غير البشر حقيقة ، فقد خلق من النار ، ولكن الله لعنه وغضب عليه ، لأنه فضل نفسه واستكبر عن السجود لآدم ، وعصى أمر ربه ، بينما العنصريون من جنس واحدٍ ، ومن أصل واحدٍ ، وهناك نقطةٌ مهمةٌ يمكن استنتاجها من هذه الآيات وهي : إذا كان الله سبحانه وتعالى قد غضب على إبليس ولعنه وأبعده وطرده من باب رحمته وجعله من الكافرين، لأنه رفض السجود لآدم لاعتقاده أنه خيرٌ منه وبذلك عصى أمر ربه .

فكيف الأمر بالنسبة للعنصريين ، وما حكمهم بالنسبة للشرع ؟ ألم يعصوا أمر الله الذي أكد وحدة الجنس البشري ، وأن البشر كلهم من أب وأم واحدة ، وأن الله جعلهم شعوباً وقبائل للتعارف والتحاب والتآلف ، وليس للتفاضل ، ثم أكد أن أكرمهم عند الله أتقاهم ، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[1] ومع هذا فهم يصرون على أنهم الأفضل والأحسن ، أليس هذا عصياناً لأمر الله ، وإصراراً على مخالفته واستكباراً عن إطاعةِ أوامره سبحانه! ، فليتدبر العنصريون هذا وليَعُودُوا لأمر الله ويتوبوا إليه ، فوالله لانريد إلا هدايتهم وإرشادهم وإعادتهم لطريق الهدى والرشاد .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية (١٣) .

العنصرية تزكية للنفس بالباطل

يقول سبحانه : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾[١] .

ويقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾[٢] .

إنه العلم السابق على ظاهر أعمالهم ، العلم المتعلق بحقيقتهم الثابتة ، التي لا يعلمونها هم ، ولا يعرفها إلا الذي خلقهم ، علمٌ كان وهو ينشيء أصلهم من الأرض وهم بعدُ في عالم الغيب ، وكان وهم أجنةٌ في بطون أمهاتهم لم يروا النور بعد ، علم الحقيقة قبل الظاهر ، وبالطبيعة قبل العمل .

ومن كانت هذه حقيقة علمه يكون من اللغو - بل من سوء اللغو - أن يعرِّفه إنسانٌ بنفسه ، وأن يعلِّمه سبحانه بحقيقته ، وأن يثني على نفسه أمامه ، يقول له : أنا كذا ، وأنا كذا .

فما هو بحاجة إلى أن تدلُّوه على أنفسكم ، ولا أن تزينوا له أعمالكم ، فعنده العلم الكامل ، وعنده الميزان الدقيق ، وجزاؤه العدل ، وقوله الفصل ، وإليه يرجع الأمر كله[٣] .

فتزكية النفس ليست من صفات المؤمن حتى لو كان صادقاً ، ولذلك نُهِيَ أن يمدح المسلم نفسه ، بل يجب أن يتهم نفسه بالتقصير دائماً ، وينسب الخطأ إلى نفسه ، إذاً فما دام الله سبحانه وتعالى نهى عباده المؤمنين أن يزكوا أنفسهم حتى لو كان حقاً وصدقاً - أليس جديراً بالعنصريين ألا يزكوا أنفسهم

---

(١) سورة النجم ، الآية (٣٢) .
(٢) سورة النساء ، الآية (٤٩-٥٠) .
(٣) انظر « في ظلال القرآن » .

بالباطل وبالكذب وبالافتراء على الله عندما يتفاضلون بنسبهم وجنسهم وعرقهم ولونهم وقبيلتهم - ، وما الهدف الذي يسعون إليه من تفاضلهم هذا ؟ .

أليست البشرية كلها من مصدر واحد بدون استثناء تعود إلى آدم ، فكيف يكون لهم ميزة أو أفضلية في نسبهم أو جنسهم ، المسألة كلها وهْم لا أساس له من العلم ، ولا من الواقع ، ولا حجة فيها ، ولا دليل ، ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ فلا حجة ولا علم ولا يقين ، إنما هو الظن يقيمون عليه العقيدة الجديدة ، عقيدة العنصرية وتفاضل الجنس والعرق ، إنه الهوى ، يستمدون منه الدليل وحب الظهور والتفاخر والتباهي ، وإذا انتهى الأمر إلى شهوة النفس وهواها ، فلن يستقيم أمر ولن يجدي هدى ، لأن العلة هنا ليست خفاء الحق ، ولا ضعف الدليل ، إنما هو الهوى الجامح الذي يريد ، ثم يبحث بعد ذلك عن مبرر لما يريد ، وهي شر حالة تصاب بها النفس المغرورة فلا ينفعها الهدى ولا ينفعها الدليل .

قال أبو بكرة رضي الله عنه : مدح رجلٌ رجلاً عند النبي ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « ويلك قطعت عنق صاحبك - مراراً - ، إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالةَ فليقل : أحسب فلاناً والله حسيبه ، ولا أزكّي على الله أحداً ، أحسبه كذا وكذا ، إن كان يعلم ذلك » . رواه البخاري ومسلم .

وجاء رجلٌ إلى عثمان فأثنى عليه في وجهه ، فجعل المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب ويقول : أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المدّاحين أن نحثوا في وجوههم التراب . رواه مسلم [١].

---

(١) انظر « تفسير ابن كثير » .

ويقول سيد قطب رحمه الله [١]: ودعوى اليهود أنهم شعب الله المختار هي دعواهم من قديم ، وقد اختارهم الله فعلاً لحمل الأمانة وأداء الرسالة وفضلهم على العالمين في ذلك الأوان ، وأهلك لهم فرعون وملأه ، وأورثهم الأرض المقدسة . . . ولكنهم هم انحرفوا بعد ذلك عن منهج الله ، وعتوا في الأرض عتواً كبيراً ، واجترحوا السيئات التي تضج منها الأرض ، وأحل لهم أحبارهم ما حرم الله عليهم ، وحرموا عليهم ما أحله الله ، واتبعوهم ولم ينكروا عليهم حق الألوهية ، بما ادَّعوه عملياً بهذا التحريم والتحليل .

وقد بدل هؤلاء الأحبار في شريعة الله ليرضوا ذوي السلطان والشرفاء ، وليملأوا كذلك رغبات الجماهير وأهواءهم ، وبذلك اتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله ، وأكلوا الربا ، ووهنت علاقتهم بدين الله وكتابه الذي أنزله الله عليهم . . . .

وعلى الرغم من ذلك كله – وغيره كثير – فقد ظلوا يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة ، وأنه لا يهتدي ولا يقبل عند الله إلا من كان هوداً ! ، كأن المسألة مسألة قرابة ونسب ومحاباة بينهم وبين الله – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – فالله لا تصل بينه وبين أحد من خلقه قرابة ولا نسب ، إنما تربط عباده به العقيدة المستقيمة ، والعمل الصالح ، والاستقامة على منهج الله . . فمن أخل بهذا فقد غضب الله عليه ، ويشتد غضبه إذا كان قد أتى الضالين الهدى فانحرفوا عنه ! ، وما شأن هؤلاء اليهود إلاشأن من يزعمون الإسلام اليوم [٢]، ويحسبون أنهم من أمة محمد ﷺ ، وأن الله لا بد ناصرهم ، ومخرج لهم اليهود من أرضهم . . . ،

---

(١) « في ظلال القرآن » ٢:٣٩٩ حتى ٤٠١ .
(٢) يريد : في الادعاء ، لا في الحكم عليهم .

بينما هم ينسلخون انسلاخاً كاملاً من دين الله الذي هو منهجه للحياة ، فينبذونه من حياتهم ، ولا يتحاكمون إلى كتاب الله لافي أقضيتهم ولا في اقتصادهم ، ولا في اجتماعهم ، ولا في أدبهم ، ولا في تقاليدهم .

وكل ما لهم من الإسلام أسماء المسلمين ! ، وأنهم ولدوا في أرضٍ كان المسلمون يسكنونها ذات يوم ويقيمون فيها دين الله ويحكمون منهجه في الحياة ، والله يُعجِّبُ رسوله ﷺ من أمر أولئك اليهود الذين يزكون أنفسهم ، وأَمْرُ المسلمين المعاصرين أعجَبُ وأشد إثارةً للتعجب !! .

إنه ليس الناس هم الذين يزكون أنفسهم ، ويشهدون لها بالصلاح والقرب من الله واختيار الله ، إنما الله هو الذي يزكي من يشاء ، فهو أعلم بالقلوب والأعمال ، ولن يظلم الناس شيئاً ، إذا هم تركوا هذا التقدير لله سبحانه واتجهوا إلى العمل ، لا إلى الادِّعاء ، فلئن عملوا وهم ساكتون متواضعون في حياء من الله ، وبدون تزكية ولا ادِّعاء ، فلن يُغْبَنُوا عند الله ، ولن ينسى لهم عمل ، ولن يبخس لهم حق .

والله سبحانه يشهد على اليهود أنهم - يزكون أنفسهم ويدَّعون أن الله راضٍ عنهم - يفترون عليه الكذبَ ، ويشنع بفعلتهم هذه ، ويوجه الأنظارَ إلى بشاعتها .

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ .

وما أرى أننا الذين ندعي الإسلام ، لأننا نحمل أسماء المسلمين ، ونعيش في أرض كان يسكنها المسلمون ! ، بينما نحن لا نجعل الإسلام في شيء من منهجنا في الحياة. . . ، وما أحسبنا ونحن ندعي الإسلام ، فنشوه الإسلام بصورتنا وواقعنا ، وتؤدي ضده شهادة منفِّرة منه ! ، ثم ونحن ندعي أن الله مختار لنا لأننا أمة محمد ﷺ ، بينما دين محمد ومنهجه مطرود من واقع حياتنا طرداً. . . ، ما أحسبنا إلا في مثل هذا الموضع الذي

يُعَجِّبُ الله سبحانه منه رسوله ﷺ ، ويدفع أصحابه بافتراء الكذب على الله وارتكاب هذا الإثمِ المبين ! والعياذ بالله .

لأن دين الله منهج حياة ، وطاعة الله هي تحكيم هذا المنهج في الحياة والقرب من الله لا يكون إلا بطاعته. . . فلننظر أين نحن من الله ودينه ومنهجه ! ثم لننظر أين نحن من حال هؤلاء اليهود ، الذين يعجب الله من حالهم ، ويدمغهم بإثم الافتراء عليه في تزكيتهم لأنفسهم ! فالقاعدة هي القاعدة ، والحال هو الحال ، وليس لأحد عند الله نسب ولا صهر ولا محاباة !!! . انتهى .

فليتفكر وليتأمل العنصريون ذلك فإنهم سيكتشفون لا محالة أن تفاضل البشر بجنسهم وعروقهم وقبائلهم وعصبياتهم افتراء وكذب على الله ، وتزكية للنفس بالباطل .

كيف كان العرب قبل الإسلام

كانت بلاد العرب قبل الإسلام بلاداً فقيرة ، لكل قبيلة صنم من الأصنام تعبده من دون الله ، كان السلب والنهب سائداً في ذلك الحين : زنى وكذب وغش وخيانة، كانوا يتقاتلون على موارد المياه والمراعي ، فلما أراد الله أن يحيي هذه الأمة ، أرسل محمداً ﷺ فأخرجهم من الظلمات إلى النور .

يقول تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1] .

كان بعض الناس قبل الإسلام مثل الحيوان، لايعرف الوضوء ولاالاستنجاء ولا التطهر ولا الغسل من الجنابة ، ولا يقلم أظفاره ، ولا يقص شاربه ، ولا يحلق عانته وتحت إبطه ، تماماً كما يفعل بعض الجهلة تشبهاً بالنصارى .

---

(١) سورة الجمعة ، آية (٢) .

كان الإنسان يقتل ابنته ، ويزني ويشرب الخمر ، ويأكل الربا ، ويخون الأمانة ، ويأكل أموال الناس بالباطل ، ويقتل ويسفك الدماء ، ويظلم في سبيل العنصرية والقبلية ، فعلمه الإسلام أن هناك جنة وناراً وحساباً وميزاناً وصراطاً ، وعلمه آيات الله والحكمة ، والرحمة والمحبة ، والشفقة والمساواة بين البشر ، والعدالة والأمانة ، والنزاهة والإخلاص لهذا الدين ، والدعوة إليه والجهاد في سبيله ، حتى أخرج هذه الأمة العظيمة بعد بضع وعشرين سنة ، الأمة الأولى جيل الصحابة الكرام ، أفضل أمة ، تلك الأمة التي طبقت ونفّذت أوامر الله ورسوله .

روى جبير بن حية الحديث الطويل في بعث النعمان بن مقرِّن رضي الله عنه إلى أهل الأهواز ، وأنَّهم سألوا أن يخرج إليهم رجلاً ، فأخرج المغيرة بن شعبة ، فقال ترجمان القوم : ما أنتم ؟ ، فقال المغيرة : نحن ناس من العرب كنا في شقاء شديد وبلاء طويل ، نمصُّ الجلد والنوى من الجوع ، ونلبس الوبر والشعر ، ونعبد الشجر والحجر ، فبينما نحن كذلك إذ بعث رب السماوات ورب الأرض إلينا نبياً من أنفسنا نعرف أباه وأمه ، فأمرنا نبينا رسول ربنا ﷺ أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده ، أو تؤدوا الجزية ، وأخبرنا أن من قُتِل منا صار إلى جنة ونعيم لم ير مثله قط ، ومن بقي منا ملك رقابكم [١] .

بعض عادات العنصريين والقبليين وتقاليدهم في النسب وأسماء الأجداد

ومن سخافات القبليين والعرقيين من يقول : نحن نحفظ سلالتنا لمئات أو آلاف السنين ونعرف أسماء أجدادنا وتسلسلنا لآلاف الأسماء !

فما قيمة هذا الهراء وهذا السخف ، حتى لو كنتم حقيقة تعرفون أسماء

---

(١) « حياة الصحابة » ٣ : ٤٢٩ .

المئات والآلاف من أجدادكم ، فإن الكفرة والمشركين منهم في نار جهنم لا ينفعهم نسبهم وسلالتهم وأسماؤهم وعرقيتهم .

إن المؤرخين الثقات لم يحققوا إلا نسب الأنبياء وخاتمهم سيد البشر محمد ابن عبد الله صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً ، لأنهم أفضل البشر وخيرة خلقه .

وعندما ذكر نسبه الشريف ﷺ ذكر اختلاف في ذلك ، حيث روي عن عروة بن الزبير أنه قال : ما وجدنا أحداً يعرف مابين عدنان وإسماعيل ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون ، وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : إنما ننتسب إلى عدنان ، وما فوق ذلك لا ندري ما هو .

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه انتسب إلى عدنان ولم يتجاوزه ، وكره مالك وجماعة من العلماء أن يرفع الرجل نسبه إلى آدم ، لأن هذا كله من باب التخرص والظنون التي لا يمكن أن يوثق بها ، لأن هذه الأمور لم يكلفنا الله سبحانه بمعرفتها ، حيث يكفي الإنسان أن يعرف نسبه لثلاثة أو أربعة أجداد ، وكذلك فخذه وقبيلته .

مميزات القبليين

وبعض العنصريين يقول : نحن أهل الأصل أو نحن الأصيلون بأجدادنا أو بعاداتنا أو بجنسنا المميز عن الآخرين ، فإذا ناقشته عن معنى الأصل لم يحر جواباً فهو يردد كلمة الأصل كالببغاء بدون أن يفقه ما يقول ، وبعضهم يفسرها أنها العرق الذي لم يقع على أفراده أو بعضهم شيء من الرق أو العبودية ، وآخرون يفسرونها على أنه الجنس الذي احتفظ بعرقيته وسلالته بدون أن يمتزج معه عرق غريب آخر ، ورأي رابع يقول : إنه العرق الذي لم تحمل نساؤه الأولاد غير الشرعيين ، وكلها دعاوي تفتقر الدليل.

المهم أن العنصريين يبررون تفوقهم أو تفاضلهم بالكذب والبهتان ، وهم على كل حال بشر كبقية البشر في أجسامهم وألوانهم وأعضائهم ، وكذلك في طبائعهم المختلفة ، ولا يتميزون عن الآخرين بشيء ، فالبشر يمرضون ويموتون ، وهم كذلك ، كما أن دماءهم وألوانهم كبقية البشر ، وليس كما يعتقد بعض الأوربيين من أن دماءهم زرقاء أو أن الدم المُلوكي يجري في عروقهم ، فجاهلهم هو الجاهل ، وفاسقهم هو الفاسق ، ومشركهم هو المشرك ، ومسلمهم هو المسلم .

وكان بعض العنصريين في الماضي يحتقرون بعض المهن كالحدادة والنجارة والجزارة وما شابه ذلك ، وتسببوا نتيجة اعتقاداتهم في تأخير تقدم شعوبهم لمئات السنين ، ولو كان لدى أجدادهم شيء من علم أو منطق لعلموا أن عباقرة النجارين والحدادين هم الذين شيدوا السفن الضخمة والقطارات والصواريخ والطائرات والمصانع وجميع الوسائل والأدوات المفيدة ، ولو اقتدوا بالأنبياء والرسل لأقنعهم ذلك أيضاً ، لأن النبي نوحاً عليه السلام كان نجاراً ، وأمره الله ببناء السفينة قبل الطوفان ، وكذلك النبي داود عليه السلام حيث كان حداداً يعمل الدروع ويتصدق بأثمانها ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

عنصرية اليهود وأنهم أبناء الله

يقول الله سبحانه وتعالى عن اليهود : ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١] .

قد افتخروا وتفاضلوا بأن النار لن تَمَسَّ جنسهم وعروقهم وقبائلهم إلا

(١) سورة البقرة ، آية (٨٠) .

أياماً معدودة ، وهي الأيامُ التي عبدوا فيها العجلَ وهي أربعون يوماً ، وتفاضلوا على الأمم الأخرى بذلك ، فَكَذَّبهم الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أنكم تكذبون وتفترونَ على الله سبحانه وتقولونَ ما لا تعلمون ، لأن القانون الإلهي الذي وضعه الله لبني البشر جميعاً هو محاسبتُهم على قدرِ أعمالهم ، كما قال سبحانه في الآيات التالية وهو يَرُدُّ عليهم: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[١] .

وكما قال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾[٢] .

والنقير: قيل هي الثغرةُ التي في ظهرِ نواة التمر ، والمعنى أن الإنسان سيحاسبُ على عمله مهما كان صغيراً أو كبيراً خيراً أو شراً .

وهكذا العنصريون بكافة أشكالهم وأنواعهم يزعمون كذباً وزوراً وافتراءً على الله أنهم الجنسُ الأفضل ، والعنصر الأرقى والأحسن ، وأنهم من الأصناف الأصيلة ، ولذلك فهم أرقى وأفضل من الآخرين ، أليس هذا تشابهاً مع خُلُقِ اليهود ؟ .

لقد أمرهم الله أن يقولوا للناس حسناً ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[٣]، أي قولوا كل شيءٍ يدعو للخلق الحسنِ ، للحلمِ ، للعفوِ ، للطفِ ، للمحبةِ ،

---

(١) سورة البقرة ، آية (٨١، ٨٢) .
(٢) سورة النساء ، آية (١٢٣، ١٢٤).
(٣) سورة البقرة ، آية (٨٣).

للأخوة الإيمانية ، للتواصي بالخير ، للأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما قال ﷺ: « لاتحقرنَّ من المعروف شيئاً ، وإن لم تجِد فالْقَ أخاك بوجه طلْق ». أخرجه مسلم.

ولكن اليهود رفضوا وعصوا أوامر الله وفضلوا أنفسهم على الآخرين .

ويقول سبحانه مخاطباً اليهود : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[1]
ولكنهم نقضوا العهد والميثاق فقتل بعضهم البعض ، وسفكوا دماء بعضهم البعض ، وأخرج بعضهم البعض من ديارهم بطردهم وتشتيتهم بالظلم والإثم والعدوان ، وإذا نَتَجَ عن حروبهم التي تقع بين قبائلهم أسرى تفادوهم حسب حكم التوراة .

وقد حدث ذلك من قبائل اليهود عندما كانوا في المدينة المنورة قبل مبعث الرسول ﷺ ، حيث كان هناك ثلاث قبائل من اليهود ، وهم: قبيلة قينقاع وقبيلة بني النضير وهم حلفاء الخزرج المشركين عباد الأوثان ، وقبيلة بني قريظة وكانوا حلفاء الأوس وكانوا من عباد الأوثان أيضاً .

فإذا تقاتلوا وقامت الحرب بينهم ، قتل اليهود بعضهم البعض ، وسفكوا دماءهم ونهبوا وسلبوا أموال بعضهم البعض ، وشرَّدوا بعضهم البعض بإخراجهم من بيوتهم ، إما بالقوة وإما خوفاً من الموت والحرب .

---

(١) سورة البقرة ، آية (٨٤,٨٥).

وهذا محرم عليهم في دينهم كما هو محرم في دين الإسلام ، لأن الدين عند الله الإسلام ، ولأن أصحاب الدين الواحد والملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة ، وكانت العرب تعيِّر اليهود بذلك فيقولون لهم : كيف تقاتلون جنسكم من اليهود ثم تفادونهم ، أي تدفعوا الفدية عن الأسرى منهم لإطلاق سراحهم ؟ ، فيجيب اليهود بأنهم أمروا بحكم التوراة أن يفادوهم لأنه حرم عليهم قتالهم ، وإذا سئلوا لم تقاتلونهم إذاً ؟ ، أجابوا : بأننا نستحي أن نذل حلفاءنا ، والحقيقة هي مصالحهم الذاتية والاقتصادية والدنيوية ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[1] .

وهكذا يفعل العنصريون المسلمون اليوم نفس الشيء حَذوَ القُذَّةِ بالقُذَّة ، يذبِّح بعضهم البعض ، ويسفكون دماءهم ، ويسلبون أموال بعضهم البعض ، ويخرج بعضهم البعض من بيوتهم وديارهم وبلادهم. وقُراهم في سبيل العنصرية ، عنصرية الجنس ، والعرق ، والقبيلة ، كما قال سيد البشر باستثناء شيء واحد ، وهو أن العنصريين المسلمين في هذا الزمن لا يفادون أسراهم ، بل في كثير من الأحيان يقتلونهم ، ويسفكون دماءهم ، حقداً وتشفياً وانتقاماً ، أي أنهم زادوا على اليهود في بغيهم وطغيانهم وعنصريتهم ، ولاحول ولاقوة إلابالله العلي العظيم .

لقد أصبح كثيرٌ من عنصريي اليوم قطعاناً من البهائم والحيوانات المفترسةِ المتوحشةِ ، فنسوا دينهم وعقيدتهم ، وأصبح همُّهم الأوحد الفوزَ أو النصر

---

(١) سورة البقرة ، آية (٨٥،٨٦).

والتفوق على الآخرين بالباطل ، في سبيل استعلاء القبيلة أو الجنس أو اللقب أو القومية ، وكلها مبادىء عَفِنة قَذِرة ، تؤدي لدمارهم وفنائهم وسخطِ الله عليهم في الدنيا والآخرة .

لقد طَغَى حُب الزعامة وحب السيطرة على زعمائهم ، فأعمى بصيرتهم ، فنسوا دينهم وعقيدتهم ، ونفخَ الشيطانُ في رؤوسهم ، فطغوا وتجبروا ، ولاحول ولاقوة إلابالله العلي العظيم .

وقال سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1] .

أي أن اليهود والنصارى قالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ أي منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عنايةٌ وهو يحبنا ، فرد الله عليهم : لو كنتم كما تدَّعون فَلِمَ أَعَدَّ لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم ، ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ أي لكم أسوةُ أمثالكم من بني آدم ، وهو سبحانه الحكم في جميع عباده يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وهو العادل الذي لا يجور ولا يظلم أحداً .

والسبب في هذا الاعتقاد من اليهود والنصارى ، أن في كل منهم فريقين : فريقاً أمياً جاهلا لا يدري شيئاً من كتابهم الذي نزِّل عليهم سوى أوهام وظنون وأماني في النجاة من العذاب ، وفريقاً يستسيغ هذا الجهل وهذه الأُمية فيزوِّر على كتاب الله ويحرِّفُ الكلمَ عن مواضعه بالتأويلات المُغرِضة ، ويكتم منه ما يشاء ، ويبدي منه ما يشاء ، كل هذا ليربح ويكسب ويحتفظ بالرئاسة والقيادة ، ويدعمهم في ذلك العلماء المحتالون والدجالون

---

(١) سورة المائدة ، آية (١٨).

والنفعيون ، وهذا ما يفعله العنصريون في كل مكان ، فهم يخدعون أتباعهم ويقنعونهم بأنهم على حق وأن الآخرين على باطل،حتى يتمكنوا من السيطرةِ عليهم وتسييرهم حسب ما يشتهون ويرغبون وما يزينه الشيطان لهم .

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾ ، يريدون أن يفخروا بذلك وأن يتميزوا عن البشر ، لأن بادِّعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه فإن الله لن يعذبهم بذنوبهم ، ولن يدخلوا النارَ إلاأياماً معدودة ، ومعنى هذا أن عدل الله لايجري مجراه ، وأنه سبحانه يُحابي فريقاً من عباده فيدعهم يفسدون في الأرض بتفاخرهم وتفاضلهم وبآثامهم وجرائمهم ، ثم لا يعذبهم عذاب المفسدين الآخرين ، فأي فساد في الحياة يمكن أن ينشأ عن مثل هذا التصور ، وأي اضطراب في الحياة يمكن أن ينشئه مثل هذا الانحراف .

وهنا يضرب الإسلام ضربته الحاسمة على هذا الفساد في التصور كل ما يمكن أن ينشئه من الفساد في الحياة ، ويقرر عدل الله الذي لا يحابى ، كما يقرر بطلان هذا الادعاء .

﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ .

بذلك يقرر الحقيقةَ الحاسمة في عقيدةِ الإيمان ، يقرر بطلان ادِّعاء البُنُوَّة ، فهم بشرٌ ممن خلق ، يقرر عدل الله وقيام المغفرة والعذاب عنده على أصلها الواحد على مشيئته التي تقرر الغفران بأسبابه ، وتقرر العذاب بأسبابه ، لا بسبب بنوَّة أو صلة شخصية [1] .

عالمية الإسلام منذ العهد الأول

لقد جمعت هذه العقيدة منذ أيامها الأولى صهيباً الرومي الذي عاش بين

(١) انظر « في ظلال القرآن » ٢ : ٦٩٠ .

الروم ، وبلالاً الحبشي وسلمان الفارسي وأبا بكر العربي القرشي تحت راية : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وانتهت العصبية القبلية والجنس والأرض وقال سيد البشر ﷺ : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية »[1].

وهكذا ماتت نصرة الجنس ، وانتهت العنصرية بكافة أشكالها وألوانها ، ومنذ ذلك الحين لم يعد وطن المسلم هو الأرض ، وانما وطنه هو دار الإسلام ، وهي كل أرض وكل بلد وكل مدينة في أنحاء هذه الدنيا يمكنه أن يطبق فيها أحكام دينه .

المسلمون يتبرؤون من آبائهم وأبنائهم وأقربائهم المشركين ويقاتلون من حارب الله ورسوله منهم

وعلى هذا الأساس : فإن المسلم يتبرأ من أبيه وأمه ، وأخيه وابنه إذا كانوا مشركين أو كافرين .

والله سبحانه وتعالى قد بين ذلك في كثير من الآيات ، فقد تبرأ النبي إبراهيم عليه السلام من أبيه ، لأنه أصر على عبادة الأصنام ، وتبرأ النبي نوح من زوجته وابنه لأنهما أصرا على الكفر ، وتبرأت آسية امرأة فرعون المؤمنة من زوجها فرعون.

أما في عهد نبينا محمد ﷺ فكما جاء في كلام المقداد بن الأسود رضي الله عنه .

قال جبير بن نفير : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً فمرَّ به رجل فقال للمقداد : طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ ! والله لوددنا أنا

---

(١) رواه أبو داود .

رأينا ما رأيتْ وشهدنا ما شهدت ! فاستُغْضِب ، فجعلت أعجب ما قال إلا خيراً ؟! ثم أقبل عليه فقال :

ما يحمل الرجلَ على أن يتمنى محضراً غيَّبه الله عنه ؟ لا يدري لو شهده كيف يكون فيه ! والله لقد حضر رسولَ الله ﷺ أقوامٌ كبَّهم الله على مناخرهم في جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه . أَوَلا تحمدون الله عز وجل إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم فتصدقون بما جاء به نبيكم ﷺ ، قد كُفيتم البلاء بغيركم ؟ .

والله لقد بُعث النبي ﷺ على أشد حال بُعث عليها نبي قطُّ في فترة وجاهلية ، ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان ، فجاء بفرقان فَرَق به بين الحق والباطل ، وفرّق به بين الوالد وولده ، حتى إن كان الرجل ليرى والده أو ولده أو أخاه كافراً ، وقد فتح الله قفل قلبه بالإيمان ، ويعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار ، وأنها لَلَّتي قال الله عز وجل : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[1] .

ولذلك ، فإنهم في غزوة بدر الكبرى حاربوا بقيادة الرسول ﷺ قريشاً وقاتلوا آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وأقرباءهم لأنهم كانوا مشركين ، ولهذا مدحهم الله سبحانه وتعالى في كتابه فقال سبحانه : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾[2] .

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم ج١-١٧٥ ، والآية من سورة الفرقان (٧٤).

(٢) سورة الفتح ، آية (٢٩).

الولاء والنصرة لله ولرسوله وليس للآباء والأبناء والأقارب

قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[(١)] .

وقال سبحانه : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[(٢)] .

كان الناس أمة واحدة

يقول سبحانه : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[(٣)] .

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله تعالى في « الظلال » عند هذه الآية : كان الناس أمةً واحدةً ، على نهج واحد ، وتصور واحد ، وقد تكون هذه إشارة إلى حالةِ المجموعة البشرية الأولى الصغيرة من أسرة آدم وحواء وذراريهم ،

---

(١) سورة التوبة ، آية (٢٣، ٢٤).

(٢) سورة المجادلة ، آية (٢٢).

(٣) سورة البقرة ، آية (٢١٣).

قبل اختلاف التصورات والاعتقادات ، فالقرآن يقرر أن الناس من أصل واحد ، وهم أبناء الأسرة الأولى ، أسرة آدم وحواء ، وقد شاء الله أن يجعل البشر جميعاً نتاج أسرة واحدة صغيرة ، ليقرر مبدأ الأسرةِ في حياتهم ، وليجعلها هي اللبنةَ الأولى ، وقد غَبرَ عليهم عهدٌ كانوا فيه في مستوى واحد واتجاه واحد وتصور واحد في نطاق الأسرة الأولى ، حتى نمت وتعددت وكثر أفرادها ، وتفرقوا في المكان ، وتطورت معايشهم ، وبرزت فيهم الاستعدادات المكنونة المختلفة ، التي فطرهم الله عليها لحكمة يعلمها ، ويعلمُ ما وراءها من خير للحياة في التنوع ، في الاستعدادات والطاقات والاتجاهات .

عندئذ اختلفت التصورات وتباينت وجهات النظر ، وتعددت المناهج ، وتنوعت المعتقدات . . . وعندئذ بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين .

المؤمنون من عهد آدم إلى قيام الساعة أمة واحدة

والمسلم بإيمانه بجميع أنبياء الله ورسله يؤمن أيضاً بأن جميع هؤلاء الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً هم من خيرة البشر ، لأن الله سبحانه وتعالى اختارهم لرسالته ، كذلك فإن الفئات المؤمنة التي آمنت بأنبيائها واتبعت ما أنزل إليهم وطبقت تعاليمهم - باستثناء المشركين وأهل الكتاب الذين حرفوا الكتب السماوية ولم يؤمنوا برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ - وذلك ابتداءً من أول الأنبياء والرسل حتى خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم هم إخواننا وأحباؤنا مهما كان جنسهم وألوانهم وشعوبهم .

وقد ورد في القرآن الكريم وفي الأحاديث القدسية كثير من قصص أتباعهم ، وأخبارهم ، وجهادهم وتضحياتهم ، لنقتدي بهم ونقتفي آثارهم ، ونتبع هداهم ، بل إن القرآن والسنة ذكرا كثيراً من آياتهم الباهرة

التي منحها الله سبحانه وتعالى لهم ، نتيجة إيمانهم ويقينهم ، مع أنهم ليسوا بأنبياء ، وكذلك وردت كثير من أخبار الفئات المنحرفة والضالة من جميع أنواع البشر تحذيراً لنا من أن نعمل مثلهم أو أن نقتدي بهم .

ذلك لأن الدين واحد وهو الإسلام ، وجميع الأنبياء من عهد آدم إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً دعوا الناس إلى الإسلام . يقول ﷺ في الحديث الصحيح : « إنَّا معاشر الأنبياء ديننا واحد ، والأنبياءُ إخوة لِعَلَّات - أي إن أصل دينهم واحد - وإن أولى الناس بابن مريم لأنا ، لأنه ليس بيني وبينه نبي » ، وهذا الدين هو دين الإسلام الذي لايقبل الله ديناً غيره لامن الأولين ولامن الآخرين ، فإن جميع الأنبياء على دين الإسلام .

قال الله تعالى عن نوح : ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[1] .

وقال عن إبراهيم : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[2] .

---

(١) سورة يونس ، آية (٧١، ٧٢).
(٢) سورة البقرة ، آية (١٣٠-١٣٣).

وقال عن موسى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾(١).

وقال في خبر المسيح : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾(٢).

وقال عن بلقيس إنها قالت : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٣).

ويقول سبحانه : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾(٤).

ولو تدبر العنصريون والقبليون والعرقيون والشعوبيون القرآن العظيم حق تدبره ، لعلموا أن جميع الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً ، لم يقف في وجوههم ويعارضهم في دعوتهم إلا العتاة وأدعياء الزعامة من قومهم وقبائلهم وشعوبهم ، لقد وقف كل قوم ضد نبيهم ، وضد دعوته إلى الدين الحق ، وآذوه ، بل إن البعض قُتلوا من قبل كفار قومهم ، وهم يريدون الخير والسعادة لهم ، مما نتج عن ذلك غضب الله عليهم ، ودمارهم وفناؤهم ، نتيجة كفرهم بالدين الحق .

والآيات السابقة تؤكد أن المؤمنين الذين آمنوا بأنبياء الله ورسله جميعاً حتى خاتمهم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً هم أمة واحدة ، ونحن المسلمين من أمة محمد ﷺ ملزمون بحبهم واحترامهم ، كما أننا

---

(١) سورة يونس ، آية (٨٤).
(٢) سورة المائدة ، آية (١١١).
(٣) سورة النمل ، آية (٤٤).
(٤) سورة الشورى ، آية (١٣).

ملزمون بالإيمان بأنبيائهم ، والكتب المنزلة معهم ، بل نحن ملزمون بالاقتداء بهؤلاء المؤمنين في كثير من قصصهم وأعمالهم التي أخبرنا بها نبينا محمد ﷺ مما لا يتعارض مع آخر الشرائع السماوية .

يقول سبحانه مخاطباً المؤمنين من أمة محمد ﷺ : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[1] .

فإذا كان هؤلاء العنصريون يصرون على أفضليتهم ، وعلى أن عرقهم وعنصرهم هو الأفضل ، رغم أنهم مسلمون يؤمنون بدين الإسلام - ولا يشك أحد في ذلك - فما هو موقفهم من جميع هؤلاء الأنبياء الذين هم سادة البشر ، وأفضل البشر ، وأتقى البشر ، وأهدى البشر ، لأن الله اختارهم لرسالته ، وأمناء على وحيه ، لهداية العباد إلى طريق الحق والخير والمحبة ؟؟ ولأن هؤلاء الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم هم من أجناس مختلفة ، وشعوب متنوعة ، وقبائل متعددة ، ومن أماكن متفرقة في أنحاء الكرة الأرضية ، وألوانهم مختلفة كذلك ، فإذا أصر العنصريون على عنصريتهم وأفضليتهم وأصالتهم على الأجناس الأخرى ، فإن ذلك سيشمل الأنبياء والرسل جميعاً بطريق مباشر أو غير مباشر ، فإذا علموا ذلك وفهموه ومع هذا أصروا على طغيانهم وضلالهم ، فإن هذا سيؤدي بهم إلى إثم عظيم .

ولنضرب مثلاً بالنبي الكريم أَبِي الأنبياء إبراهيم وابنه النبي الكريم إسماعيل صلوات الله وسلامه عليهما ، حتى يظهر الحق جلياً أمام العنصريين بكافة أشكالهم ، وإليكم القصة ملخصة[2] .

---

(١) سورة البقرة ، آية (١٣٦).

(٢) انظر « تاريخ الطبري » ١ : ٢٤٥ .

قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

عندما وصل إبراهيم – ومعه ابنة عمه المؤمنة سارة – إلى مصر ، وكان بها ملكاً جباراً، وكانت سارة زوجة إبراهيم من أحسن الناس ، فلما وصفت للملك الجبار أرسل إلى إبراهيم وقال له : ماهذه المرأة التي معك ؟ قال : هي أختي ، وتخوف إبراهيم إن قال هي امرأتي أن يقتله عنها ، فقال لإبراهيم زينها ثم أرسلها إليَّ ، فأرسلها .

فأقبلت حتى دخلت عليه ، فلما أراد أن يتناولها بيده ، يبست يده إلى صدره ، فلما رأى ذلك الملك أعظم أمرها ، وقال : أُدعي الله أن يطلق يدي فوالله لاأَريبك ولأُحسن إليك ، فقالت : اللهم إن كان صادقاً فأطلق يده ، فأطلق الله يده ، وردها إلى إبراهيم ووهب لها هاجر جارية قبطيةً كانت له .

وكانت هاجر ذات هيئة ، فوهبتها سارة لإبراهيم وقالت : إني أراها امرأةً وضيئةً فخذها لعل الله يرزقك منها ولداً ، وكانت سارة منعت الولد فلم تلد لإبراهيم حتى أسنَّت ، وكان إبراهيم قد دعا الله أن يهب له من الصالحين ، وأُخرت الدعوة حتى كبر إبراهيم ، وعقمت سارة .

ثم إن هاجر ولدت إسماعيل عليهما السلام ، ثم خرج بهما إلى مكة حتى وضعهما قرب البيت – الآن – ، وأراد العودة ، فقالت له هاجر : يا إبراهيم إلى من تَكِلُنا ؟ فقال : إلى الله . فقالت : انطلق فإنه لايضيعنا .

ثم كان من أمرهما ما كان وأخرج الله لهما ماء زمزم ، ومرت قافلة من قبائل جُرْهم تريد الشام ، فشاهدوا الماء ، واستأذنوا أم إسماعيل أن ينزلوا معها ، فأذنت لهم ، وتزوج إسماعيل منهم ، وحضر أبوه ، وَبَنَيا البيت كما أمرهما الله .

ونَبّأ الله عز وجل إسماعيل - أي جعله نبياً - ، وبعثه للعماليق وقبائل اليمن يدعوهم إلى الإسلام ، ومن أبناء إسماعيل : نابت وَقيدر نشر الله منهما العرب وخاصة عرب الحجاز .

ومن هنا نعلم أن أم إسماعيل عليها السلام ،كانت جارية مملوكة لملك جبار ، ثم أعطيت لسارة زوجة إبراهيم عليهما السلام ، ووهبتها لزوجها إبراهيم لعل الله سبحانه يرزقه منها الولد ، وهكذا كان .

فإذا أصر العنصريون والقبليون على عنصريتهم ، فمعنى هذا أنهم يفضلون أنفسهم على أنبياء الله ، ومنهم إسماعيل ، لأن أمه جارية ، فإن فهموا ذلك ثم استمروا في طغيانهم ، فإن هذا يؤدي بهم إلى غضب الله وسخطه .

وقصة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام تعتبر رادعاً وزاجراً للعنصريين والقبليين العرب قبل غيرهم ، لأنهم كانوا يجهلون أن أصل أمهم جارية .

والقصة تشير وتؤكد على أن الجارية أو العبد قد يكونان أفضل وأكرم من كثير من الأحرار عند الله سبحانه وأعظم منزلة ومكانة ، وأكثر صلاحاً وتقوى .

ثم إن إبراهيم عليه السلام أنجب ابنه الثاني إسحاق وإسحاق أنجب يعقوب الذي يعرف أيضاً بإسرائيل وإليهما ينتسب أسباط بني إسرائيل ومنهم كثير من الأنبياء .

فإبراهيم عليه السلام كان له ولدان اصطفاهما الله بالنبوة ، وهما إسماعيل وإسحاق ، فإسماعيل هو جد النبي عليه الصلاة والسلام ، أما إسحاق وابنه يعقوب الذي يعرف بإسرائيل فإليه ينتسب سائر أسباط بني إسرائيل ومنهم كثير من الأنبياء ختموا بعيسى بن مريم عليه السلام .

وقد أشار القرآن الكريم إلى أُبوة إبراهيم للأنبياء الذين جاؤوا بعده ، قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن

ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾(١).

ونستدل من ذلك على أن إبراهيم عليه السلام هو جد المسلمين وجد اليهود والنصارى ، وأن إبراهيم عليه السلام هو الذي سمانا المسلمين من قبل فالله سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾(٢).

فهل اقتنعتم الآن أن عنصريتكم وعرقيتكم وقبليتكم وشعوبيتكم في منتهى الانحطاط ، وفي منتهى الحقارة .

هل تريدون أن تتفاضلوا على أنبياء الله ورسله .

هل تريدون أن تتفاضلوا على سيد البشر وخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ .

سارعوا بالتوبة إلى الله ، وتوقفوا عن هذا العبث وهذا الجهل الذي يؤدي إلى دمار وتفكك المسلمين في كل مكان ، وإلى غضب الله عليكم وسخطه ، ولاحول ولاقوة إلابالله العلي العظيم .

ولو أن المسلمين الأوائل – وهم الصحابة رضوان الله عليهم وكذلك التابعون وهم أفضل قرن بنص القرآن والحديث – اعتقدوا أن نسبهم أو سلالتهم أو جنسهم أو أصلهم أفضل من غيرهم لما قاموا بالدعوة الى الله وبذلوا هذه الجهود العظيمة لإقناع جميع أنواع البشر بهذا الدين العظيم .

كذلك خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ وصحابته رضي الله عنهم

---

(١) سورة الأنعام ، الآية (٨٤-٨٦).

(٢) سورة الحج ، الآية (٧٨).

جميعاً ذُكروا في الكتب السابقة بصفاتهم الحميدة وجهادهم العظيم .

إن الفئات المسلمة المؤمنة المطبقة لهذا الدين في جميع أمور حياتها أفضل وأكرم عند الله من الفئات الملحدة أو الكافرة أو المنحرفة مهما كان جنسها أو لونها أو بلدها .

والعرب قبل الإسلام كانوا من الشعوب الحقيرة الذليلة التي كانت تقتل بعضها البعض ، وتسفك دماءها ، وتستولي على أموال بعضها البعض بالباطل ، في سبيل لقمة العيش ، أو في سبيل التفاخر ، وكانوا يعبدون الحجر والشجر والكواكب ، ويعيشون على النهب والسلب ، والعداء مستحكم بين جميع قبائلهم .

ولكنهم أصبحوا من أعظم الأمم عندما اعتنقوا هذا الدين وطبقوه ودعوا إليه ، وعندما أهملت هذه المبادىء الخالدة بدأوا يعودون إلى عهدهم الأول.

تفاوت البشر في صفاتهم وأخلاقهم وهدايتهم

إن الإيمان والكفر ، والخير والشر ، والاستقامة والانحراف ، والخلق الحسن والخلق السيء ، والعلم والجهل ، والذكاء والغباء ، موجود في كل شعب ، وفي كل قبيلة ، بل في كل عائلة ، وقد نجد الابن المؤمن الصالح التقي ، وفي نفس الوقت نجد أباه كافراً أو فاسقاً ، بل إن كثيراً من الأحيان قد نجد الأخوين من أب وأم واحدة أحدهما تقي والآخر فاسق مجرم .

قال الله تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[١].

قال أهل العلم في سبب نزولها : إنها نزلت في أبي عبيدة عامر بن الجراح حين قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم بدر ، وفي أبي بكر الصديق حين دعا ابنه للمبارزة يوم بدر ، وفي عمر حين قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر ، وفي علي وحمزة حين قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد ابن عتبة يوم بدر .

وهذه الآية تفصل بين حزب الله وحزب الكفر والشرك ، وأن المؤمن يجب عليه أن ينحاز إلى الصف المسلم متجرداً من كل اعتبار ، فلا نسب ولا صهر ، ولا أهل ولا قرابة ، ولا وطن ولا جنس ، ولا عصبية ولا قومية .

إنما هي العقيدة ! من وقف تحتها فهو في حزب الله ، ومن استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة ! وفي سورة التوبة يأتي الأمر الأخير بالمفاصلة ، وأن القضية قضية إيمان وكفر وليست قضية جزئية أو ثانوية .

لمن يكون ولاء المسلم

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[٢].

قال القرطبي في تفسير هذه الآية : إنها باقية الحكم إلى يوم القيامة في قطع

---

(١) سورة المجادلة ، آية (٢٢).
(٢) سورة التوبة ، آية (٢٣، ٢٤).

الولاية بين المؤمنين والكافرين ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ : هو مشرك مثلهم لأن من رضي بالشرك فهو مشرك .

وهذه الآيات العظيمة بينت أن الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن - جميع متع الحياة ولذائذها في كِفَّة ، وفي الكفة الأخرى حب الله ورسوله وحب الجهاد في سبيله ، الجهاد بكل مقتضياته وبكل مشقاته وما يتبعه من نصب وتعب ، ومن ضيق وحرمان ، وألم وتضحية ، واستشهاد ، والدعوة إلى الله ، كل ذلك مجرداً من الصيت والذكر ، والظهور والمباهاة والفخر والرياء .

وهكذا قامت دولة الإسلام الأولى ، وأصبحت الأخوة الإيمانية هي الرابطة الحقيقية المفضلة لمن آمن بهذا الدين ، والبراءة من كل قريب لا يؤمن بالله ورسوله ولو كان أباً أو أخاً أو زوجاً أو ابناً ، وافتخروا بالانتماء لهذا الدين العظيم الذي هو سبب العزة والرفعة والسيادة حتى فتحوا الشرق والغرب .

أما الإحسان إلى الوالدين وبرُّهما وهما كافران فهذا لا بد منه بشرط عدم إطاعتهما في معصية الله سبحانه .

ولا ننسى أصحاب الكهف الذين ذكرهم الله في القرآن حيث فارقوا أهلهم وعشيرتهم ووطنهم بسبب شرك أولئك ، وهم دخلوا الكهف لعبادة الله وحده ، لأنه لا طاقة لهم بمواجهة قومهم .

قتل المشركين الأقارب إذا قاتلونا

جاء في كتاب مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تأليف أبي الفرج ابن الجوزي : أنه بينما عمر بن الخطاب جالس في المسجد يوماً إذ مر به سعيد بن العاص بن هشام ، فسلم عليه، فقال عمر : إني والله يا ابن أخي ما

قتلت أباك يوم بدر ، ولكني قتلت خالي العاص بن هشام ، وما بي أن أكون أعتذر من قتل مشرك ! قال : فقال سعيد بن العاص : لو كنتَ قتلتَه كنتَ على حق ، وكان على باطل .

وفي رواية أخرى : قال عمر : أما أبوك فقد مررت به وهو يبحث بحث الثور فَحِدْتُ عنه وقصد له ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله .

انظر ما أعظم الإيمان في قلوب هؤلاء الرجال ! إن عمر رضي الله عنه يجهر ويفتخر بقتل خاله شقيق أمه لأنه مشرك ! وكذلك الرجل المؤمن سعيد بن العاص يعلن أيضاً أنه حتى لو قتل عمر أباه العاص فإن ذلك حق ، وأن أباه المشرك على باطل ! إنه الإيمان .

قال ابن إسحاق عمن حدثه عن الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص أنه كان يقول : والله ما حرصت على قتل رجل قط كحرصي على قتل عتبة بن أبي وقاص - أخيه من أبيه وأمه - وإنه كان ما علمتُ لسيءَ الخلق مُبَغَّضاً في قومه ، ولقد كفاني منه قول رسول الله ﷺ « اشتد غضب الله على من دَمَّى وجه رسوله »[1].

انظر إنه يتمنى لو أنه قتل أخاه من أبيه وأمه ، لأنه كان عدواً لله ولرسوله! هؤلاء أصحاب الإيمان حقاً !!.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حدثني عمر بن الخطاب رضوان الله عليه قال : قتل يوم بدر من المشركين سبعون رجلاً ، وأسر منهم سبعون ، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر فقال أبو بكر : يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وإني أرى أن نأخذ منهم الفدية ،

---

(١) سيرة ابن هشام ٣:٣٥.

فيكون ما أخذنا منهم قوة على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله تعالى فيكونوا لنا عَضُداً ؟ .

فقال رسول الله ﷺ : « ما ترى يا ابن الخطاب ؟ » فقلت : والله ما أرى ما يرى أبو بكر ، ولكني أرى أن تمكِّنني من فلان - قريب لعمر - فأضربَ عنقه ، وتمكِّن علياً من عقيل - أخيه من أبيه وأمه - فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين! هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم ! .

فهويَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت ، فأخذ منهم الفداء . فلما كان من الغد غدوت إلى النبي ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر ، وهما يبكيان ، فقلت : يارسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاءً بكيت ، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما .

فقال النبي ﷺ : « أبكي للذي عرض لأصحابك من الفداء ، لقد عرض عليَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة » - لشجرة قريبة - وأنزل الله عز وجل ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1] .

العنصريون والأنداد

يقول الله سبحانه : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ

---

(١) رواه مسلم وغيره ، والآية من سورة الأنفال (٦٧، ٦٨).

﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1].

قد يغضبُ العنصريون لأن هذه الآيات الكريمة فيها بيان موقف المتبوعين من التابعين لهم وأن الجميع في النار، وأنا والله لا أعتبرهم كذلك ، بل هم إخوةٌ لنا ، نضمر لهم من الحب والودّ الشيءَ الكثير ، وقلوبنا تتألمُ حزناً على تصرفهم وأخطائهم ، لأننا نؤمنُ بأن عنصريتهم تحدث عن جهل بالدين وعدم معرفتهم بالإسلام ، بالإضافة لغسل عقولهم وتضليلهم من قبل رؤسائهم وزعمائهم ، سواء كانوا زعماءَ قبائل أو غيرَ ذلك ، لقد أقنعوهم بالعملِ للطاغوت ، والقتال في سبيلِ الشيطان .

لقد عادت الجاهلية الأولى أقوى مما كانت عليه قبل الإسلام ، وأخطر بكثير ، لقد كان العنصريون قبل الإسلام يسفكون دماءهم وهم مشركون ، بينما العنصريّون الآن يسفكون دماءهم وهم مسلمون ، أو يدّعون أنهم مسلمون .

مئاتُ القبائلِ والأجناس والعروق من المسلمين تتقاتل وتسفك دماءها ليس لإقامة حكم الله ، وليس لتطبيق الإسلام ، وليس لمنع الظلم وإحقاق الحق ، بل تقاتل بهدف انتصار القبيلة على قبيلةٍ أخرى وإذلالها وإفنائها وإبادتها ، في سبيل الهوى ، وفي سبيل الشيطان ، وفي سبيل الجنس والعِرْقِ .

القتال في سبيل سيطرة القبيلة على الحكم أو على الدولة أو على سلطات أكبر أو مناصب أرفع وأعلا .

القتال في سبيل تمكين زعيم القبيلة أو زعمائها من السيطرة على البلاد وعلى مقاليد الأُمور .

---

(١) سورة البقرة ، آية (١٦٥-١٦٧).

لقد خُدِعَ هؤلاء المساكين المغفلون من قِبَلِ رؤسائهم ومشايخهم بأن القتال في سبيل قبيلتهم وفي سبيل عرقِهم وجنسهم هو طريق الحق .

والسؤال الذي يجب أن نوجهه للعنصريين في كل مكان :

هل هم يقاتلون حباً في الله ، أم حباً في القبيلة ، حباً في الزعامة ، حباً في الحكم .

هل هم يقاتلون ويسفكون الدماء طمعاً في فوز القبيلة وسيطرة القبيلة وسيطرة الجنس والعرق ، أم طمعاً في تطبيق الإسلام والحكم بالإسلام ، والأخوة الإيمانية ، والمحبة والود للمؤمنين جميعاً .

هل هم يقاتلون في سبيل تثبيت زعمائهم وقادتهم الذين خُدعوا بهم ضد زعماء آخرين .

يجب أن يعدُّوا الجوابَ ليوم الحساب ، ويتخذوا الاحتياطات لئلا يتبرأَ زعماؤهم ورؤساؤهم منهم في ذلك الموقف العظيم ، لأن المؤمنَ يضحي بنفسه وبماله وبروحه في سبيل الله ، وليس في سبيل قبيلته أو جنسه أو عرقه أو بلده أو عَلَمه أو قومه أو عشيرته أو زعمائه ورؤسائه ووطنه .

اختاروا أيها العنصريون الإسلام أو الجاهلية

يقول الله سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[١] .

ومن خواطر الشهيد سيد قطب رحمه الله ، المستمدة من ظلال هذه الآية الكريمة : يا أيها الناس ! يا أيها المختلفون أجناساً وألواناً ، المتفرقون شعوباً وقبائل ، إنكم من أصل واحد ، فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بدداً .

---

(١) سورة الحجرات ، آية (١٣).

يا أيها الناس ! والذي يناديكم هذا هو الذي خلقكم من ذكر وأنثى . . . وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوباً وقبائل ، إنها ليست التناحر والخصام ، إنما هي التعارف والوئام ، فأما اختلاف الألسنة والألوان ، واختلاف الطباع والأخلاق ، واختلاف المواهب والاستعدادات ، فتنوعٌ لا يقتضي النزاع والشقاق ، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات ، وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حسابٍ في ميزان الله ، إنما هناك ميزانٌ واحدٌ تتحدد به القيم ، ويعرف به فضل الناس : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ . . . والكريم حقاً هو الكريمُ عند الله ، وهو يزنكم عن علم وعن خبرةٍ بالقيم والموازين ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

وهكذا تسقط جميع الفوارق ، وتسقط جميع القيم ، ويرتفع ميزان واحدٌ بقيمة واحدة ، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر ، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان .

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض ، وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس ، ويظهر سببٌ ضخمٌ واضحٌ للألفة والتعاون : ألوهية الله للجميع ، وخلقهم من أصل واحد ، كما يرتفع لواءٌ واحدٌ يتسابق الجميع ليقفوا تحته : لواء التقوى في ظل الله ، وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس ، والعصبية للأرض ، والعصبية للبيت ، وكلها من الجاهلية وإليها ، تَتَزَيَّا بشتى الأزياء ، وتُسمى بشتى الأسماء ، وكلها جاهلية عارية من الإسلام ! .

وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها ، ليقيم نظامه الإنساني العالمي في ظل رايةٍ واحدةٍ : راية الله . . . لا راية

الوطنية ، ولا راية القومية ، ولا راية البيت ، ولا راية الجنس ، فكلها رايات زائفة لايعرفها الإسلام .

قال رسول الله ﷺ : « كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولَينتهينَّ قومٌ يفخرون بآبائهم ، أو ليكونُنَّ أهونَ على الله تعالى من الجُعلان »[1] .

وقال رسول الله ﷺ عن العصبيةِ الجاهليةِ: « دعوها فإنها مُنتِنَةٌ » رواه البخاري ومسلم.

وهذه القاعدةُ التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي ، المجتمع الإنساني العالمي، الذي تحاول البشرية في خيالها المحلِّق أن تحقق لوناً من ألوانه فتخفق ، لأنها لاتسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم. . . الطريق إلى الله. . . ولأنها لاتقف تحت الراية الواحدة المجتمعة. . . راية الله. . . .

مواقف معاصرة من همجية العنصريين

إن المؤمنين بهذا الدين من أشد الناس كفراً بالعنصرية والعرقية والقبلية والشعوبية ، وقد مر معنا كيف قامت الفئة المؤمنة بقتل آبائهم وأقربائهم المشركين ، ذلك لأن المؤمنين بالإسلام يؤمنون بأن البشرية كلها مصدرها أب واحد وأم واحدة ، ولهذا لا فضل بين أجناسهم وشعوبهم وقبائلهم وألوانهم مهما تعددت أشكالهم وتباعدت أوطانهم ، والتفاضل بينهم يكون على أساس التقوى والعمل الصالح ، والعنصرية أساساً بكافة أشكالها وألوانها هي من صفات غير المؤمنين على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم سواء كانوا عرباً أو عجماً ، بل إن المؤمنين بالإسلام لايضمرون حقداً ولاعداءً لجميع أنواع البشر من غير المسلمين على أساسٍ عنصري ، ويتمنون هداية الجميع للدين الحق ، دين الإسلام ليكونوا إخوةً أعزاء ، ولكنهم يكرهون

---

(١) رواه أبو بكر البزار في مسنده من حديث حذيفة .

الشرك والكفر وعبادة غير الله بكافة الأشكال والألوان .

شاهدت منذ مدة على الفديو محاضرة للداعية الإسلامي : الشيخ عبد المجيد الزنداني - حفظه الله - بعنوان « دعوة لأهل عصرنا »[١] جاء في بدايتها أن صحيفة بريطانية في لندن - ذكر اسمها - كانت قد شبهت العرب على صفحاتها بالخنازير ، وعندما احتج بعض العرب على الصحيفة ، نشرت للمرة الثانية صورة كاريكاتيرية لمجموعة من الخنازير في مظاهرة تحتج على تشبيهها بالعرب ، أي أن الخنازير أفضل من العرب في رأي الصحيفة ! .

وهذا يبين لك مدى العنصرية الرهيبة التي يكنُّها غير المسلمين وخاصة الإنكليز للعرب وغير العرب ، لأن الأوربيين بصفة عامة يحتقرون ما يسمونهم بالمُلَوَّنين عموماً ، ومعنى الملونين عندهم هو جميع البشر من غير الأوربيين ، أو جميع الألوان باستثناء اللون الأبيض النقي ، ومع هذا فإنهم يعتبرون الأتراك مثلاً سادة الملونين ، نظراً لشدة بياض بشرتهم ، ولكنهم في اعتقادهم ملونين أيضاً ! .

وقد عانى الهنود والباكستانيون وغيرهم المقيمون في بريطانيا من التفرقة العنصرية لدى الإنكليز واحتقارهم وإهانتهم لهم معاناة شديدة ، وقد تصل أحياناً للضرب أو القتل ، مع أنهم يحملون الجنسية البريطانية منذ أن كانت الهند مستعمرةً إنكليزية ، والدولة البريطانية هي التي أحضرتهم لتسخيرهم في حفر الأنفاق لتسيير القطارات تحت الأرض ، حيث لم يكن يتوفر في ذلك الوقت وسائل الحفر الأوتوماتيكية الحديثة كما هي الآن ، ولكنهم يتنكرون لهم الآن ويريدون التخلص منهم بأي وسيلة .

وقد شاهدت بعيني وسمعت بأذني بائعاً إنكليزياً يكيل الشتائم والسباب

---

(١) قرطبة للإنتاج والتوزيع رقم الشريط (١٠٤٥).

لرجل باكستاني ، ثم يحاول تسليط كلبه المتوحش عليه ، ولم يكن ذنب الرجل إلا أنه سأل عن سعر إحدى المعروضات .

كما شاهدت بنفسي في لندن بالقرب من المركز الإسلامي ، مجموعة من الشباب الإنكليز ، تزيد عن السبعين شاباً ، تتعقب أحد الشباب السود الإنكليز أيضاً ، والشاب المسكين يجري هارباً مذعوراً ، ولكنها تمكنت من القبض عليه وضربه ضرباً هائلاً غير عابئة بسيارات البوليس التي كانت تلاحقهم ، والشاب يستغيث ! وقد أُنقذ من قبل البوليس وهو في الرمق الأخير ، ولم تكن جريمته إلا أنه أسود اللون .

كيف طبق الإسلام المساواة كاملة بين المسلمين

وقد طبق الإسلام هذا المبدأ تطبيقاً واقعياً في هذه الحياة . طبقها في المساجد حيث تلتقي جميع أجناس البشر في المسجد بجميع الألوان ، وجميع الطبقات ، وجميع المستويات ، وجميع الحالات ، ولا يجد أحد مهما كان مركزه أو ثقافته أو حالته الاجتماعية غضاضة أن يقف مع أخيه المسلم مهما كان مركزه أو وضعه الاجتماعي ! .

كذلك طبقه في الحج كل عام ، حيث تلتقي مختلف الأجناس والألوان والشعوب والقبائل على صعيد واحد ، ولباس واحد ، يخدم بعضهم البعض، ويحترم بعضهم البعض ، ويساعد بعضهم البعض ، ويحبّ بعضهم البعض ، وينادي بعضهم البعض ياحاج ! ياحاج ! مهما اختلفوا في ألوانهم، وفي مراكزهم ، وفي لغاتهم ، وفي بلدانهم وشعوبهم فإذا حدث من أحدهم خلاف ذلك في القول أو العمل أو الاعتقاد فقد باء بالإثم والمعصية، وخسر حجه ، وباء بغضب من الله ! .

ويظهر هذا المعنى جلياً في المؤسسات التعليمية في المملكة أيضاً ، فقد بلغ

عدد جنسيات طلاب إحدى جامعاتها في بعض السنين (١٠٦) مئة جنسية وست جنسيات !!.

والله سبحانه لم يفضل جنساً معيناً من البشر في القرآن الكريم ، بل خاطب دوماً الفئة المؤمنة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، وخاطب البشرية جمعاء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ ، وخاطب أهل الكتاب ، وذكر صفات المؤمنين ، كما ذكر صفات الكافرين والمنافقين ، والفاسقين والمجرمين .

القرآن الكريم يقرن المفاخرة بالمال مع الكفر

يقول سبحانه : ﴿ ۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾[1] .

بعد أن ذكر سبحانه المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين ، وافتخارهم عليهم بأموالهم وأحسابهم وجنسهم وعرقهم وأصلهم .

ضرب مثلاً برجلين جعل الله لأحدهما جنتين أي بستانين من أعناب محفوفين بالنخل - أي حول الجنتين - وكان الثمر في غايةِ الجودةِ والنضج، ولهذا قال سبحانه : ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ ، والأنهار متفرقة هنا وهناك ، فقال لصاحبه وهو يحاوره مفتخراً عليه : ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ أي أكثر منك مالاً وثروةً ، ﴿ وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ بمعنى أنه أفضل قبيلة وأكثر عددا وأعلى جنسا وعرقا ومقاما ، لأنه ينتسب لسلالة

(١) سورة الكهف ، آية (٣٢-٣٦).

عزيزة رفيعة راقية ، ولهذا وبسبب هذا الشعور وهذا التفاخر وهذا التفاضل في الثروة والجنس ، والقبيلة والعرق والأصل دخل جنته وهو ظالم لنفسه ، ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ نتيجة تكبره وتجبره وتفاضله بعائلته وقبيلته ، وبسبب ارتكابه لجريمة التفاضل والتفاخر بأنه هو وسلالته الأفضل والأعز ، وغيره الذليل أصبح ظالما لنفسه ، أي ارتكب جريمة بحق نفسه ، ثم أدى به هذا الانحراف وهذا الاعتقاد إلى الكفر فقال : ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ ، والملاحظ أن الله سبحانه ذكر تكبره وتفاخره وتفاضله بالمال وبسلالته وجماعته من قبيلته أو عرقيته قبل نكرانه لقيام الساعة ، مما يدل على خطورة التفاضل والتفاخر على الآخرين بالثروة وبالحَسَبَ والسلالة والقبيلة، وكبر إثمهما وعظم جريمتهما ، لقد بدأ بالافتخار والتفاضل على صاحبه بماله وعشيرته وقبيلته ، وذلك بقوله : ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ ثم أدَّى هذا التفاضل والتفاخر إلى الكفر وإلى نكران قيام الساعة ، فهو لم يقاتل صاحبه ولم يشتمه ولم يسفك دمه بل افتخر وتفاضل عليه بقوله : ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ فأدى ذلك إلى جحوده باليوم الآخر وكفره .

والعنصريون اليوم لا يفتخرون فقط بمالهم وبسلالتهم وعشيرتهم وبجنسهم وقبائلهم وشعوبيتهم وقوميتهم بل يزيدون على ذلك بسفك دم إخوانهم في الدين والعقيدة .

المشركون يعتمدون على أولادهم وأموالهم

يقول سبحانه في سورة مريم : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ

ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴾[١] .

نزلت في حق بعض زعماء قريش ، وهو العاص بن وائل ، حيث تباهى بأنه سيكون له مالٌ وولدٌ في الدنيا والآخرة ، فأخبر بما أُعِد له من العذاب وأنه لن ينفعه ماله وولده وسيأتي يوم القيامة فرداً ، ومهما قدَّم لولده أو أقربائه من الباطل ، وساهم معهم ظلماً وطغياناً في سفك دماء الآخرين ، بهدف إعزاز القبيلة وسيادتها ونفوذها ، أو ليكون له مكانة أو منصب أو وجاهة بين جماعته وأقربائه وعشيرته ، فسيكون كل ذلك عليه خزياً وندامة وعاراً يوم القيامة ، كما قال سبحانه : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾[٣] أي لا يسأل أخاً له عن حاله وهو يراه عياناً ، ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي لايتناصرون ولا يأتيهم النصر من خارج ، ثم قال جل جلاله : ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ﴾ أي لاينفع يومئذ إلا رحمة الله عز وجل بخلقه[٤] .

عنصرية أبي جهل تمنعه من اعتناق الإسلام

يقول سبحانه في سورة الدخان : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ

---

(١) سورة مريم ، آية (٧٧-٨١).
(٢) سورة الدخان ، آية (٤١، ٤٢).
(٣) سورة المعارج ، آية (١٠).
(٤) انظر تفسير ابن كثير .

ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾[١].

جاء في تفسيرها عند ابن كثير وغيره : أن الله سبحانه يخبر عما يعذب به الكافرين من أن شجرة الزقوم طعام الأثيم - أي الكافر - وقيل : إنه أبوجهل ، ويدخل غيره من الكفار بالطبع ، إلى قوله : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾.

قال الأموي في مغازيه : لقي رسول الله ﷺ أبا جهل لعنه الله ، فقال : « إن الله تعالى أمرني أن أقول لك : ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴾[٢]، قال : فنزع ثوبه من يده وقال : ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء ، ولقد علمتَ أني أمنعُ أهل البطحاء ، وأنا العزيز الكريم ، قال : فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وعيره بكلمته وأنزل : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ أي تقول له الزبانية في جهنم ذلك على وجه التهكم والتقريع ، أي لست بعزيزٍ ولا كريم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾.

عكرمة بن أبي جهل يحدث عن أبيه المشرك

والطريف أن قصة التقاء رسول الله ﷺ مع أبي جهل وهو من زعماء مشركي قريش - والتي ذكرت آنفاً - وردت على لسان ابنه عكرمة رضي الله عنه بعد إسلامه ، وأصبح من كبار المجاهدين ، وقتل شهيداً في الفتوحات الإسلامية باليرموك ، على عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدَّث

---

(١) سورة الدخان ، آية (٤٣-٥٠).
(٢) سورة القيامة ، آية (٣٣،٣٤).

أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة ، أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال :

أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال :

يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها !

قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك .

قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ ، فقال : ماذا سمعت ! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أَطعَموا فأَطعَمنا ، وحملوا فحَمَلنا ، وأَعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفَرَسي رِهان ، قالوا: منا نبيٌّ يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذا ؟ ، والله لا نؤمن به

أبداً ولا نصدقه ، قال : فقام عنه الأخنس وتركه[١].

لقد منعته عنصريته وكبرياؤه أن يؤمن برسالة محمد ﷺ ، لأنه لايريد أن تتفوق قبيلة عبد مناف على قبيلته وفخذه بالنبوة فتتفوق عليه وعلى عشيرته بالشرف والفخر ، إنه يريد أن تتعادلا ، وتتوازيا الشرف على الأقل ، ولهذا رفض الإيمان برسالة محمد كبراً وعنصريةً وعصبيةً ، مع أنه يعرف في قرارة نفسه صدق نبوته ﷺ .

قصة أبي لهب المشرك

أبو لهب هو أحد أعمام الرسول ﷺ ، واسمه : عبد العزَّى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة ، وإنما سمِّي أبا لهب لإشراق وجهه ، وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ ، والبغضة له ، والازدراء به ، والتنقص له ولدينه ، وعندما كان النبي ﷺ يدعو بقوله : « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » والناس مجتمعون عليه ، كان أبو لهب لعنه الله يلحق به ويقف وراءه ، ويقول : إنه صابىء كاذب ، ويتبعه حيث ذهب .

وكان أبو لهب يقول : إن كان ما يقوله ابن أخي حقاً ، فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي ! فأنزل الله : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ يعني ولده ، وقوله تعالى : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ أي ذات شرر ولهب وإحراق شديد ، ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ وكانت من سادات نساء قريش ، واسمُها أروى بنت حرب بن أمية ، أخت أبي سفيان ، وكانت عوناً لزوجها على كفره وعناده ، ولهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾[٢].

---

(١) « سيرة ابن هشام » ١ : ٣٣٧-٣٣٨.
(٢) سورة المسد .

وعن سعيد بن المسيب : أنه كان لها قلادة فاخرة ، فقالت : لأنفقنَّها في عداوة محمد ، فأعقبها الله منها حبلاً من مسد في النار .

وقال بعض أهل العلم في قوله تعالى : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ أي في عنقها حبلٌ من نارٍ تُرفع به إلى شفيرها ثم تُرمى إلى أسفلها ، ثم كذلك دائماً .

قال العلماء : وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة ، فإنه منذ نزل قوله تعالى : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ فأخبرَ عنهما بالشقاء وعدم الإيمان ، لم يقيض لهما أن يؤمنا ولا واحداً منهما ، لا باطناً ولا ظاهراً ولا مُسِراً ولا مُعْلناً ، فكان هذا من أقوى أدلة النبوة[١] .

التفاضل بين أهل الكتاب وأهل الأوثان

في عهد الرسول ﷺ وقبل البدء بالهجرة إلى المدينة المنورة ، وقعت معركة بين الروم وهم أهل الكتاب ، وبين الفرس وهم عباد النار والأوثان ، وكان النصر فيها للفرس ، فحزن المؤمنون في مكة لانتصار المشركين من عباد النار على الروم الذين يؤمنون بوجود الله وهم أهل كتاب ، وفرح المشركون من قريش بانتصار فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان مثلهم ، فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٢] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ : ٥٦٥ .

(٢) أول سورة الروم .

وجاء في تفسير الطبري ما ملخَّصه :

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، لأنهم أصحاب أوثان مثلهم ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أصحاب كتاب ، فذُكِرَ لأبي بكرٍ ، فذكره لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنهم سيَغْلِبون » ، فذكره أبو بكر للمشركين ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً ، فإن ظهرنا كان كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا ، فظهرت الروم في بضع سنين وانتصرت على فارس ، وكسب أبو بكرٍ الرهان – وكان ذلك قبل تحريم الرهان – وبعد فوز أبو بكرٍ بالرهان جاء إلى النبي ﷺ فقال : هذا السحت ، قال : « تصدق به » .كما ورد في رواية الترمذي .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ أي للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى وهم المجوس ، فأَعْجَبَ ذلك المؤمنين ففرحوا به .

وقوله سبحانه : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أي هذا الذي أخبرناك به يامحمد ، مِنْ أنّا سننصر الروم على فارس ، وَعْدٌ من الله حق وخبر صدقٍ لايخلف ولابد من وقوعه ، لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين إلى الحق ويجعل لهما العاقبة .

والهدف من ذكر هذه الآيات ، أن المؤمنين فرحوا بانتصار الروم على الفرس لأنهم أهل كتابٍ وأقربُ للحقِ ، وافتخروا بذلك على المشركين من قريش – أهل مكة – رغم أن هؤلاء المشركين من قريش إخوانهم في الدم والنسب والجنس والقبيلة ، كذلك المشركون من قريش قبلوا الرهان طمعاً في انتصارِ إخوانهم المشركين من المجوس ، لأن هناك تشابهاً في عبادتهما ، فكل منهم يتخذ الأصنام وسيلة لتقربهم إلى الله ، ولهذا فرحوا بانتصار

الفرس في بداية الأمر وافتخروا بذلك على المؤمنين .

وهذه الآيات تؤكد أن علاقة البشر بين بعضهم ، خاصة بين المؤمنين ، يجب أن تكون على أساس الدين والعقيدة ، وليس على أساس النسب والعرق والقبيلة والأجداد ، وقد أدرك المؤمنون هذه المبادى ، فإما إيمانٌ كاملٌ يجعل صاحبه ينحازُ للفئة المؤمنة والعقيدة الإسلامية ، وإما شركٌ أو كفرٌ ينحاز لمبادىء الكفر والشرك ، ولكن العنصريين في هذا الزمن أبَوْا إلا أن يأخذوا من هذا وذاك عن جهلٍ وغباءٍ منهم ، يصرون على الولاء للقبيلة والشعب والوطن والعرق ، في الوقت الذي يعلنون فيه إسلامهم ويطبقون كثيراً من تعاليم هذا الدين .

أما المشركون الأوائل من أهل مكة ، فقد أدركوا ذلك وانحازوا لإخوانهم عباد الأوثان من الفرس وفضّلوهم في الاعتقاد على الفئة المؤمنة من الذين تربطهم بهم أواصر القربى .

لقد كان مشركو قريش في غاية الوضوح والصراحة حتى في شركهم وكفرهم .

العلاقة بين الأقرباء يوم القيامة

يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[١] .

قال المفسرون : يراهم ويفر منهم ويبتعد عنهم ، لأن الهول عظيم ، والخطب جليل ، وفي الحديث الصحيح في أمر الشفاعة ، أنه إذا طُلِبَ إلى كل من أُولي العزم أن يشفع عند الله في الخلائق يقول : نفسي نفسي ، لا أسألك اليوم إلا نفسي ، حتى إن عيسى ابن مريم عليه السلام يقول : لا

---

(١) سورة عبس ، آية (٣٤-٣٧).

أسأله اليوم إلا نفسي ، لا أسأله مريم التي ولدتني[١] .

وليس معنى هذا أن لا يهتم الإنسان بعائلته وأقربائه أثناء حياته ، فإن الإسلام جعل لهم حقاً عظيماً ، والمسلم مكلفٌ بالاهتمام بأهله وأقربائه وقومه وكافة المؤمنين ، وعليه مساعدتهم وإكرامهم ومنع الظلم عنهم وتوجيههم إلى طريق الحق والفضيلة ، والصدقة على فقرائهم أفضل من الصدقة على غيرهم ، ولكن المسلم مسئول أيضاً عن منعهم عن الظلم وأكل أموال الناس بالباطل ، ومنعهم عن الاستكبار والترفع والتفاضل على إخوانهم المسلمين ، من أي نوع أو جنس كانوا ، وكذلك عدم الاعتداء عليهم أو سفك دمائهم أو الإساءة إليهم ، كذلك تَعلِيمُهُم وإرشادهم وتفقيههم في دين الله ليكونوا قدوةً صالحين .

وعنصرية اليوم بين المسلمين يعود سببها ومسؤليتها على الآباء والأمهات بدرجة كبيرة ، لأنهم شجَّعوا أبناءهم على هذا الضلال ، ولم يقوموا بواجبهم حيال تعليمهم وإرشادهم .

المسلم لا يرث الكافر والكافر لا يرث المسلم

والتوارث بين ذوي الأرحام إذا كانوا جميعا مسلمين ، ولكن الثابت في الشريعة الإسلامية أن المسلم لا يرث الكافر ، والكافر لا يرث المسلم ، ولو كان والد الموروث أو أمه .

لقد أصبح المؤمنون أولياء بعضهم لبعض ، كما قال الله سبحانه :
﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[٢] .

---

(١) انظر « مختصر تفسير ابن كثير ».
(٢) سورة التوبة ، آية (٧١).

كل منهم يحب أخاه المسلم كحبه لنفسه ويناصره ويجاهد من أجله ، ويؤثره على كل قريب وحبيب من مال أو أهل أو عشيرة أو ولد ، وأصبحوا كالجسد الواحد ، كما قال رسـول الله ﷺ : « ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » رواه البخاري ومسلم .

والحديث الآخر « المؤمن للمؤمن كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضاً » ثم شبك ﷺ بين أصابعه .

المؤمن الأنصاري يطالب الرسول ﷺ بأن يسمح له بقتل أبيه المنافق

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

قال المفسرون وأهل السير : إن هذه الآية نزلت بحق رئيس المنافقين بالمدينة على عهد رسول الله ﷺ وهو عبدالله بن أُبي ابنُ سَلول ، وكان أهل المدينة أجمعوا على أن يجعلوه ملكاً عليهم قبل إسلامهم ، وبدؤا ينظِمون له تاجاً ليتوجوه عليهم ، إلا أن اعتناقهم للإسلام أوقف ذلك .

وفي أسباب نزول هذه الآية قصة وردت في كتب السيرة وفي التفاسير نوجزها بالآتي :

بعد الانتهاء من غزوة بني المصطلق بقيادة رسول الله ﷺ ، وانهزام بني المصطلق وقتل من قُتل منهم ، وبينما الرسول ﷺ على ماء لهم ، تزاحم أجير لعمر بن الخطاب يقال له جهجاه بن مسعود من بني غفار ، وكان يقود فرساً له ، تزاحم مع سنان ابن وبَر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء ، فاقتتلا فصرخ الجهني : يا معشر الأنصار ، وصرخ جهجاه : يا

---

(١) سورة المنافقون ، آية (٨).

معشر المهاجرين ، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال : « ما بال دعوى الجاهلية » قالوا يا رسول الله : كَسَع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال ﷺ : « دعوها فإنها منتنة » !.

أي : أن طلب النصرة والعون على أساس العنصرية والعصبية لإحداث الفتنة أو الظلم أو العدوان عمل منتن ، أي عفِن قذِر ، وأن هذا عمل جاهلي يتنافى مع طبيعة المسلم وخلقه ، فسمع بذلك عبدالله بن أبيّ ابن سلول رئيس المنافقين - أي سمع ما حدث بين المهاجري والأنصاري - فقال لجماعته : أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فسمع الصحابي زيد بن أرقم ماقاله المنافق وهو من قبيلة المنافق ولكنه من المؤمنين ، فذكر ذلك لعمه سعد بن عبادة وهو رأس الخزرج ، أو لعمر ، فذكره للنبي ﷺ .

وأرسل رسول الله ﷺ إلى عبدالله بن أبي ابن سلول وأصحابه ، فحلف ما قال ذلك ، فصدقه ، فأنزل الله سبحانه وتعالى تصديق ما قاله زيد بن أرقم.

وشاع في المعسكر أن رسول الله ﷺ سيقتل عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، وعلم ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ماكان من أمر أبيه ، فأتى إلى الرسول ﷺ وقال : يارسول الله بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ماكان لها من رجل أبر بوالده مني ، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله بن أبي يمشي في الناس فأقتلَه فأقتلَ رجلاً مؤمناً بكافر ، فأدخلَ النار !.

فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته مابقي معنا » . وفي رواية أخرى أنه استأذن الرسول ﷺ في قتل أبيه فنهاه وقال له : « لا، ولكن بَرَّ أباك وأحسنْ صحبته » .

وعندما اقتربوا من المدينة وقف هذا الشاب المؤمن على باب المدينة واستل سيفه فجعل الناس يمرّون عليه، فلما جاء أبوه المنافق قال له ابنه : وراءك، أي : قف مكانك ، فقال له أبوه المنافق : مالك ويلك ؟ فقال ابنه : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ - أي لن تدخل المدينة إلا بإذن رسول الله ﷺ - وعندما وصل الرسول ﷺ ، وكان إنما يسير ساقةً -أي يسير خلف الجيش تواضعاً ولا يدع أحداً يمشي خلفه- شكا إليه المنافقُ ابنَه المؤمن ، فقال الابن : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له ، فأذن له رسول الله ﷺ ، فقال الابن : أما إذا أذن لك رسول الله فجز الآن [1].

فانظر كيف يكون الولاء لله ولرسوله ، لا لقبيلة ولا لغيرها من الأنساب والأسباب .

الانتصار على شيطان العنصرية البغيض

هكذا إذا فمن أراد أن يدخل في هذا الدين ، ويؤمن بهذا الدين ويطبق هذا الدين ، ويكون مسلماً حقاً ، في حياته ، وعلاقاته بالآخرين فعليه أن ينزع من نفسه ومن أعماقه ظاهراً وباطناً كافة الامتيازات الطبقية وأدنى شعور بالحسب والنسب ، والرفعة والسمو ، والأفضلية على كافة بني البشر ، عليه أن يترك التفاخر وحب الاستعلاء على الآخرين ، وأن يعود إلى حالته الطبيعية التي خلقه الله عليها : عبداً مطيعاً لله ، مستسلماً لأوامره ونواهيه وأحكامه .

ماذا قال القرآن الكريم عن المساواة ووحدة الإنسان والأخوة الإسلامية والتفاوت بين البشر

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ

---

(١) سيرة ابن هشام .

مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[(١)].

وقال سبحانه : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[(٢)].

وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[(٣)].

وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾[(٤)].

وقال سبحانه : ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾[(٥)].

وقال سبحانه : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾[(٦)].

وقال تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾[(٧)].

وقال عز وجل : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾[(٨)].

---

(١) أول سورة النساء .
(٢) سورة الإسراء ، آية (٧٠).
(٣) سورة الحجرات ، (١٣).
(٤) سورة النجم ، آية (٤٥، ٤٦).
(٥) سورة عبس ، الآيات (١٧-١٩).
(٦) سورة النبأ ، آية (٨).
(٧) سورة الطارق ، الآيات (٥-٧).
(٨) أول سورة العلق .

وقال سبحانه : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾(٢).

يقول سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ ﴾(٣).

ويقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾(٤).

ويقول سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(٥).

---

(١) سورة الفتح ، آية (٢٩).
(٢) سورة المؤمنون ، آية (١٠١،١٠٣).
(٣) سورة الحج ، آية (٥).
(٤) سورة المرسلات ، الآيات (٢٠-٢٤).
(٥) سورة التغابن ، آية (٢).

ويقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾[١].

وإن الفارق الأساسي هو السعي والكفاح ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾[٢].

وقال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[٣].

وإن السعادة والحياة الطيبة مضمونة لمن أوفى بشروطها ، وأدى حقوقها من أي جنس أو سلالة ، قال الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٤].

وصرح بأن الأمر ليس بالأماني والأحلام والانتساب إلى الأجداد ، إنما هو بالعقيدة الصحيحة والعمل الصالح واجتناب المعاصي ، وأن الشرع الإلهي عام وشامل ، لا يتميز بين جنس وجنس ، وسلالة وسلالة ، قال تعالى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[٥].

وهكذا ماتت العصبيات الجاهلية القائمة على أساس النسب والدم والعرق واللون والوطن واللغة ، واعتبر العودة إليها أو إحياؤها أو الهتاف بها أو التفاخر على أساسها : رذيلة وإفساداً وجريمة وانحطاطاً وإثماً كبيراً ، ورجعة إلى الجاهلية ، ودماراً للمجتمع المسلم والأمة الإسلامية جمعاء ، قال

---

(١) سورة الأنبياء ، آية (١٠٥).
(٢) سورة النجم ، الآيات (٣٩-٤١).
(٣) سورة المجادلة ، آية (١١).
(٤) سورة النحل ، آية (٩٧).
(٥) سورة النساء ، آية (١٢٣).

تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ﴾[(١)].

وقال سيد البشر وخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من غضب لعصبية »[(٢)].

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « من دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثَى جهنم » قالوا : يارسول الله وإن صام وإن صلى ؟! قال : « وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم ، فادعوا المسلمين بأسمائهم ، بما سماهم الله عز وجل : المسلمين ، المؤمنين ، عبادَ الله عز وجل »[(٣)].

أولياء رسول الله هم المتقون يوم القيامة

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: « إن أوليائي يوم القيامة : المتقون ، وإن كان نسب أقرب من نسب ، فلا يأتيني الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم فتقولون : يامحمد ، فأقول : هكذا وهكذا ؛ لا » وأعرض في كِلا عِطْفيه[(٤)].

وعن ابن عباس قال : لاأرى أحداً يعمل بهذه الآية : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ حتى بلغ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ فيقول الرجل للرجل : أنا أكرم منك ! فليس أحد أكرم من أحد إلا بتقوى الله[(٥)].

وعن ابن عباس قال : ماتعدون الكرم ؟ قد بين الله الكرم ، فأكرَمُكُم عند الله أتقاكم ، ماتعدون الحسب ؟ أفضلُكم حسباً أحسنُكم

---

(١) سورة الفتح ، آية (٢٦).
(٢) رواه أبو داود .
(٣) رواه أحمد في « المسند » ٤ : ١٣٠ .
(٤) رواه البخاري في « الأدب المفرد » رقم الحديث (٩٠٠).
(٥) « الأدب المفرد » رقم الحديث (٩٠١).

خُلُقاً[١].

شياطين اليهود يحاولون إثارة العنصرية بين الصحابة

يقول الله سبحانه وتعالى للمؤمنين : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[٢].

وسبب نزول هذه الآية عند أهل العلم ، كابن جرير وغيره : أن الأوس والخزرج أنصارَ رسول الله ﷺ كانوا قد تآخوا وتآلفوا وتحابُّوا بعد اعتناقهم الإسلام ، حتى أصبحوا أعظم من إخوة الآباء والأمهات ، فغاظ اليهود الذين كانوا يسكنون معهم هذا الإخاء وهذه المحبة وهذا التآلف والتماسك، فأتى يهودي مجرم اسمه شاس بن قيس ودس بينهم شاباً يهودياً ، وأمره أن يذكرهم بمعركة بُعاث التي حدثت بينهما فقال لهم : أنسيتم حروب الجاهلية ! أنسيتم أيها الأوس مقتلة الخزرج فيكم ! ونسيتم أيها الخزرج مقتلة الأوس فيكم ! حتى أشعل الفتنة بينهم ، وذكرهم بأحقادهم وعداوتهم القديمة ، وحروبهم السابقة فيما بينهم وقتلهم لبعضهم البعض قبل إسلامهم ودخولهم في دين الله ، فنسوا الإسلام ونسوا لا إله إلا الله .

وكان الرسول ﷺ في بيته، فقام شاب من الخزرج وسلَّ سيفه وقال: ياللطيمة ياللطيمة ، وقام أوسي فتواعدوا إلى الحرة خارج المدينة ، وخرجت القبيلتان يقطر الموت من سيوفهم، لأن القبائل والأسر يوم تنسى لاإله إلا الله، ورسالة الإسلام ، وأوامر الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويوم تنسى الحب الذي

---

(١) « الأدب المفرد » رقم الحديث (٩٠٢).
(٢) سورة آل عمران ، آية (١٠٣).

أنزله الله في كتابه ، ويوم تنسى الجنة والنار والصراط والميزان، تصبح أمة كأنها قطيع من البهائم في الغابة ؟!! ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ .

وتهيأوا للقتال وسمع رسول الله ﷺ بخبرهم ، فخرج من بيته وهو يقول : « حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » ويقول أهل العلم خرج بلا حذاء ، خرج حافياً يجر إزاره ووقف بين الصفين والسيوف قد سلت والموت الأحمر يتقاطر من رؤوس السيوف وقال :

« يا معشر المسلمين ، الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم » فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً . ثم انصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس[(١)]، وأنزل الله سبحانه وتعالى أول الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ ﴾ أي : كيف تقتتلون ؟ كيف تتناحرون ؟ كيف تتباغضون ؟ كيف تتقاطعون ؟ كيف تسري فيكم الفتنة ؟ ﴿ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ أليس فيكم القرآن ؟ أليست فيكم الرسالة الخالدة ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[(٢)].

كيف تعتصم بالله : أن تتوجه للكتاب والسنة ، أن تخلص قلبك لله ، أن تطهر قلبك وعينيك وسمعك ويديك ورجليك لتكون عبداً لله .

* * * * *

---

(١) سيرة ابن هشام .

(٢) الآيتين من سورة آل عمران ، (١٠٠، ١٠١).

الفصل الثاني
ماذا قال سيد البشر عن العنصرية البغيضة

احتقار الإسلام لكل من نادى بالعنصرية والقبلية

لقد اهتم الإسلام بمحاربة العنصرية بكافة أشكالها وألوانها ، بل أمر باحتقار وإهانة كل من نادى أو تمسك بها ، قال عليه الصلاة والسلام : « من تَعَزَّى بعزاء الجاهلية فأَعِضُّوه بِهَنِ أبيه ولاتكْنوا »[1].

ومعنى الحديث : أنه من افتخر بأبيه أو قومه أو عائلته ، وكل من استعان بجماعته وأقربائه وقبيلته وشعبه وسلالته ليعينوه على باطل ، أو الاعتداء على الغير ، أو نهب مال الغير ، أو إحداث ظلم مهما كان صغيراً ، ضدَّ أي فرد مسلم فقولوا له صراحة وبدون تكنية أُعْضُضْ أير أبيك ، أي : مادمت تفتخر بأبيك ، أو بحسبك ، أو بقبيلتك ، لأن أباك كان وكان ، وهو بشر كبقية البشر ، لايتميز عن البشر بشيء فاعضض أير أبيك .

وذلك ليكون علاجاً ودواء لذلك الشخص الذي يصر على أنه الأفضل في جنسه ، أو قبيلته ، لعل الله يهديه ويعود إلى رشده ويتوقف عن هذا العبث الذي يفرق بين المسلمين .

وعن أبي بن كعب أنه سمع رجلاً يقول : ياآل فلان ، فقال له :

---

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » ١ : ٣٢٤، وأحمد في « المسند » ٥ : ١٣٦ ، والنسائي في السير من السنن له ٣٦:١-٢ ، وابن مخلد في الفوائد ٣ : ١ ، والهيثم بن كليب في مسنده ١٨٧ : ١ ، والطبراني في المعجم الكبير ٢٧ : ٢ وآخرون من عدة طرق مختلفة ، جاء ذلك في كتاب الأحاديث الصحيحة للألباني رقم الحديث ٢٦٩ .

اعضُض بِهَنِ أبيك ، ولم يُكَنِّ . فقال له : ياأبا المنذر ماكنت فحاشاً ؟ ! فقال رضي الله عنه : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (وذكر الحديث) .

وقد ورد أن عجر بن مدراع التميمي قال لقومه من بني تميم : ياآل تميم! فقال له كعب : أَعضَّك الله بهنِ أبيك .

وقد عمل بهذا الحديث الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : من اعتز بالقبائل فأَعضّوه أو فأَمِصّوه[1] .

اعتقادات محرمة لدى بعض المسلمين نتيجة الجهل بحكم الإسلام

وليس هدفنا من ذكر هذا الحديث إهانة أحد ، أو احتقار أحد ، بل الهدف هو إيضاح حكم الإسلام في هذا الانحراف البغيض ، لأننا واثقون بأن أكثر العنصريين يجهلون ذلك ، بل إن كثيراً من المسلمين وحتى بعض من ينتسب إلى العلم في بعض البلاد الإسلامية يعتقد جهلاً منه أن الإسلام لايحتقر العنصرية ولا يحاربها ولايحرمها ! وذلك لأنهم اعتادوا على مستوى معين بين البشر ، وكان لعاداتهم وتقاليدهم الجاهلية المنافية للإسلام الأثر الكبير في التمسك بهذه العنصرية البغيضة .

مجموعة من الأحاديث النبوية في ذم العنصرية

قال رسول الله ﷺ في إحدى خطبه :« يا معشر قريش : إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء ، مؤمن تقي أو فاجر شقي ، أنتم بنو آدم وآدم من تراب ».

وفي رواية للترمذي : « إن الله قد أذهب عنكم عبية - أي : كبر - الجاهلية وفخرها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي ، الناس بنو آدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ليدعن رجال

---

(١) المصدر السابق .

فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن »[١].

وقال ﷺ : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية »[٢].

وقال ﷺ : « دعوها فإنها منتنة »[٣].

وقال أيضاً : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه »[٤].

وقال عليه الصلاة والسلام لأبي ذر : « انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى »[٥].

وقال : « سباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر » رواه البخاري ومسلم.

وقال ﷺ : « لا تباغضوا ولا تنافسوا وكونوا عباد الله إخوانا »[٦].

وقال أيضاً : « لا يحل لأحد أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا ، وخيرهما الذي يبدأ صاحبه بالسلام »[٧].

وعن عبد الله بن عمر أن فتى من الأنصار أقبل وسلم على رسول الله ﷺ ثم جلس فقال : يارسول الله صلى الله عليك : أي المؤمنين أفضل ؟

---

(١) رواه أبو داود ٥ :٣٤٠(٥١١٦) ، والترمذي ٩ :٤٣٠(٣٩٥٠) ، والجعل والجعلان نوع من الخنافس تأكل الغائط وتخزنه .

(٢) رواه أبو داود .

(٣) رواه البخاري .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

(٥) رواه أحمد ٥ :١٥٨ .

(٦) رواه البخاري .

(٧) رواه البخاري ومسلم .

قال : « أحسنهم أخلاقاً » قال : فأي المؤمنين أكيس ؟ قال : « أكثرهم ذكراً للموت وأحسنهم استعداداً له قبل أن ينزل به أولئك الإكياس »[١].

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « ثلاثة من لم يكن فيه غفر له ما سواه لمن شاء : من مات لا يشرك بالله شيئاً ، ولم يكن ساحراً يتبع السحرة ، ولم يحقد على أخيه »[٢].

وقال ﷺ : « من قتل تحت راية عمية يدعو عصبية أو ينصر عصبية فقتلته جاهلية »[٣].

وقال ﷺ :« لن تفنى أمتي حتى يظهر فيهم التمايز والتمايل والمعامع » قيل : يا رسول الله ما التمايز ؟ قال : « عصبية يحدثها الناس بعدي في الإسلام » قيل : فما التمايل ؟ قال : « تميل القبيلة على القبيلة فتستحل حرمتها » قيل : فما المعامع ؟ قال : « سير الأمصار بعضها إلى بعض حتى تختلف أعناقهم في الحرب »[٤].

وقال : « إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس »[٥].

وقال ﷺ : « لن تؤمنوا حتى تراحموا » قالوا : يا رسول الله كلنا رحيم قال : « ليس برحمة أحدكم صاحبه ، ولكنها رحمة الناس ، رحمة العامة»[٦].

---

(١) رواه المنذري في « الترغيب والترهيب » ٤ :٢٣٨.
(٢) « مجمع الزوائد » ٨ :٣٧.
(٣) رواه مسلم .
(٤) أخرجه الحاكم وصححه .
(٥) رواه أحمد ٥ :٣٤٠.
(٦) رواه الطبراني كما في « مجمع الزوائد » .

وقال أيضاً : « تكون فتنة يقتتلون عليها على دعوى الجاهلية قتلاها في النار »[١].

ولقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »[٢].

ومعنى يقاتل حمية : أي يقاتل أنفة وغيرة دفاعاً عن عشيرته وجماعته وقبيلته وعرقيته .

وقال ﷺ : « والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تسلموا ، ولا تسلموا حتى تحابوا ، أفشوا السلام تحابوا ، وإياكم والبغضة فإنها هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين »[٣].

وقال ﷺ : « المؤمن مراة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه »[٤].

وقال : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[٥].

وقال أيضاً فما يرويه عن الله تبارك وتعالى : « المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء »[٦].

وقال ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب

---

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » عن أبي هريرة .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه البخاري ومسلم .
(٤) رواه أبو داود .
(٥) رواه البخاري ومسلم .
(٦) رواه الترمذي وأحمد .

لنفسه »[١] .

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ دعا رسول الله ﷺ فعمَّ وخصَّ فقال : « يا معشر قريش أَنْقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار . يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار ، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً ، إلا أن لكم رحماً سأَبُلُّها ببلالها » .

وعن أبي عقبة – وكان مولى من أهل فارس – قال : شهدت مع رسول الله ﷺ أُحداً فضربت رجلا من المشركين فقلت : خذها مني وأنا الغلام الفارسي ، فالتفت إلي رسول الله وقال : « فهلا قلت : خذها مني وأنا الغلام الأنصاري »[٢] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « . . . وأنا آمركم بخمس أمرني الله بهن : الجماعة ، والسمع والطاعة ، والهجرة ، والجهاد في سبيل الله ، فمن فارق الجماعة قِيد شبر خلع الإسلام من رأسه إلاأن يرجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جُثَى جهنم ، قيل وإن صام وصلى ؟ قال : وإن صام وصلى ، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين ، المؤمنين ، عباد الله »[٣] .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن أنسابكم هذه ليست بسباب على أحد ، وإنما أنتم ولد آدم طفُّ الصاع لم تملؤوه ، ليس لأحد فضل على أحد إلا بالدِّين أو العمل الصالح ».رواه أحمدوالبيهقي كلاهما من رواية ابن لهيعة ، ولفظ البيهقي قال :« ليس

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه أبو داود ٥ :٣٤٣.

(٣) أخرجه الترمذي وصححه .

لأحد على أحد فضل إلابدين أو تقوى وكفى بالرجل أن يكون بذيئاً فاحشاً بخيلاً »[١].

وقال ﷺ : « انتسب رجلان على عهد موسى فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة ، فمن أنت لا أمَّ لك ؟ قال : أنا فلان بن فلان ابن الإسلام ، فأوحى الله إلى موسى أنْ قل لهذين المنتسبين : أما أنت أيها المنتسب إلى تسعة في النار فأنت عاشرهم ، وأما أنت أيها المنتسب إلى اثنين في الجنة فأنت ثالثهما في الجنة »[٢].

وقال ﷺ : « من أحب الله ورسوله من قلبه صادقاً غير كاذب ، ولقي المؤمنين فأحبهم ، وكان أمر الجاهلية عنده كمنزلة نار أُلقي فيها ، فقد طَعِمَ طَعْمَ الإيمان - أو قال : فقد بلغ ذِروة الإيمان »[٣].

وقال ﷺ : « من فارق المسلمين قِيد شبر فقد خلع رِبقة الإسلام من عنقه، ومن مات ليس عليه إمام فميتته ميتة جاهلية ، ومن مات تحت راية عِمِّيَّة يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبية فقِتْلته جاهلية »[٤].

وعن عمر أنه استأذن عليه رجل فقال : استأذنوا لابن الأخيار فقال عمر : ائذنوا له ، فلما دخل قال : من أنت ؟ قال : أنا فلان بن فلان ابن فلان ، فعدَّ رجالاً من أشراف الجاهلية ، فقال عمر : أنت يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ؟! قال : لا ، قال : ذاك ابن الأخيار فأنت ابن الأشرار، إنما تعد على رجال أهل النار[٥].

---

(١) « الترغيب والترهيب » ٣: ٦١٢.
(٢) رواه النسائي ، والبيهقي في « شعب الإيمان » ، والضياء عن أُبي.
(٣) رواه الطبراني في « الكبير » عن المقداد بن الأسود .
(٤) أخرجه الطبراني عن ابن عباس .
(٥) رواه ابن عساكر .

عن عمرو بن شعيب عن أبيه قال : وقع بين المغيرة بن شعبة وبين عمرو ابن العاص كلام فسبَّه المغيرة ، فقال عمرو : ياآلَهُصَيْص ؟ يسبني المغيرة ، فقال له عبد الله ابنه : إنا لله وإنا إليه راجعون ، دعوتَ بدعوى القبائل ! فأعتق عمرو بن العاص ثلاثين رقبة . وذلك تكفيراً عن هذه الكلمة التي ذكر فيها اسم جده المشرك هُصَيص[١] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « اسمعوا وأطيعوا و إن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة »[٢] .

ولقد سئل رسول الله ﷺ عن أكرم الناس فقال : « أكرمهم عند الله أتقاهم » قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : « فأكرم الناس : يوسف نبي الله ، ابن نبي الله ، ابن نبي الله ، ابن خليل الله » فقالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال: « فعن معادن العرب تسألوني» ؟ قالوا : نعم ، قال : « فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا » رواه البخاري .

وعن فُسَيلة قالت : سمعت أبي يقول : قلت يارسول الله أمن العصبية أن يعين الرجل قومه على ظلم ؟ قال : « نعم »[٣] .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »[٤] .

إنها فاطمة بنت محمد ! بنت رسول الله وسيدة نساء العالمين رضي الله عنها .

والإسلام يهتم بالنسب كثيراً ، ويأمر المسلم أن يحرص على نسبه

---

(١) كنز العمال ١٧٢٣ ج١ ص٤٠٣ .
(٢) رواه البخاري .
(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد ٣٩٨ص١٤٣ .
(٤) رواه النسائي بطرق مختلفة ج٨ ص٧٣-٧٥ .

وسلالاته أي ينتسب لأبيه وأمه وأجداده وعائلته وجماعته ، لا ليتفاخر أو يتفاضل على الآخرين بهم ، بل ليعرف نسبه فلا تختلط الأنساب فيتزوج الإنسان ماهو محرم عليه من أقربائه وجماعته ، وكذلك لحفظ الحقوق وعدم أكل أموال الناس بالباطل ، فلا تتشابه الأسماء وتختلط ، ولأسباب وفوائد كثيرة ليس منها التفاخر أو التفاضل كما يفهمه الكثيرون .

ماذا قال عمر رضي الله عنه وهو يحتضر

وعندما طلب بعض الصحابة من عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يستخلف خليفة قبل موته -وذلك بعد أن طُعن من قِبل أبي لؤلؤة المجوسي- قال : لو أدركني أحد رجلين فجعلت هذا الأمر إليه لوثقت به: سالم مولى أبي حذيفة وأبوعبيدة بن الجراح ، فإن سألني ربي عن أبي عبيدة قلت : سمعت نبيك يقول : « إنه أمين هذه الأمة » ، وإن سألني عن سالم قلت : سمعت نبيك يقول : « إن سالماً شديد الحب لله »[1].

وسالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه كان عبداً مملوكاً لأبي حذيفة .

وكان عمر رضي الله عنه قد أمر أن يصلي بالمسلمين صهيب مولى بني جدعان ، وفيهم كبار الصحابة رضي الله عنهم ، وذلك إلى أن يتم اختيار الخليفة ، حيث جعل اختيار الخليفة شورى بين ستة نفر من كبار الصحابة .

أمير المؤمنين عمر يأمر بضرب العنصريين بالسيف

ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في احدى رسائله الموجهة إلى أحد قواده سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه :

---

(١) سيرة عمر بن الخطاب .

(. . . وإذا كانت بين القبائل نائرة - فتنة هائجة - وتَدَاعَوْا يال فلان - أي نادوا بالعنصرية والعصبية والقبلية - فإنما تلك نجوى الشيطان فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا إلى أمر الله وإلى الإمام ، وقد بلغ أمير المؤمنين أن ضبة - اسم قبيلة - تداعوا : يال ضبة - أي تنادوا بالعصبية الجاهلية - وإني والله ما أعلم أن ضبة ساق الله بها خيراً قط ولامنع بها من سوء قط ، فإذا جاءك كتابي هذا فأَنْهِكْهم عقوبة حتى يَفْرَقوا - يخافوا - إن لم يفقهوا . . .).

وصية عمر لقائده سعد

ويقول رضي الله عنه في إحدى وصاياه لسعد رضي الله عنه عندما أَمَّره على حرب العراق :

(يا سعدُ سعدَ بن وهيب ، لا يغرنك من الله أنْ قيل : خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله ﷺ ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية - أي بالسلامة من الذنوب - ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت عليه النبي ﷺ منذ بُعث إلى أن فارَقَنا فالزمه ، فإنه الأمر ، هذه عظتي إياك إن تركتَها ورغبتَ عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين)[1].

أول دستور يضعه الرسول ﷺ للأمة الإسلامية

وفي الوثيقة التي كتبها رسول الله ﷺ بين المسلمين والمؤمنين من قريش ويثرب ومن تبعهم من كافة القبائل ، ووادع فيها اليهود وتركهم على

---

(١) فقرات من خطاب أمير المؤمنين إلى قائده سعد ، أخبار عمر للطنطاوي ص٢٢٧ .

دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم ، دروسٌ وعبر ، وسأقتصر على بعض الفقرات الخاصة بهذا البحث فقد جاء في أولها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دَسِيعةَ - أي عطية - ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولاينصر كافراً على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس ، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وأن سِلْم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ »(١) .

إذاً المسلمون أمة واحدة ، جماعة واحدة ، كتلة واحدة إذا فقد التناصر وفقدت المحبة فقد الإيمان ، كما قال سيد البشر محمد ﷺ : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » .

يمنعون الظلم عن بعضهم ويأخذون على أيدي كل من ابتغى الظلم أو العدوان،حتى لو كان من أبنائهم،فهل فعلنا ذلك ؟ فهل اقتدينا بهم ؟.

---

(١) الوثيقة بكامل بنودها موجودة في كتب السيرة .

الفصل الثالث
الأمة الإسلامية

مميزات الأمة الإسلامية

وهكذا يتبين أن الأمة الإسلامية ليست أمة عنصرية ، ولا أمة عرقية كادعاء اليهود بأنهم أفضل البشر ، وأن غيرهم هم الحيوانات أو العبيد لهم ، ولا عصبية جنس أو لون ، أو تفرقة بين الشعوب مهما كان موقعه لأن الإسلام فرض على جميع المسلمين أن يحبوا بعضهم البعض ، ويعاونوا بعضهم البعض ، وينصروا بعضهم البعض ، ولا يتعصبوا لأرض أو لشعب أو لجنس أو للون معين ، كعصبية القومية أو الوطنية ، لأن هذه الأمة أفضل الأمم ، كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[١] .

ومعنى الآية والله أعلم : أنكم أيها المؤمنون أنتم خير أمة ، لأنكم تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، أي : تطبقون شريعته وتتبعون أوامره ونواهيه في جميع شئون الحياة الدنيا .

إن هذه الأمة أفضل من غيرها بأعمالها ، ومبادئها ، وإيمانها ، بتراحمها ، بعدالتها ، بمنعها الظلم ، ولذلك فهي ليست حكراً على شعب معين ، ولا عنصر معين ، ولا دم معين ، إنما ملك لكل مسلم آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وعمل بمقتضى الإيمان أياً كان جنسه أو لغته أو أرضه أو منشؤه ، كما كانت ملكاً لبلال الحبشي ،

---

(١) سورة آل عمران ، آية (١١٠).

وصهيب الرومي ، وسلمان الفارسي ، وعلى المستوى نفسه الذي كانت ملكاً للمؤمنين من قريش .

وإنما يتفاضل الناس بالتقوى ، قال تعالى : ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(١) .

أما الطرف الآخر من الملحدين والمنحرفين والكافرين والعلمانيين فهم أعداء لنا - أعداء لله ولرسوله حتى لو كان بعضهم من أبنائنا أو إخواننا أو عشيرتنا ، كما قال سبحانه : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(٢) .

ولذلك تميز المسلمون واستعلوا بدينهم ، وليس بجنسهم أو لونهم وافتخروا بالانتماء لهذا الدين الذي هو سبب تلك العزة والرفعة والسيادة ، ولن يكون للمسلمين العزة والكرامة والرفعة إلا بالرجوع إلى هذه العقيدة والحب والولاء لدين الله والمؤمنين به ، والبراءة من كل كافر ومشرك ومنافق حتى لو كان أقرب قريب .

سعد بن أبي وقاص يضحي بحياة أمه من أجل العقيدة

وهذا الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عندما أسلم في أوائل الدعوة في مكة ، تطلب منه والدته حَمَنَة بنت أبي سفيان أن يكفر بمحمد ، ويعود لعبادة الأوثان وتقول له : والله لا آكل ولا أشرب حتى

---

(١) سورة الممتحنة ، آية (٣).
(٢) سورة المجادلة ، آية (٢٢).

ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت ، فتعيرَّ بذلك أبدَ الدهر ، ويقال لك : ياقاتل أمه ! ومكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل ، ثم مكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب ، وفي رواية أخرى كما أخبر هو بنفسه ، قال : حلفت أم سعد أن لاتكلمه أبداً حتى يكفر بدينه ولاتأكل ولاتشرب ، وقالت : زعمت أن الله وصاك بوالديك وأنا أمك وأنا آمرك بهذا ، ومكثت ثلاثة أيام حتى غشي عليها من الجهد ، فقام ابن لها يقال له عمارة ، فسقاها ، فجعلت تدعو على سعد ، فأنزل الله عزوجل في القرآن هذه الآية : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ﴾[١] قال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها – أي فتحوا فمها – بعصا ثم أوجروها – أي : صبوا فيه الطعام –[٢].

وجاء سعد إليها ، وكان باراً بأمه ، وقال لها : يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني فكُلِي ، وإن شئت فلا تأكلي ، فلما أيست منه أكلت وشربت .

المهاجرون والأنصار يتآخون ويتوارثون

وعندما هاجر المسلمون الأوائل على عهد رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة بأمر رسول الله ﷺ ، آخى رسول الله ﷺ بينهم وبين الأنصار سكان المدينة في دار أنس بن مالك ، وكانوا تسعين رجلاً ، نصفهم من المهاجرين ، ونصفهم من الأنصار ، آخى بينهم على المواساة ، يتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام ، حتى أنزل الله : ﴿ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾[٣]. وردَّ التوارث إلى الرحم دون عقد

(١) سورة العنكبوت ، آية (٨).
(٢) « صحيح مسلم بشرح النووي » ١٥ : ١٨٥–١٨٧ .
(٣) سورة الأحزاب ، آية (٦).

الأخوة[١] .

نموذج عجيب للأخوة بين عبد الرحمن بن عوف القرشي وسعد ابن الربيع الأنصاري

روى البخاري : أن المهاجرين لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وهو من قريش ، وسعد بن الربيع وهو من الأنصار أهل المدينة ، فقال سعد لعبد الرحمن : إنني أكثر الأنصار مالاً فأقسم مالي نصفين بيني وبينك ، ولي امرأتان فانظر إلى أعجبهما إليك فسمِّها لي أطلقْها فإذا انقضت عدتها فتزوجها . فقال عبدالرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك ، أين سوقُكم ؟ فدلّوه على سوق بني قينقاع ، فاشترى وباع وعاد معه شيء من طعام ثم تابع الغدوَّ حتى أصبح من الأثرياء .

أبو سـفيان بن الحارث ابن عم رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة

وأبو سفيان بن الحارث غير أبي سفيان بن حرب . يقول أهل السير : كان أبو سفيان بن الحارث ابن عم رسول الله ﷺ وأخاه من الرضاعة أرضعته حليمة السعدية ، وكان يألف رسول الله ﷺ قبل البعثة ، فلما بعث عاداه أبو سفيان عداوة لم يُعادَ بمثلها أحد قط ، فمكث عشرين سنة عدواً لرسول الله ﷺ ، ويهجو المسلمين بشعره ويهجونه ، لا يتخلف عن موضع تسير فيه قريش لقتال رسول الله ﷺ ، حتى نصر الله رسوله وتهيأ لفتح مكة .

قال أبو سفيان بن الحارث : فقلت : من أصحب ومع من أكون ، قد ضرب الإسلام بِجِرانه ، فجئت زوجتي وولدي فقلت : تهيؤا للخروج من مكة فقد أظل قدوم محمد ، قالوا : قد آن لك أن تبصر أن العرب والعجم قد تبعوا محمداً ، وأنت مُوضِع - تزيد وتبالغ - في عداوته ، وكنتَ أولى

---

(١) « زاد المعاد ».

الناس بنصرته ! فأصاب قولهم موضعاً في نفسي .

فخرجت متجهاً نحوه على قدمي نحواً من ميل ، وكان قد نذر - أهدر - دمي ، فتنحيت خوفاً من أصحابه ، فلما طلع موكبه تصديت له تلقاء وجهه ، فلما ملأ عينه مني أعرض عني بوجهه إلى الناحية الأخرى ، فتحولت إلى ناحية وجهه ، فأعرض عني مراراً فأخذني ماقرب وما بعد وقلت : أنا مقتول قبل أن أصلَ إليه ، وأتذكرُ بره ورحِمه ، فيمسك ذلك عني الخوف ، وقد كنت أظن أن رسول الله ﷺ وأصحابه سيفرحون بإسلامي فرحاً شديداً لقرابتي برسول الله ﷺ .

فلما رأى المسلمون إعراضه عني أعرضوا عني جميعاً ، فلقيني أبو بكر معرضاً عني ، ونظرت إلى عمر فقال : ياعدو الله ، أنت الذي كنت تؤذي رسول الله وتؤذي أصحابه ! قد بلغت مشارق الأرض ومغاربها في عداوته ! ورفع صوته واستطال علي .

فدخلت على عمي العباس فقلت : ياعم ، قد كنت أرجو أن يفرح رسول الله بإسلامي لقرابتي وشرفي ، وقد كان منه مارأيتَ ، فكلمه فيَّ ليرضى عني ، قال : لا والله لا أكلمه أبداً بعد الذي رأيت إلا أن أرى وجهه ، إني أُجلُّ رسول الله ﷺ وأهابه ، فقلت : ياعم إلى من تكلني ، قال : هو ذاك .

فلقيت علياً فكلمته ، فقال لي مثل ذلك . فخرجت فجلست على باب منزل رسول الله ﷺ حتى راح إلى الجحفة وهو لا يكلمني ، ولا أحد من المسلمين ، وجعلت لا ينزل منزلاً إلا أنا على بابه ومعي ابني جعفر قائم ، فلا يراني إلا أعرض عني ، فخرجت على هذه الحال حتى شهدت معه فتح مكة وأنا في خيله التي تلازمه حتى نزل الأبطح ، فدنوت من باب قبته ، فنظر إليَّ نظراً هو ألين من ذلك النظر الأول ، ورجوت أن يبتسم .

ودخل عليه نساء عبدالمطلب ، ودخلت معهن زوجتي فرقّقته عليَّ ، وخرج إلى المسجد وأنا بين يديه لا أفارقه على حال ، حتى خرج إلى هوازن في حنين فخرجت معه ، وقد جمعت هوازن جمعاً لم تجمع العرب مثله قط ، فلما لقيتهم قلت : اليوم يرى أثري إن شاء الله ! فلما لقيناهم حملوا الحملة التي ذكر الله : ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾[١] .

وثبت رسول الله ﷺ على بغلته الشهباء وجرَّد سيفه ، فاقتحمت عن فرسي وبيدي السيف صلتاً قد كسرت جفنه ، والله يعلم أني أريد الموت دونه ، وهو ينظر إلي لا يعرفني حيث لا يبدو مني إلا عيناي ، وأخذ العباس بلجام البغلة وأخذت بالجانب الآخر ، فقال : « من هذا » فقال العباس : أخوك وابن عمك أبو سفيان بن الحارث ، فارضَ عنه يارسول الله ! قال : « قد فعلت فاغفر اللهم كل عداوة عادانيها » ثم التفت إلي فقال : « أخي لعَمْري » .

ثم أمر العباس فقال : « نادِ يا أصحاب الشجرة -أي : شجرة الرضوان- يا للمهاجرين ، يا للأنصار » فأجابوا : لبيك داعي الله ، وكروا كرة رجل واحد ، قد حطموا الجفون ، وشرعوا الرماح ، وخفضوا عوالي الأسنة ، وأرقلوا - أسرعوا - إرقال الفحول ، يؤمُّون الصوت ، صائحين : يالبيك ، يالبيك ، حتى أحدقوا برسول الله ﷺ ، وتقدم رسول الله ﷺ في نحور القوم لا يألوا ما تقدم ، فما قامت لهم قائمة ، وتفرقوا في كل وجه .

لقد بقي عشرين سنة في عداوة الإسلام ، وعندما أراد الإسلام ، وضعه رسول الله ﷺ في امتحان واختبار دقيق حتى أصبح من المؤمنين حقاً وخاصة عندما قال : والله يعلم أني أريد الموت دونه ، فلما اطمأن إلى إسلامه قال

---

(١) سورة التوبة ، آية (٢٥).

له : « أخي لعمري » . أما قبلُ فلم يلتفت إلى قرابة بينهما ولا إلى نسب .

القاعدة الإسلامية التي وضعها عمر بن الخطاب رضي الله عنه لتوزيع الثروة

عن مالك بن أوس أن عمر بن الخطاب رضوان الله عليه كان يحلف على أيمان ثلاث ، يقول : والله ماأحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق له من أحد ، والله مامن المسلمين من أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبداً مملوكاً - العبد المملوك هو الذي يباع ويشترى فإذا أُعتق أصبح حراً كالآخرين - ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى ، وقسْمنا من رسول الله ﷺ ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام ، والرجل وقدمه في الإسلام ، والرجل وغَناؤه في الإسلام ، والرجل وحاجته ، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعيَ بجبل صنعاء حظُّه من هذا المال وهو يرعى مكانه .

فلم يجعل عمر بن الخطاب الرجل العظيم الملهم أولويةً لغير الإسلام .

المساواة في الدعوة إلى الإسلام - قصة ابن أم مكتوم

يقول سبحانه في سورة عبس : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾[١] .

ذكر غير واحد من المفسرين : أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطب بعض عظماء قريش من المشركين ، ففي رواية عن أنس رضي الله عنه أنه أبي بن

---

(١) أول سورة عبس .

خلف ، وفي رواية أخرى لابن عباس : أنهم عتبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبدالمطلب .

وكان ﷺ يتصدى لهم كثيراً ، ويحرص عليهم أن يؤمنوا ، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له : عبدالله بن أم مكتوم رضي الله عنه ، فجعل عبد الله يستقرى النبي ﷺ آية من القرآن ، وقال يارسول الله : علمني مما علمك الله ، فأعرض عنه الرسول ﷺ وعبس في وجهه وتولى ، وكره كلامه وأقبل على الآخرين ، فلما قضى رسول الله ﷺ نجواه ، وأخذ ينقلب إلى أهله ، أمسك الله بعض بصره وخفق برأسه ، ثم أنزل الله سبحانه وتعالى الآيات المشار إليها من سورة عبس .

على أن رسول الله ﷺ ودّ لو أنه كف ساعته تلك - فقط - ليتمكن من مخاطبة أولئك الرجال ، طمعاً ورغبة في هدايتهم للإسلام ، ومن ها هنا أمر الله تعالى رسوله ﷺ بعد ذلك أن لا يخص بالإنذار أحداً ، بل يساوي فيه بين الجميع ، لأن الله سبحانه وتعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه ويرحب به ، واستخلفه على المدينة مرتين .

وقوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ أي أن هذه السورة أو الوصية في المساواة بين الناس في إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم إنما هي تذكرة ، لا عتب ولا نقد ولا .. ، كما يعبرِّ البعض ، إنما هي للنقل من الفاضل إلى الأفضل ، ومن الكمال إلى الأكمل .

إذاً لامجال للامتيازات في دعوى الحق بسبب الحسب والنسب أو المال والجاه ، فهي إنما جاءت لتأصيل النظرة إلى الإنسان ، وبيان وحدة الأصل وماتقتضيه من المساواة والتكافؤ ، فابن أم مكتوم يرجح في ميزان الحق على المئات من أمثال أبي بن خلف .

ملك غسان يرفض المساواة فيرتد عن الإسلام ثم يندم

يروى عن جبلة بن الأيهم ملك غسان أنه كان قد عادى الإسلام وانضم إلى الروم مع قومه ، ولكنه عندما شاهد انتصار المسلمين في وقعة اليرموك في العام الثالث عشر الهجري أعلن إسلامه ، وحضر إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وبينما هو يطوف حول الكعبة وخلفه رجل أعرابي من بني فزارة ، وبدون قصد جاء طرف الإزار تحت قدم الأعرابي مما أدى إلى سقوط إزاره ، فالتفت جبلة إلى الأعرابي وضربه على أنفه فهشمه.

واشتكى الأعرابي إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأحضر عمر ملك غسان ، وحكم عليه بالقصاص ، وهو أن يقوم الأعرابي بضربه ضربة مماثلة ، أو يتنازل الأعرابي عن حقه ، وقال عمر لملك غسان : دونك الرجل فأَرْضِه وإلا فإن له حق القصاص منك ، فردَّ جبلة : كيف يقتص مني وأنا ملك وهو سُوقة ؟ ! . فأفهمه عمر أن الإسلام قد سوّى بينهما .

عندها أبدى جبلة رغبته في الارتداد عن الإسلام ، فأفهمه عمر : أنه إذا ارتد - أي : رجع عن الإسلام - سيقتل حسبما تقتضيه الشريعة الإسلامية ، وطلب جبلة من عمر أن يمهله للصباح ليفكر في إرضائه ، ولكنه هرب هو وجماعته وارتد عن الإسلام ولحق بالروم . ثم ندم بعد ذلك وأخذ يبكي على سوء تصرفه وارتداده رغم إكرام الروم له . والهدف من القصة هو قول عمر رضي الله عنه لملك غسان : لقد سوّى الإسلام بينكما ، سوّى بين الملك والأعرابي !.

العهد الأول من الصحابة ينتمون لقبائل مختلفة وأجناس متنوعة

لقد انتشر الإسلام في المرحلة المكية في سائر فروع قريش بصورة متوازنة دون أن يكون لإحدى عشائرها ثقل كبير في الدعوة الجديدة ، وهذه الظاهرة مخالفة لطبيعة الحياة القبلية آنذاك ، ولكن هذا الانفتاح المتوازن على الجميع

أعان في انتشار الإسلام في العشائر القرشية العديدة دون تحفظات متصلة بالعصبية ، فأبو بكر الصديق من تيم ، وعثمان بن عفان من بني أمية ، والزبير بن العوام من بني أسد ، ومصعب بن عمير من بني عبدالدار ، وعلي بن أبي طالب من بني هاشم ، وعمر بن الخطاب من بني عدي ، وعبدالرحمن بن عوف من بني زهرة ، وعثمان بن مظعون من بني جمح .

بل إن عدداً من المسلمين في هذه المرحلة لم يكونوا من قريش ، فعبدالله بن مسعود من هذيل ، وعتبة بن غزوان من مازن ، وعبدالله بن قيس من الأشعريين ، وعمار بن ياسر من عنس من مذحج ، وزيد بن حارثة من كلب ، والطفيل بن عمرو من دوس ، وأبو ذر من غفار ، وعمرو بن عَبَسَة من سليم ، وعامر بن ربيعة من عنز بن وائل ، وصهيب النمري من بني النمر بن قاسط .

لقد كان واضحاً منذ الوهلة الأولى أن الإسلام ليس خاصاً بمكة وقريش[١] .

ومنذ الوهلة الأولى أيضاً ، اعتنق الإسلام بلال بن رباح ، وأصله من الحبشة بأفريقيا ، وكان عبداً مملوكاً اشتراه أبو بكر وأعتقه .

وفي الفترة الأولى أيضاً كان من ضمن معتنقي الإسلام زيد بن حارثة، وعامر بن فهيرة ، وأبو فكيهة ، وشقران ، وقال عمار بن ياسر : رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد ، وامرأتان ، وأبوبكر .

أخوة العقيدة أفضل وأعظم من أخوة الدم والنسب

قال ابن إسحاق : وحدثني ابن وهب أخو بني عبدالدار : أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى من غزوة بدر ، فرقهم بين أصحابه وقال :

---

(١) « السيرة النبوية الصحيحة » للدكتور أكرم ضياء العمري ص١٣٣ .

استوصوا بهم خيراً ، وكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسرى ، قال أبو عزيز يروي قصته : مرّ بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني ، فقال له أخي مصعب : أشدد يديك به ، فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك .

قال ابن هشام في سيرته : وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث ، ولما قال أخوه مصعب لأبي اليسر وهو الذي أسره ما قال ، قال له أبو عزيز : يا أخي هذه وصاتك بي ؟ فقال له مصعب : إنه أخي دونك .

لقد أصبح الأنصاري أبو اليسر أخاً لمصعب القرشي الهاشمي ، لأنهما مسلمان ، وليس هذا فقط ، بل إن أخوتهما أفضل وألزم وأقوى من أبي عزيز المشرك الذي هو أخٌ لمصعب من أمه وأبيه .

وهكذا أصبحت أخوة الإسلام أفضل وأعظم من أخوة الدم والقربى والنسب ، وقد رأينا كيف أن أبا عبيدة رضي الله عنه قاتل أباه المشرك عندما التقى به في معركة بدر الكبرى ، وقتله تقرباً إلى الله سبحانه تعالى ورأى جثة أبيه بعد ذلك وهي تسحب لترمى في القليب (البئر) ببدر دون أن ينكر قلبه ذلك[1] .

الصحابي محيِّصة بن مسعود يبلغ أخاه باستعداده لقتله إذا أمره الرسول ﷺ بذلك

ولما ظفر رسول الله ﷺ ببني قريظة من اليهود ، وأمر بقتلهم نتيجة غدرهم ونقضهم للعهد الذي تمّ بينهم وبين المسلمين قام محيِّصة بن مسعود ابن كعب من الأوس وهجم على ابن سنينة اليهودي - رجل من تجار يهود -

---

(١) « سيرة ابن هشام » ٢ : ٧٥.

وقتله ، وكان أخو محيصة إذ ذاك مشركاً لم يسلم وكان أسن من محيصة ، فلما قتله جعل أخوه المشرك يؤنبه ، ويقول له : أقتلته؟ أما والله لَرُبَّ شحم في بطنك من ماله ، فردّ عليه أخوه المؤمن - والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربت عنقك - فدهش أخوه المشرك وقال : آلله لو أمرك بقتلي لقتلتني ؟ قال : نعم ، والله لو أمرني بضرب عنقك لضربتها ، قال : والله إن ديناً بلغ بك هذا لعجب ، وأسلم بعد ذلك ، وقال محيصة في ذلك :

يلوم ابن أمي لو أُمرتُ بقتله   لطبَّقت ذفراه بأبيضَ قاضبِ

حسامٍ كلون الملح أُخلِصُ صقله   متى ما أصوِّبه فليس بكاذب

وما سرني أني قتلتك طائعاً   وإن لنا مابين بُصْرى ومأرب[1]

أم المؤمنين تمنع أباها المشرك من الجلوس على فراش رسول الله

وعندما قدم أبو سفيان بن حرب إلى المدينة المنورة وهو مشرك قبل فتح مكة ، ودخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين رضي الله عنها ، وذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه - أبعدته عنه - فقال : يابنية ! ما أدري أرغبتِ بي عن هذا الفراش أم رغبتِ به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ !! قال : والله لقد أصابكِ يا بنية بعدي شر .

وليس ذلك فقط بل لم تفشِ رضي الله عنها أو تخبر أباها المشرك بما عزم عليه رسول الله ﷺ من تجهيز الجيش لفتح مكة ، وإبادة من يقف في مواجهة ذلك من المشركين ، وعلى رأسهم أبوها المشرك آنذاك .

نجاح الصحابة في امتحان العقيدة

وهكذا نجح الصحابة رضوان الله عليهم في امتحان العقيدة ، ففارقوا

---

(١) المصدر السابق ٢ : ٤٤١ .

الأهل والأموال والمساكن والأوطان التي يحبونها ، وهاجروا إلى الله سبحانه وتعالى، فأصبحوا أعظم أمة وأفضل أمة، لابجنسهم، ولابأصلهم بل بإيمانهم وعقيدتهم ، فأصبحوا خير أمة وأفضل أمة بنص القرآن الكريم ، وهذه الأمة وهذا المجتمع ، مفتاح الأبواب لجميع بني البشر مهما كان أصلهم وشعوبهم وألوانهم بشرط واحد، أن يؤمنوا بهذا الدين وأن لا إله إلا الله، محمد رسول الله ، وأن يؤمنوا بجميع الأنبياء والرسل وبالكتب التي أنزلها الله معهم ، وليست الكتب الموجودة الآن بين النصارى واليهود لأنها محرفة غُيرت وبدلت من قِبَلِهم ، وكذلك الإيمان بالملائكة وبالقدر خيره وشره .

إن على جميع المسلمين أن يتمسكوا بمبادى الإسلام العظيمة، ولا يمكن أن يستكملوا الإيمان إلا إذا تركوا عادات الجاهلية من تكبر وتفاخر وعنصرية وعصبية ، وهكذا يصبحون أعضاء في المجتمع الإسلامي المملوء رحمة ومحبة ومواساة بين أفراده ، كبيرهم وصغيرهم ، غنيهم وفقيرهم ، حاكمهم ومحكومهم .

وعلاقة المؤمنين قائمة على الاحترام المتبادل ، فلا يستعلي غني على فقير ، ولا حاكم على محكوم ، ولا قوي على ضعيف .

العداء في الإسلام يعدل الكفر

عن قيس قال : قال عبد الله بن مسعود : إذا قال الرجل لصاحبه : أنت عدوّي فقد خرج أحدهما من الإسلام أو بريء من صاحبه ، وأضاف قيس: وأخبرني - بعدُ - أبو جحيفة أن عبد الله قال : إلا من تاب[1].

قتال المسلم كفر

---

(١) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » ص١٥١ رقم الحديث (٤٢٣).

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر ». رواه البخاري ومسلم .

تحريم تكفير المسلمين

وعن أبي ذرّ رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك ». رواه البخاري ومسلم أيضاً .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من قال لأخيه : يا كافر فقد باء بها أحدهما » رواه البخاري.

وجاء في الحديث - الذي رواه أبو قلابة رضي الله عنه عن ثابت بن الضحاك - : « ولعن المؤمن كقتله ، ومن رمى مؤمناً بكفر فهو قتله ، ومن ذبح نفسه بشيءٍ عذب به يوم القيامة » رواه البخاري ومسلم .

تحريم الاستنجاد بالقبيلة والعشيرة والأقرباء لمساندة الظلم والبغي

ولايجوز إطلاقاً أن ينادوا بالعنصرية والعصبية ويجتمع الأقرباء والعشيرة ، وكل واحد يخطب ويتكلم ، ويزيد الأمر حقداً وعداء ، وبالتالي تقع سلسلة من جرائم القتل فتباد أُسَر بأكملها ، ويعيش أفراد المجتمع في خوف ورعب من أن يقتلوا في كل لحظة ، ولايستطيع أحد أن يسافر إلى القرية أو القرى المجاورة ، والنصارى من حولكم ينظرون إليكم باحتقار وازدراء ، ليس لكم فقط ، بل لكل مسلم ، لاعتقادهم أن هذه الأعمال والتصرفات من صفات الإسلام والمسلمين ، والإسلام منها بريء .

تشويه الإسلام في الصحف غير الإسلامية

إن الصحف في البلاد غير الإسلامية تكتب وتنشر كل يوم عن الجرائم التي تقع في مناطق المسلمين ، وتنسب كل جريمة وكل نقيصة للإسلام والمسلمين .

فإذا خان المسلم الأمانة اعتقد أعداء الإسلام أن هذه من صفات الإسلام والمسلمين ! وإذا غدر ، أو قتل ، أو سرق ، أو كذب ، أو خدع ، أو غشّ ، اعتقدوا أن ذلك من صفات المسلمين ! وأن دينهم لا يحرم ذلك ! .

ولهذا فإن الشريعة الإسلامية تفرّق بين الإثم الذي يرتكبه صاحبه سرّاً وبين الإثم الذي يرتكبه صاحبه علناً ، فإذا ارتكبه سراً أو بينه وبين نفسه فإنه آثم بلا شكّ ، وسيعاقبه الله سبحانه على عمله ، وإذا ارتكبه علناً ازداد عمله خطورة ، وأساء إلى المجتمع بكامله ، وأصبحت عقوبته أكبر وأعظم ، وعلى أفراد المجتمع الأخذ على يده ومنعه بالقوة من هذا العمل ، فإن لم يفعلوا ذلك فإن جميع من شاهد أو علم ولم ينكر أثم على ذلك.

روى البخاري عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ أنه قال : « مثل القائم على حدود الله ، والواقع فيها : كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » .

كيف يساهم المسلم في العودة للإسلام وإنقاذ الأمة الإسلامية والمجتمع الإسلامي

إنه لابدّ من العودة إلى الله ، ولابد من العودة إلى الصفات الإسلامية من حب وتعاون ، وصلة وزيارة ، ومساعدة وبر وصدقة ، فيضع الغني أمواله في خدمة المجتمع الإسلامي ، ببناء المدارس الإسلامية ، والمستشفيات ، والمعاهد ، ومدارس الأيتام للذكور والإناث ، ونشر العلم ، وترجمة الكتب الإسلامية للغات الخاصة بالمسلمين في بلادهم ، والدعوة إلى الله بكافة الوسائل ، ومواساة الفقراء والمساكين ، وكافة السبل التي تساعد على بناء

المجتمع الإسلامي في كافة المجالات ، مثلما كان يفعله المسلمون الأوائل ، والأمثلة على ذلك كثيرة.

حالة المسلمين الأوائل من فقر وعوز وتعاطف الأغنياء معهم

إن أغلب المسلمين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة كانوا فقراء ، لأن المشركين في مكة استولوا على جميع مايملكون ، وجميع المسلمين تركوا أموالهم وبيوتهم وأعمالهم وهاجروا لله ولرسوله ، حتى إن الله تعالى سماهم في كتابه الكريم فقراء ، فقال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ ﴾ ووضع الأنصار - وهم سكان المدينة -كافّة إمكانياتهم في خدمة المهاجرين ، وكثير من المهاجرين كان يقيم في الجزء الخلفي من المسجد ، وهو ما يعرف (بالصفَّة) حيث يبلغ عددهم أحياناً سبعين أو أكثر ، يزيدون أو ينقصون ، حسب عدد البعوث والقادمين أو المغادرين لأنحاء الجزيرة .

وورد أن سعد بن عبادة وهو من الأنصار كان يستضيف وحده ثمانين منهم ، فضلاً عن الآخرين الذين يتوزعهم الصحابة ، وكانوا منقطعين للعبادة والعلم والجهاد ، ولم يكن لديهم ملابس كافية تقيهم من البرد أو تستر أجسامهم ، وكان بعض الملابس لا يبلغ الركبتين أو نصف الساقين ، وكان الرسول ﷺ يهتم بهم ويزودهم بالتمر، وأحياناً يدعوهم ليشربوا اللبن أو ليتناولوا الطعام في بيته ، وكان يقول لأصحابه : « من كان لديه طعام اثنين فليذهب بثالث ، وإنْ أربع فخامس أو سادس».

كيف بدأ العنصريون بتدمير الأمة الإسلامية

إن من أعظم ما أتحف الإسلام به الإنسانية : الأخوة التي تقوم على أساس العقيدة والفضيلة والأخلاق ، كان التجمع في الماضي يقوم على أساس السلالة والنسل والوطن واللون والحرفة والقبيلة ، وهذا من أعظم الظلم ،

إنها وسائل وطرق للهدم والتخريب والدمار والشقاء والقتل وسفك الدماء ونشر العداء والحقد بين الناس ، تماماً كما هو موجود الآن بالإضافة إلى تقديس جنس على جنس والتفوق عليه بالقصص والأساطير والخرافات ! .

سلالة أفضل من سلالة ، ووطن خاص أفضل من وطن عام ، وأبناء قرية أفضل من أبناء بلدة ، وأبناء شعب أفضل من أبناء شعب ، وصاحب حرفة أفضل من حرفة أخرى ، ولون إذا خف في السواد كان أفضل من لون قاتم ، وأسود حالك أو أسود إذا أعرق في الحلكة كان أفضل وأدل من سواد يشبه السمرة ! وأبناء الجد الخامس أفضل من أبناء الجد الثامن ، وهذا كان جده سلطاناً ، وآخر كان جده حاكماً ، وثالث كان جده مسيطراً على البلاد ، ورابع كان جده أو أبوه زعيماً لايشق له غبار ، وهذا أمه صانعة أو مملوكة أو فلاحة أو جارية ، وآخرون كان أجدادهم عبيداً أو مملوكين ، إنها لمهزلة ! .

إنسانية عجيبة ، وعقول انحدرت إلى الحضيض في تفكيرها واعتقادها، لقد استطاع الشيطان أن ينتصر عليهم ، ويبول على رؤسهم وفي عقولهم ، فأصبحوا وسائل للهدم والتدمير ، وإبادة الإسلام والمسلمين ، لئلا تقوم له قائمة أبداً ، وليتمكن أعداء الإسلام من تدمير المسلمين بلداً بلداً وجماعة جماعة ، بدون أن تثور أو تغضب الجماعات أو البلدان الإسلامية الأخرى .

لقد جاء الإسلام إلى هذا المجتمع الزائف ، وضرب ضربته الحاسمة المعروفة في التاريخ ، فنقض هذا الأساس ، وأسَّس مجتمعاً جديداً ، أساسه الإيمان والعقيدة والصلاح والفضيلة ، وعلى أساس الكفاءة والكفاح والعمل ، ومدى تطبيق الإسلام وشريعة الإسلام ، ومدى إخلاصه في دينه وعقيدته ، وعلى أساس وحدة الإنسان ، لأن المسلم ملازم للدعوة إلى الله بين المسلمين وغير المسلمين ، وهو يتمنى الهداية لكافة بني

البشر من أي جنس أو لون كانوا ، وهو يفرح بهدايتهم وإنقاذهم من النار .

القومية الحمقاء

وهكذا ظل المجتمع الإنساني قائماً على أساس التقوى ، وعلى أساس المبدأ والعقيدة ، يتحكم فيه مقياس الكفاءة والكفاح ، حتى جاء عصر القوميات المشؤوم في أوربا ، وكانت مرحلة طبيعية في حياتها ومجتمعها ، فلما انهارت الكنيسة اللاتينية بأخطائها وجناياتها وسفاهتها ، وبتأثير الحركة الاجتماعية التي قام بها لوثر ، وبالنهضة العلمية والعقلية التي انبعثت في القرون المظلمة، أصبحت الأمم الأوربية قطعاناً من البشر لا تربط بينها جامعة دينية أو مركز روحي .

فقد فقدت النصرانية المتعثرة سلطانها على النفوس والرؤوس ، فلجأت أوربا بطبيعة الحال إلى قوميات مختلفة تربط بين أفرادها المشتتين الضائعين ، وكانت بضاعة المفلس ومأوى الطريد ، وألهبت بها الشعور السياسي والشعور بالواجب وقوة الدفاع عن البلاد والحمية التي تعتمد عليها وتلتجى إليها في الأزمات ، وانقسمت أوروبا إلى قوميات ومعسكرات ، وتحاربت فيما بينها نتيجة هذا الانحراف ، وخرجت من هذه الحروب منهوكة القوى، وبدأ عقلاؤها يفكرون على أساس أوسع من القوميات والوطنيات ، وبدؤوا يتحدثون عن الإنسانية والوحدة الأوربية ، رغم اختلاف لغاتهم وأديانهم .

ومع هذا قام بعض زعماء العرب بتقليد الأوربيين في القومية ، ونادوا بقومية عربية ، فأدى ذلك إلى خسران عظيم وبلاء كبير لوحدة المسلمين ، لأنها عودة إلى الجهالة والشقاء وكفر بنعمة الله سبحانه .

ولئن كانت الدعوة إلى القومية العربية يتجمع تحتها ٢٥٠ مليون إنسان - تقريباً - فيهم خليط من الديانات التي لا يمكن أن يتعاطف أهلها فيما بينهم

بحال ما ؟ فإن الدعوة إلى الإسلام يتجمع تحتها ١٢٠٠ مليون مسلم يتعاطفون باسم الإسلام .

والتاريخ شاهد صدق على تعاطف الناس باسم الدين والشريعة ، وعلى تمزقهم باسم القوميات .

ولهذا حاولت الدول الاستعمارية منذ الحرب العالمية الأولى بكل ما لديها من جهد وإمكانيات في تقوية الاتجاه للقومية العربية ، لأنهم يعرفون أن نجاحهم لا يكون إلا بإضعاف المسلمين وبقائهم أذلة لا تقوم لهم قائمة . وأرسلت بريطانيا عميلها لورانس إلى الدول العربية وأشعل الحماس القومي، وأثار العرب ضد الأتراك المسلمين ووزع الذهب على بعض العنصريين من البدو ، وذلك لإبادة الدولة العثمانية في ذلك الحين، وعقدوا الاتفاقات مع الشريف حسين في الحجاز لتقوية القومية العربية وإضعاف الوحدة الإسلامية ، ممثلة في الدولة العثمانية ، الدولة العثمانية التي رفعت راية الإسلام في أوربا خمسة قرون !! وكانوا رغم بعض الأخطاء رمز قوة الإسلام ، وأرهبوا أعداء الإسلام في العالم أجمع ، ولهم الفضل الأول في نشر الإسلام في ألبانيا ويوغسلافيا وقبرص وروسيا.

وقد خدع بعض زعماء العرب في ذلك الحين مع الدول الاستعمارية الذين نقضوا اتفاقاتهم ولم يوفوا بوعودهم ، بل وأنشأوا إسرائيل لتكون شوكة في العالم العربي ، للمساعدة في الحد من الوحدة الإسلامية وتفرق المسلمين .

وقد أدرك المسلمون العرب ولو بعد حين ، أن القوميات العربية سراب وضلال وانحراف ، وأنه لابد من العودة للإسلام وللأخوة الإسلامية في جميع أنحاء المعمورة .

إن القوميات بكافة أنواعها ، وكذلك العنصرية والعصبية بكافة أنواعها ، دمار للأمة الإسلامية ، ولاتؤدي إلا لإثارة الكراهية والحقد والنفور

والتفرقة بين المسلمين ، والقضاء عليهم من قبل أعدائهم ليكونوا أذلة ضعفاء .

ولو طبقت الوحدة الإسلامية ، والأخوة الإسلامية لانتهت وتلاشت كثير من الحروب والمذابح التي تقع بين الشعوب الإسلامية .

خذ مثلاً القومية الكردية ! ومطالبة الأكراد بوطن مستقل ! وتنظيم هجمات مسلحة ضد الأتراك مثلاً ، أو ضد الشعب العراقي ، فلوكانت حكومات هذه البلدان ذات اتجاه إسلامي لما تجرأ المسلمون الأكراد على المطالبة بقومية خاصة بهم ، لأن الإسلام يدعو للوحدة ، وللأخوة والمساواة ، ولكن ما دام البعثيون يصرون على قومية عربية ، والأتراك يصرون على قومية تركية ، لذا فمن حق الأكراد أن يطالبوا بقومية كردية أيضاً .

خذ مثلاً الداعي الكبير بديع الزمان سعيد النورسي ، وهو من الأكراد الأصليين ، ومع هذا فإن ملايين الأتراك يحبونه ويجلونه ويعتبرونه مثلهم الأعلى ، لأن هذا المجاهد الكبير والداعي الإسلامي المخلص قد أخلص عمله لله عز وجل ، وتحدى الطغاة في عصره أمثال أتاتورك وزملائه الضباط الملحدين الذين تربوا في أوروبا ، بل إنه هاجم القومية التركية هجوماً عنيفاً في كتابه القيم « المكتوبات » فقال :

إن التباغض والتنافر بين عناصر الإسلام وقبائله بسبب من الفكر القومي هلاك عظيم ، وخطب جسيم ، إذ أن تلك العناصر أحوج ما يكون بعضهم لبعض ، لكثرة ما وقع عليهم من ظلم وإجحاف ، ولشدة الفقر الذي نزل بهم ولسيطرة الأجانب عليهم ، كل ذلك يسحقهم سحقاً ، لذا فإن نظرة هؤلاء بعضهم لبعض نظرة العداء : مصيبة كبرى لا توصف ، بل إنه جنون

أشبه ما يكون بجنون من يهتم بلسع البعوض ولا يعبأ بالثعابين المماردة التي تحوم حوله !.

نعم إن أطماع أوروبا التي لا تفتر ولا تشبع هي كالثعابين الضخمة الفاتحة أفواهها للابتلاع ، لذا فإن عدم الاهتمام بهؤلاء الأوروبيين ، بل معاونتهم على إنماء الفكر العنصري السلبي وإنماء روح العداء إزاء المواطنين القاطنين في الولايات الشرقية أو إخواننا في الدين في الجنوب - يعني الحرمين الشريفين - : هلاك وأي هلاك ، وضرر وبيل ، إذ ليس بين أفراد الجنوب من يستحق أن يعادى حقاً ، بل ما أتى من الجنوب إلا نور القرآن وضياء الإسلام الذي شع نوره فينا وفي كل مكان .

فالعداء لأولئك الإخوان في الدين ، وبدوره العداء للإسلام : إنما يمس القرآن ، وهو عداء لجميع أولئك المواطنين ولحياتهم الدنيوية والأخروية .

لذا فإن ادعاء الغيرة القومية بغية خدمة المجتمع يهدم حجر الزاوية للجانبين معاً ، فهي حماقة كبرى وليست حمية وغيرة قطعاً .

وقال رحمه الله مخاطباً الأتراك :

أيها الأخ التركي :

احذر وانتبه أنت بالذات ، فإن قوميتك امتزجت بالإسلام امتزاجاً لا يمكن فصلها عن الإسلام ، ومتى ما حاولت عزلها عن الإسلام فقد هلكت إذاً ، وانتهى أمرك ، ألا ترى أن جميع مفاخرك في الماضي قد سجل في سجل الإسلام ، وأن تلك المفاخر لا يمكن أن تمحى من الوجود قطعاً ، فلا تمحها أنت من قلبك بالاستماع إلى الشبهات التي تثيرها شياطين الإنس . انتهى .

ويقول زعيم البوسنة المسلم الرئيس علي عزت بيجوفيتش - ثبّته الله - : إننا نريد بخطوات واثقة أن نقف على بداية طريق العودة إلى سيادة أنفسنا ومستقبلنا ، إننا يجب أن نستفيد مرة أخرى من عبقريتنا الإسلامية ، وبذلك

نستطيع سلوك الصراط المستقيم نحو الهدف المنشود ، وهو إقامة الإسلام على كل الأصعدة : لدى الأفراد ، وفي إطار العائلة والمجتمع ، ومن خلال العودة إلى العقيدة الإسلامية ، وإقامة مجتمع إسلامي موحد يمتد من المغرب إلى أندنوسيا ، لابد أن ينتظم مئات الملايين من المسلمين في وحدة جامعة متينة ، حتى يخرجوا من دائرتهم الموصوفة بالتخلف والقهر والاعتماد على الآخرين ، إن الإسلام يحتوي على كل المبادى التي تضمن وحدة المسلمين ، والإسلام ليس قومية ولكنه فوق القوميات لأنه يوحدها . انتهى .

هذه عبارات منتقاة من البيان الإسلامي الذي أصدره في البوسنة بهدف إحياء الفكرة الإسلامية لدى مسلمي البلقان وحوكم بسببه ، وحكم عليه في مارس ١٩٨٤م بالسجن لمدة أربعة عشر عاماً قضى منها في السجن ست سنوات ، هذا الرجل المؤمن الذي لا يعرفه كثير من المسلمين ، ولكن أعداء الإسلام جميعاً عرفوه جيداً من خلال فكره الإسلامي العالمي ، ونظرته الثاقبة، ورؤيته الشمولية للإسلام ، وهذا سر تواطئهم عليه وهيبتهم منه[١] .

وهكذا توحدت أوروبا وأمريكا وروسيا واتفقوا على إبادة المسلمين في البوسنة والهرسك ، ومنعت عنهم السلاح في الوقت الذي سمحت فيه للصرب والكروات بإبادتهم رجالاً ونساء وأطفالاً ، وهم يخططون الآن لإضعاف العالم الإسلامي بمختلف الوسائل والطرق ، أما نحن المسلمين فلا زلنا مشغولين بعنصريتنا وعصبيتنا وقومياتنا وأنانياتنا !! .

إن وحدة الشعوب الإسلامية ووحدة البلدان الإسلامية وتمسكها بالشريعة الإسلامية ، هو الطريق والهدف الصحيح الذي أمر الله به وخاصة في هذا

---

(١) مجلة المجتمع ، العدد ١٠٥٧ .

الوقت الذي اتفقت فيه دول الكفر أجمع لإبادة الإسلام وإزهاقه .

قال رسول الله ﷺ في إحدى خطبه بمكة : « يامعشر قريش : إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » .

وفي رواية للترمذي : « إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ - أي : كِبْرَ - الجاهلية وفخرها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي ، الناس بنو آدم، وآدم من تراب ، لافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » .

الهرمزان وأمير المؤمنين عمر

لقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخليفة الراشد يحكم وهو بالمدينة اثنتين وعشرين دولة من الدول الموجودة الآن في دولة واحدة ، وهي البلاد التي دخلت في الإسلام في ذلك الحين ، وكانت تتبع في السابق أعظم دولتين في ذلك الزمن فارس والروم ، وكان الخليفة عمر يلبس ثياباً مرقعة من التمزق فيها أربع عشرة رقعة !!.

حضر الهرمزان إلى المدينة وهو من أعظم قادة الفرس ، وكان يلبس الذهب والجواهر ، فلما وصل إلى المدينة سأل : أين قصر الخليفة ؟ قالوا : لا قصر له ! قال : أين حرسه ؟ قالوا : لا حرس له ! قال : أين مكانه ؟ قالوا : هذا بيته ! فإذا بيته من طين ! وطرق الباب ، فخرج ابنه الصغير وقال : إن أبي قد خرج .

وكان عمر ينام في الليل والنهار ساعتين ! تقول له زوجته : لماذا لاتنام بالليل ؟ قال : لو نمت بالليل لضاعت نفسي - يعني لعدم صلاته قيام الليل - ولو نمت بالنهار لضاعت رعيتي .

ثم بحثوا عن الخليفة فوجدوه نائماً تحت شجرة واضعاً حجراً تحت رأسه،

وبردته الممزقة وعصاه بجانبه !! قال الهرمزان وهو يهتزّ : أهذا عمر ؟! قالوا : هذا عمر ! قال : هذا الخليفة ؟! قالوا : هذا الخليفة ! قال : هذا أمير المؤمنين ؟! قالوا : هذا أمير المؤمنين ! قال الهرمزان - وعمر نائم - : حكمتَ فعدلتَ فأمنتَ فنمتَ !.

نعم أيها الإخوة المسلمون فتحوا الدنيا بالدين ! بالإسلام !.

الله سبحانه وتعالى مؤلف القلوب

يقول الله عزوجل للرسول عليه الصلاة والسلام : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[١] والمعنى : والله الذي لاإله إلا هو لو أنفقتَ الدنيا ذهباً وفضة ماألفت بين قلوبهم ولاآخيت بينهم ، ولكن الله هو الذي حبَّب إليهم الإيمان والأخوَّة والإلفة والمحبة ، ونحن نرى اليوم أن من يصطلح صلحاً على غير الدين ، وعلى غير لا إله إلا الله ، فإن الله يجعل صلحهم دماراً وخراباً ، ويجعل اجتماعهم فتنة ، ويجعل عزتهم ذلاً ، ويجعل غناهم فقراً ! نرى الأُسر والعائلات والأقارب يوم تتحزَّب على الشر والظلم والعدوان كيف يجعلهم الله عائلات وجماعات منكوبة !.

إن قبائل العرب على عهد رسول الله ﷺ كانت أكثر من ثلاثين قبيلة ، فلما آخى ﷺ بينهم أصبحوا أمة واحدة .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ أذلَّة : بمعنى ذلول مع إخوانه ، سهل الانقياد ، مطيع صبور ، يتحمل كل شيء من إخوانه بدون ضيق وملل ، أما مع الكفار فعزيز قوي ، لكن الجاهلية اليوم عكست هذه الصورة ، حيث أصبح الإنسان أسداً هصوراً على جيرانه

---

(١) سورة الأنفال ، الآية (٦٣).

وأرحامه وإخوانه في العقيدة والدين ، وذليلاً مخادعاً جباناً أمام الكفار والأعداء ! فنسأل الله الهداية .

لطف الرسول ﷺ مع الأعراب الجفاة

وقد كان ﷺ الرجل الأول المطبق لهذا الخُلُق العظيم .

روى البخاري في « صحيحه » : جاء رجل من الأعراب إلى رسول الله ﷺ وكان على رسول الله ﷺ بردة نجرانية غليظة الحاشية ، فجذبه الأعرابي من البردة حتى أثَّر في عنق المصطفى ﷺ ، فلما التفت إليه عليه الصلاة والسلام قال له الأعرابي : يامحمد أعطني من مال الله الذي عندك ، لا من مال أبيك، ولا من مال أمك ! فتبسم عليه الصلاة والسلام وأمر له بعطاء ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[١] .

* * * * *

---

(١) سورة القلم ، الآية (٤).



الفصل الرابع
نتائج عنصرية القبائل في الصومال المسلم

ومن مآسي التفرقة القَبَلية وتدميرها ، ما طالعنا به كتاب صدر عن الصومال بعنوان « الصومال بين حياتين » للأستاذ عبد العزيز المهنا ، يبين فيه الأحداث التي وقعت في الصومال ، والحروب الرهيبة التي دارت بين القبائل الصومالية لعدة سنوات ، نتج عنها قتل وإبادة مئات الألوف من الرجال والنساء والأطفال ، حيث إن كل قبيلة تصُرّ على الاستيلاء على السلطة ، أو أن يكون لها دور بارز ، حتى إن فروع القبيلة وأفخاذها تتقاتل ، وتفني بعضها البعض في سبيل العنصرية ، ولأجل أن يكون لها بعض السلطة أو النفوذ .

ونتج عن ذلك دمار البلاد بالكامل ، وانتشار المجاعة ، وفقدان الأمن ، ودمار الثروة الحيوانية ، وانهيار الاقتصاد بالكامل ، ودمار كل ما يدل على حضارة هذا البلد من مكتبات ومدارس ومصانع وغيرها .

كل ذلك في سبيل القبيلة ، وفي سبيل فرض السيطرة على الآخرين ، لإعزاز القبيلة ، والتفاخر بالقبيلة ، والانتساب للقبيلة على الأسس الجاهلية ، وماذا كانت الغنيمة ؟ :

دمار البشر ، ودمار البلد ، لم تنتصر أية قبيلة ، ولم تفز أية قبيلة ، بل الدمار شمل الجميع !!.

والغريب العجيب أن الجميع لا زالوا مصرين على الولاء للقبيلة ! وإعزاز القبيلة ! والعنصرية القبلية الرهيبة !.

أما الأسباب فيمكن إيجازها فيما يلي :

١ - استُعمرت الصومال فترة طويلة من قبل الدول الكافرة : إيطاليا وإنكلترا وفرنسا ، وساهموا بكل ما لديهم من جهد في : إبعاد الشعب الصومالي المسلم عن دينه وعقيدته ، وأثاروا العنصرية والتفرقة بين القبائل ، ونشروا العداء والتنافس بينهم ، وذلك بإمداد مشايخ القبائل الموالين لهم بالرواتب والهدايا ، حسب درجة الولاء لكل واحد منهم ، وحرمان الشعب من التعليم والكتب الإسلامية ، وفرض ثقافة المستعمر عليهم بلغته وثقافته وأمجاده وأقلامه ومكتباته !.

٢ - قيام الحكام بعد الاستقلال بإعطاء مميزات للقبيلة التي ينتمون إليها وتفضيلها على الآخرين في المناصب والوظائف وفي جميع الأمور !.

٣ - نشر الظلم والاستعباد بين القبائل الأخرى .

٤ - المناداة بالاشتراكية حيناً ، وبالقومية حيناً آخر .

٥ - إبادة العلماء الذين يرفعون أصواتهم وشنقهم .

٦ - الجهل الكامل بالإسلام .

ونتيجة الظلم والقهر تجمعت القبائل لإزاحة الحكام الظلمة ، وبعد كفاح مرير نجحوا في ذلك ، ثم تفرغوا لفناء أنفسهم ، ودمار حياتهم ، لأن ولاءهم لم يكن لله ورسوله ، ولا لإعزاز الدين وإقامة حكم الله ، بل كان لإعزاز القبيلة وزعماء القبيلة !.

وهكذا ارتكب هذا الشعب المسلم جريمة في حق نفسه ، وجاهد ليدمر حياته ، ويقضي على أبنائه ، وذلك كله في سبيل الولاء للقبيلة ! إنه عمل انتحاري في سبيل الطاغوت ، مما يدل على الغباء والجهل الرهيب !!.

إن الولاء للقبيلة أدى إلى الجوع والفقر ، والدمار والكره ، والحقد

والعداء ، والتفرقة بين الناس الذين يؤمنون برب واحد ودين واحد ، ويُصلُّون في صف واحد إلى قبلة واحدة ، ويحجون لبيت واحد ، إنها العنصرية الرهيبة التي تؤدي إلى الخوف والرعب والبلاء والنقمة ، وفقدان الرحمة والشفقة والإنسانية ، وإلى كل ما هو سيء .

لقد دمروا كل شيء بأيديهم وبرضاهم ، ودمروا بيوتهم وقتلوا أبناءهم ونساءهم ، وهدموا كل ما هو نافع ومفيد ، لماذا ؟ ليحيا اسم القبيلة ! وزعماء القبيلة ! أما المثقفون فينادون بالقومية ، لأنها بزعمهم تؤدي إلى وحدة الأمة ! وهذا كله بسبب الجهل بالإسلام ، وتعاليمه العظيمة .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهمهم التوفيق والهداية والرشد ، ويجمعهم على الإيمان والإسلام ، والأخوة الإسلامية ، ويردهم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

* * * * *

الفصل الخامس
نتائج العنصرية وماتحدثه من جرائم القتل وسفك الدماء

من نتائج التمسك بالعنصرية والعصبيبة والقبلية والشعوبية والتجمع على أساس عرقي : جرائم سفك الدماء ، وجرائم القتل ظلماً وعدواناً .

ونحن نرى ذلك حقيقة واقعة في الحروب القبلية والعرقية التي حدثت ولا زالت في الصومال ، البلد المسلم على مرآى ومسمع من الجميع ، حيث الصراع الدموي الرهيب بين القبائل ، بهدف فوز القبيلة وسيطرة القبيلة بتشجيع من زعماء كل قبيلة ، وذلك في سبيل استيلائهم على الحكم لإرضاء غرورهم وتقديس أشخاصهم .

وكذلك الحرب العنصرية الرهيبة التي تحدث في أفغانستان المسلمة ، فإن شهوة الحكم غلبت على بعض قادتهم فأعمت بصيرتهم وأساؤوا إلى دينهم وعقيدتهم ! الأفغانيون معروفون بالتمسك بالدين الإسلامي ، ولكن العنصريين منهم جهلاء تماماً - على ما يبدو - بالحكم الإسلامي بالنسبة للعنصرية والعصبية والقبلية والعرقية !.

لقد كنا نعتقد في السابق أن عنصرية الأفغان تنحصر فقط في الزواج فهم يرفضون تزويج بناتهم إلا لسلالتهم وأبناء قبيلتهم ، ولم نكن نعلم أن عنصريتهم قد فاقت أية عنصرية أخرى في الحقد والعداء والرغبة في سحق الآخرين ، وهذا دليل على أن علماءهم ، وكذلك العلماء العرب الذين شاركوهم في جهادهم ، وكذلك علماء المسلمين قد أهملوا وقصروا في محاربة هذا البلاء الذي ابتليت به الأمة الإسلامية بكاملها ، وذلك بسبب إهمال العلماء والدعاة في محاربة هذا المرض الفتاك الكريه النتن ، كما وصفه

الرسول ﷺ ، والذي سيدمر الأمة الإسلامية ويزيدها تفككاً وتفرقة وبلاء ومصائب ، ويزيدها عداءً وحقداً لايعلم مداه إلا الله إذا لم يتداركه - بتوفيق الله - علماء الأمة ودعاتها ، ويشنون عليه حرباً لا هوادة فيها .

ولهذا فمن الطبيعي أن تستمر المذابح بينهم ويستمر إبادة بعضهم لبعض مالم يتوبوا إلى الله ويتوقفوا عن هذه الجريمة النكراء ، جريمة العنصرية والعصبية والقبلية والعرقية ، وهي أسماء عدة لمعنى واحد .

إن الهدف من سفك هذه الدماء هي رغبة أغلب الأطراف أن يسيطر جنسهم وعرقهم وقبائلهم على البلاد ، هذه الرغبة التي استغلها فيهم أعداء الإسلام فأثاروها فيهم ، ونفخوها في دمائهم !! وليس من ضمن هذا الخلاف تطبيق شريعة الإسلام ، وإلالكانت الحرب مشروعة فهم متفقون على الإسلام ، ولكن هدف البعض سيطرة جنس على جنس ، وقبيلة على قبيلة ، والمطالبة بنفوذ أكبر لهذه القبيلة أوتلك ، أو بمنصب أعلا لهذا الزعيم أو ذاك وإصرار كل منهم على موقفه ، وكان في استطاعتهم لو أرادوا الإخلاص لله ولرسوله أن يختاروا جميعاً رجلاً حيادياً مقبولاً من الجميع ، ويتنازلوا عن الحكم في سبيل إنقاذ الأمة الإسلامية في تلك البلاد المسلمة .

إنها حرب في سبيل الشيطان !! لقد انتصر الشيطان عليهم وأساؤوا إلى دينهم وعقيدتهم ، وعرف أعداء الإسلام نقطة ضعفهم فاطمأنوا إلى أنهم لن تقوم لهم قائمة أبداً ما داموا في غيهم وضلالهم .

لقد أنزل الله غضبه عليهم وجعل بأسهم بينهم ، لأنه علم ما في قلوبهم ، ولن يرفع هذا البلاء عنهم مالم يعودوا إلى دينهم ، ويكفروا بعنصريتهم وقبليتهم وعرقيتهم ويتوبوا إلى الله سبحانه .

لقد ارتكبوا هم وأمثالهم في الصومال وفي أفريقيا وفي مناطق كثيرة من عالمنا الإسلامي أكبر جريمة في حق أنفسهم ، وفي حق دينهم ، لأن المؤمن

ليس من أهدافه الوصول إلى الحكم أو الزعامة أو السيطرة سواء كان ذلك لشخصه أو لقبيلته ، وحتى لو كان يرى نفسه أنه الأفضل والأتقى والأعلم والأصلح لهذا الأمر ، فإن عليه أن يترك ذلك حقناً للدماء وحفظاً لأرواح المسلمين ، لأن المؤمنين موقنون أن ولاية المسلمين بلاء وامتحان عسير لا ينجو منه إلا القليل يوم العرض الأكبر .

ولهذا فنحن لا نملك إلا أن نبتهل إلى الله أن يهدي الضالين منهم إلى سبيل الرشاد ، وأن يريهم الحق حقاً ويرزقهم اتباعه ، ويريهم الباطل باطلاً ويرزقهم اجتنابه ، ولهذا سنحاول أن نشرح في الفصل التالي حكم الإسلام في جريمة القتل وأنواعها فنقول وبالله التوفيق .

ماذا قال سبحانه عن قتل المسلم وسفك دمه

يقول سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾[١] .

قال مجاهد : الأثام وادٍ في جهنم ، وقال سيبويه والخليل : أي يلقى جزاء الآثام .

وقال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[٢] .

قال العيني : ﴿ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ يؤخذ منها جواز قتل الحر بالعبد ، والمسلم بالذمي ، وهو قول الثوري والكوفيين ، وقال مالك والليث

---

(١) سورة الفرقان ، آية (٦٨،٦٩).

(٢) سورة المائدة ، آية (٤٥).

والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق وأبوثور : لايقتل حر بعبد ، ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ ﴾ أي عفا عن القصاص فالتصدق به كفارة للمتصدق يكفر الله عنه سيئاته ، وعن عبد الله بن عمرو : يهدم عنه بقدر ما تصدق به .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾(٥) .

وقال تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾(٦) .

وقال تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ

---

(١) سورة الإسراء ، آية (٣٣).
(٢) سورة النساء ، آية (٩٣).
(٣) سورة النساء ، آية (٩٣).
(٤) سورة النحل ، آية (٩٠).
(٥) سورة الأحزاب ، آية (٥٨).
(٦) سورة الممتحنة ، آية (٨).

نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[١] .

وهذه طائفة من الأحاديث في تحريم دم المسلم ، وعِظَم أمره عند الله تعالى، أنقلها للقارى الكريم من كتاب « الترغيب والترهيب »[٢] وتخريجها هناك ، واخترت الثابت منها :

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء » .

والسبب في أن الدماء أول مايقضى بها لأنها أعظم المظالم فيما يرجع إلى العباد ، ففيه وعيد شديد من حيث يبتدأ به في الحساب .

وفي رواية أخرى للنسائي : « أول مايحاسب عليه العبد الصلاة ، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء » .

والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعضهم على بعض لا تحل إلا بإذن الله ورسوله ، حيث قال النبي ﷺ لما خطب في حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا » .

وقوله ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » .

وقوله أيضاً ﷺ : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات » ، قيل : يارسول الله وما هن ؟ ، قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل

---

(١) سورة المائدة ، آية (٣٢).

(٢) ٣ : ٢٩٢ وما وراءها .

الربا ، والتولِّي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لن يزال المؤمن في فسحة من دينه مالم يصب دماً حراماً » .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغيرحق »[١] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله مكتوباً بين عينيه : آيس من رحمة الله » . رواه ابن ماجه والأصبهاني وزاد : قال سفيان بن عيينة : هو أن يقول : أُق - يعني لايتم كلمة أُقْتُلْ .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله . رواه البخاري.

الورطات : جمع ورطه بسكون الراء وهي الهلكة وكل أمر تعسر النجاة منه .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم » . رواه مسلم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قتل بالمدينة قتيل على عهد رسول الله ﷺ لم يعلم من قَتَلَهُ فصعد النبي ﷺ المنبر فقال : « يا أيها الناس يقتل قتيل وأنا فيكم ولا يعلم من قتله ، ولو اجتمع أهل السماء والأرض على قتل امرى لعذبهم الله إلا أن يفعل ما يشاء »[٢] .

وعن أبي بكرة عن النبي ﷺ قال : « لو أن أهل السموات والأرض

---

(١) رواه ابن ماجه بإسناد حسن .
(٢) رواه البيهقي .

اجتمعوا على قتل مسلم لكبهم الله جميعاً على وجوههم في النار »[١] .

وعن معاوية رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا رجل يموت كافراً أو الرجل يَقتُلَ مؤمناً متعمداً »[٢] .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يخرج عنق من النار يتكلم يقول : وكلت اليوم بثلاث : بكل جبار عنيد ، ومن جعل مع الله الهاً آخر ، ومن قتل نفساً بغير حق ، فينطوى عليهم فيقذفهم في حمراء جهنم » .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا رجل يموت مشركاً أو يقتل مؤمناً متعمداً » .

وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إذا أصبح إبليس بثَّ جنوده فيقول : من أخذلَ اليومَ مسلماً ألبسته التاج ، فيجيء هذا فيقول : لم أزل به حتى طلق امرأته ، فيقول : يوشك أن يتزوج ، ويجيء لهذا فيقول : لم أزل به حتى عقَّ والديه ، فيقول : يوشك أن يَبَرَّهما ، ويجيء هذا فيقول : لم أزل به حتى أشرك ، فيقول : أنت أنت ، ويجيء هذا فيقول : لم أزل به حتى قَتَلَ ، فيقول : أنت أنت ، ويلبسه التاج » .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « من قتل مؤمناً فاعتبط بقتله ، لم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً » . رواه أبوداود ، ثم روى عن خالد بن دهقان سألت يحيى بن يحيى الغساني عن قوله : « فاعتبط بقتله » ؟ ، قال : الذين يقاتلون في الفتنة فيقتل أحدهم ، فيرى أحدهم أنه على هدى لا يستغفر الله .

---

(١) رواه الطبراني في « الصغير ».

(٢) رواه النسائي والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

هدف المسلم أن تكون كلمة الله هي العليا

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال : يارسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » . رواه الستة .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال : يارسول الله ، رجلٌ يريد الجهادَ وهو يريد عرضاً من الدنيا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا أجر له » فأعظم ذلك الناس ، وقالوا للرجل : عُدْ لرسول الله فلعلك لم تُفْهِمْهُ ، فقال الرجل : يارسول الله ، رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عَرَضَ الدنيا ؟ قال : « لا أجر له » فأعظم ذلك الناس وقالوا : عُدْ لرسول الله ﷺ ، فقال له الثالثة : رجل يريد الجهاد وهو يبتغي عرضاً من الدنيا ؟ فقال : « لا أجر له »[١].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال : يارسول الله أخبرني عن الجهاد والغزو ، فقال : « ياعبد الله بن عمرو إن قاتلت صابراً محتسباً ، بعثك الله صابراً محتسباً ، وإن قاتلت مُرَائياً مكاثراً ، بعثك الله مرائياً مكاثراً ، ياعبد الله بن عمرو على أي حال قاتلت أو قتلت بعثك الله على تلك الحال »[٢] .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئٍ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا

---

(١) رواه أبو داود وغيره .
(٢) رواه أبو داود .

يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » . رواه البخاري ومسلم .

من حمل علينا السلاح فليس منا

وعن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم ، عن النبي ﷺ قال : « من حمل علينا السلاح فليس منَّا » . رواه البخاري ، وزاد مسلم : « ومن غشَّنا فليس منا » .

حتى الذين يحملون السكاكين ، أو الأشياء الحادة كالنَّبْل والرمح وغيرها ويسيرون في الشوارع ، عليهم أن يكونوا حريصين على عدم إيذاء الناس ، وذلك بلفِّها وربطها .

فعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مرَّ أحدكم في مسجدنا وفي سوقنا ومعه نَبْل فليمسك على نصالها أن يصيبَ أحداً من المسلمين منها بشيء » . متفق عليه .

وعن أنس عن النبي ﷺ قال : « الكبائر : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، وقول الزور »[١] .

الطاعة لا تكون إلا لله ولرسوله

ولما قرأ ﷺ على عدي بن حاتم قول الله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[٢] قال له عدي : يارسول الله ما عبدوهم ، قال : « ماعبدوهم ، ولكنْ أحلُّوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم » .

وفي رواية أخرى قال ﷺ : « بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم

---

(١) رواه النسائي .

(٢) سورة التوبة ، آية (٣١).

الحرام فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم »[١] .

والطاعة لاتكون إلا لله ولرسوله ، وكل أمر يتعارض مع أوامر الله ورسوله يلقى في القمامة مهما كان مصدره .

وقد ورد « أنه لاطاعة لأحد في معصية الله إنما الطاعة في المعروف » . رواه البخاري ومسلم .

ولأبي داود وللنسائي عن علي رضي الله عنه : « طاعة الإمام حق على المرء المسلم مالم يأمر بمعصية الله ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

وللبيهقي في « شعب الإيمان » عن أبي هريرة رضي الله عنه : « السمع والطاعة حق على المرء المسلم فيما أحبَّ أو كره مالم يؤمر بمعصية ، فلا سمع عليه ولا طاعة » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « اسمعوا إنه سيكون عليكم أمراء فلاتعينوهم على ظلمهم ، ولاتصدقوهم بكذبهم ، فإنَّ من أعانهم على ظلمهم وصدَّقهم على كذبهم فلن يرد عليّ الحوض »[٢] .

وعلى هذا الأساس فإن إطاعة مشايخ القبائل ورؤسائها في معصية الله سبحانه ، وقتل الأبرياء وسفك الدماء والحقد والعداء ضد القبائل الأخرى ، والتجمع على أساس عنصري وعرقي وقبلي أو شعوبي ضد الفئات المسلمة الأخرى مهما كان نوعها وعرقيتها هو عمل إجرامي محرم ، وعليه أن يرفض المشاركة في حرب عنصرية أوقبلية أو قومية مهما كان نوعها ، لأن المؤمن لا يقاتل إلا في سبيل الله وإقامة دينه ، وإيقاف الظلم والبغي ،

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه : كتاب التفسير ٢٤٨:٢ رقم الحديث (٣٠٩٤) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده وأبو يعلى وابن حبان والطبراني في « الكبير » والحاكم في المستدرك .

وإحقاق الحق ونشر الأمن ، وإبادة المجرمين والمنحرفين والكافرين .

إن على المسلم المؤمن أن يتعبد الله بالكتاب والسنة ، فإمامه محمد ﷺ ، ودستوره القرآن والسنة ، وقدوته السلف الصالح من الصحابة الأكارم رضي الله عنهم جميعاً .

هذا هو المسلم ، إنه المتبع لأوامر الله سبحانه وأوامر رسوله ، فكل أمر وكل مسألة فيها قال الله وقال رسوله انتهى الأمر فيها ، وليس له الخِيَرَة ، وليس له العذر أن يترك ما قال الله وقال رسوله للعنصريين والعرقيين من زعماء قبيلة أو غيرهم .

يقول الامام مالك رحمه الله : مامنا إلا رادٌّ ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر (ويشير إلى قبره ﷺ) .

وقال أبوحنيفة رحمه الله : إذا عارض قولي قول الرسول ﷺ فاضربوا بقولي عرض الحائط .

وقال الشافعي رحمه الله : إذا تبين لي الحديث ووصلني وعلمت صحته وأخذت بقول غير الحديث فاعلموا أن عقلي قد ذهب .

وعلى هذا فإنَّ على المسلم أن يرفض الانصياع لأي أمر يتعارض مع القرآن والسنة ، وأن يحكِّم الدين والشريعة في أموره كلها ، وفي كل قضية تعرض عليه ، وعليه الابتعاد عن الرأي والعاطفة والاتجاهات العنصرية والعرقية بكافة أشكالها .

بعث رسول الله ﷺ علقمة بن مجزِّر - قال أبوسعيد الخدري رضي الله عنه : وأنا فيهم - حتى إذا بلغنا رأس غَزاتنا أو كنا ببعض الطريق أَذِن لطائفة من الجيش ، واستعمل عليهم عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه ، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ ، وكانت فيه دعابة ، فلما كان ببعض الطريق أوقد ناراً ثم قال للقوم : أليس لي عليكم السمع والطاعة ؟

قالوا : بلى ، قال : أفما آمركم بشيء إلا فعلتموه ؟ قالوا : نعم ، قال : فإني أعزم عليكم بحقي وطاعتي إلا تواثبتم في هذه النار ! قال : فقام بعض القوم يحتجز - أي يتهيأ للوثوب - حتى ظن أنهم واثبون فيها ، فقال لهم : اجلسوا فإنما كنت أضحك معكم ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ بعد أن قدموا عليه ، فقال رسول الله ﷺ : « من أمركم (منهم) بمعصية فلا تطيعوه »[١].

قيمة المسلم وأهميته لدى الدولة الإسلامية

لقد كان الخلفاء الراشدين ومن تبعهم يهتمون بأوضاع المسلمين وسلامتهم حتى خلال الحروب لدرجة أن مسلماً واحداً لديهم أحب إليهم من الروم وما حوت .

ولقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى قائد نهاوند النعمان بن مقرن المزني :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن ، سلام عليك فإني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد :

فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند ، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين ، ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم ، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم ، ولا تدخلنهم غيضة ، فإن رجلاً من المسلمين أحب الي من مئة ألف دينار ، والسلام عليك)[٢].

---

(١) « سيرة ابن هشام » ٤ : ٣١٧.

(٢) من كتاب « أخبار عمر » للطنطاوي ص٦٧-٦٨ .

وروي أنه كتب إلى جعونة بن الحارث وكان عاملاً له على غزة قائلاً له: (إياي وغارات الشتاء، فوالله لرجل من المسلمين أحب الي من الروم وما حوت).

وعندما انتصر المسلمون انتصاراً ساحقاً ودخلت جيوشهم نهاوند وأصبهان وجَيّ وقُمّ وكرمان ، ووصلت أخبار نهاوند إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بكى بكاءً مريراً على شهدائها ، وكلما ذكر له شهيد زاد بكاؤه ، ولما وصلوا إلى ذكر أسماء لا يعرفها بكى وقال : (وما ضرهم أن لا يعرفهم أمير المؤمنين ، لكن الله يعرفهم ، وقد أكرمهم بالشهادة ، وما يصنعون بمعرفة عمر!)[١].

وهذا معاوية بن أبي سفيان يلح على أمير المؤمنين عمر في السماح له بالجهاد عن طريق البحر ، فيكتب إلى عمرو بن العاص أن يصف له البحر وراكبه ، وعندما يعلم بخطورة البحر وهيجانه يجيب معاوية أمير الشام بقوله : (والذي بعث محمداً ﷺ بالحق لا أهمل فيه مسلماً أبداً ، وبالله لمسلم أحب مما حوت الروم) .

حرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة المشرفة

ويقول ﷺ مخاطباً الكعبة المشرفة : « لقد شرفك الله وعظمك ، والمؤمن أعظم حرمةً منك »[٢].

وقال ﷺ أيضاً : « مرحباً بكِ من بيت ، ما أعظمكِ وأعظم حرمتك ! وإن المؤمن أعظم حرمة منك »[٣].

---

(١) « التاريخ الإسلامي » لمحمود شاكر ٣: ١٧٤ فتح نهاوند .
(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » عن ابن عمرو . كما في « كنز العمال » رقم الحديث (٧١٨).
(٣) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » ، وأبو داود عن ابن عباس . « كنز العمال » رقم الحديث (٨١٨).

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً : « لا إله إلا الله ما أطيبكِ وأطيب ريحك ، وأعظم حرمتك ! والمؤمن أعظم حرمة منك ، جعلك حراماً ، وحرم من المؤمن ماله ودمه وعرضه ، وأَنْ يظنَّ به ظناً سيئاً »[١].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : (لأن أستنقذ رجلاً من المسلمين من أيدي الكفار أحبُّ إليَّ من جزيرة العرب)[٢].

متى يحل دم المسلم

وقال ﷺ : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » متفق عليه.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله عز وجل » . متفق عليه .

القتل في سبيل العصبية والعنصرية

قال صلوات الله وسلامه عليه : « من قُتِل تحت راية عِمِّيَّة ، يدعو عصبية أو ينصر عصبية ، فقِتْلَتُه جاهلية » أخرجه مسلم . ومعنى « قِتْلَتُه جاهلية »: أي يموت ميتة جاهلية لا إسلامية .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من خرج عن الطاعة ، وفارق الجماعة ، فمات ، مات ميتة جاهلية . ومن خرج عن أمتي يضرب برَّها وفاجرها ، لا يتحاشى من مؤمنها ، ولا يَفِي بذي عهدها : فليس

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » عن ابن عباس . « كنز العمال » رقم الحديث (٨١٩).
(٢) « كنز العمال » ٢: ٣١٢.

مني . ومن قاتل تحت راية عِمِّيَّة يدعو إلى عصبية ، أو يغضب لعصبية ، فقتل فقِتْلَتُه جاهلية »[١] .

ضرورة تماسك القبائل والشعوب وتعاونها والعمل على وحدتها

لا زالت كثير من القبائل المسلمة تتقاتل على أساس عنصري وعرقي ، ويذهب ضحية ذلك العشرات أو المئات خاصة إفريقيا ، بل إن بعض العنصريين إذا حدث له نزاع أو اتهام أو خلاف مع الآخرين في أية مشكلة استعان بأفراد من فصيلته وفخذه وقبيلته ليعينوه بالباطل ضد الآخرين ، سواء بالاعتداء عليهم أو تهديدهم أو الشهود ضدهم لدى الحاكم أو مركز الشرطة أو السلطات المحلية زوراً وظلماً وبهتاناً للاستيلاء على أموالهم بالباطل .

وبتصرفهم هذا أصبحوا من أعداء الدين ، ومن المجرمين العتاة وأعداء الله ورسوله وكافة المؤمنين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ولم يدرك هؤلاء العنصريون جهلهم وضلالهم حيث أساءوا إلى أنفسهم ثم إلى شعوبهم وبلادهم ، وكل ذلك سببه الجهل وعدم الاهتمام بالدين والعقيدة .

فما هي الصفات التي تتميزون بها عن البشر أيها العنصريون والقبليون والشعوبيون ؟! لقد دمرتم قبائلكم وشعوبكم باعتقاداتكم السخيفة ، وسفكتم دماءهم بآرائكم وشهواتكم المنحرفة الباطلة ، وأصررتم واستكبرتم وتجاهلتم دينكم وعقيدتكم في سبيل الشيطان ، كل ذلك في سبيل أن يفوز رجل أو رجال ينتسبون لقبيلتكم بالحكم أو الزعامة ، مع أنه قد يكون هناك من هو أفضل منه إخلاصاً وعملاً واستقامةً وتديناً وثقافةً وخبرة ، أو لأجل

---

(١) رواه النسائي .

أن يرتفع اسم القبيلة ، أو يخلَّد ذكرها ، أو أن يتفوق زعماؤها على زعماء القبائل الأخرى ويكونوا طغاةً وجبابرة .

يقول الرسول ﷺ : « لن تفنى أمتي حتى يظهر فيهم التمايز والتمايل والمعامع » ، قيل : يارسول الله ما التمايز ؟ قال : « عصبية يحدثها الناس بعدي في الإسلام » ، قيل : فما التمايل ؟ ، قال : « تميل القبيلة على القبيلة فتستحل حرمتها » ، قيل : فما المعامع ؟ ، قال : « سير الأمصار بعضها إلى بعض حتى تختلف أعناقهم في الحرب »[١].

ويقول عليه الصلاة والسلام : « تكون فتنة يقتتلون عليها على دعوى الجاهلية ، قتلاها في النار »[٢].

ولقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياءً ، أيُّ ذلك في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » . رواه مسلم.

ومعنى يقاتل حمية : يقاتل أَنفة وغيرة ومحاماة عن عشيرته وقبيلته ، أي لحماية عشيرته وقبيلته وأقربائه وسلالته وعرقيته ، يقاتل في سبيلهم .

إن كل قبيلة بحاجة لمن حولها من القبائل ، وكذلك كل شعب بحاجة للشعوب المحيطة به ، ولو فرضنا أن قبيلة أو شعباً أو جنساً طبق هذا الهراء وهذا السخف وهذا الضلال ، واعتقد أنه الجنس الأفضل والأحسن والأرقى ، وأن الآخرين من دونه ، ماذا ستكون النتيجة ؟ .

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه .

(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرك » عن أبي هريرة.

إن جميع من حوله من قبائل أو شعوب ستحتقره وتكرهه وتتمنى دماره وفناءه وإذلاله ، وتعمل منفردة أو مجتمعة على زواله وإبادته ودماره ، ولو تعرض لعدوان من قبيلة أو شعب أو دولة سواء كانت كافرة أو غير كافرة ، فلن يجد من ينجده ولامن يعينه أو يقف بجانبه حتى لو كان مظلوماً .

طبِّقْ هذا المثل على نفسك أيها العنصري أو أيها الشعوبي أو القبلي أو أيها المستكبر أو أيها المغرور بجنسك أو عرقيتك - لو أن بعض من حولك تعالى عليك واحتقرك أو فضلَ جنسه على جنسك ، أو قبيلته على قبيلتك ، أو شعبه على شعبك ، أو بلده على بلدك ، أو عائلته على عائلتك ، فماذا سيكون شعورك وإحساسك وردُّ فعلك ، أَوَليس نتيجة ذلك العداء والحقد والكره والنفور والانتقام ودمار الأمة والأفراد .

النار مصير من يقاتل في سبيل قبيلته وسلالته

إن القتل والقتال عنصريةً أو قبليةً أمر لا خير فيه ، وإن كان ظاهره خيراً، فالخير ما حكم عليه الله ورسوله ﷺ أنه خير ، لا ما نقدِّر نحن أنه خير ، والدليل على ذلك هذا الخبر .

قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال : كان فينا - أي في صفوف المسلمين يوم غزوة أحد - رجلٌ أَتِيٌّ - أي غريب - لا يدرى ممن هو يقال له قُزْمان ، فكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذُكر : « إنه من أهل النار » ، فلما كان يوم أحد قاتل قتالاً شديداً فقتل هو وحده ثمانية أو سبعة من المشركين ، وكان ذا بأس ، فأثبتته الجراحة فاحتُمل إلى دار بني ظَفَر ، قال : فجعل رجال المسلمين يقولون له : والله لقد أبليت اليوم ياقزمان فأبشر ، قال : بماذا أبشر ؟ فوالله ماقاتلت إلا عن أحساب قومي ، ولولا ذلك ما قاتلت ، قال : فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهماً من كنانته فقتل به نفسه .

ومعنى أحساب قومه : أنه قاتل دفاعاً عن قومه وعن قبيلته وعن عرقيته فقاده ذلك إلى جهنم .

* * * * *

الفصل السادس
العنصرية السياسية

القتال في سبيل الاستقلال عن الدولة الأم أو في سبيل التوسع على الحدود على أسس عنصرية

ومن العنصريين من يتجمع على أساس عرقي كجنس أو عرق واحد للمطالبة بالانفصال عن البلاد التي كان جزءاً منها ، كما حدث في بنغلاديش عندما انفصلت عن باكستان ، وكما يحدث الآن في الصحراء فيما يسمى بالبلساريو ، وكما يحدث في الصومال وانفصال الشمال عن الجنوب، وكما حدث مع العنصريين الأكراد برئاسة البرزاني ، وكما حدث أيضاً بين السنغال وموريتانيا حيث اعتدى كل منهم على الآخر على أساس عنصري وأثار الكره والحقد بينهم بدون مبرر ، وكان للمبشرين النصارى دور رئيسي في هذه الفتنة .

ولو كانت المطالبة بالانفصال لتطبيق شريعة الإسلام لكان هذا مبرراً سليماً ، أما أن يطالبوا بالانفصال على أساس عنصري فإن هذا ضد الإسلام ومبادئ الإسلام ، إن كل قائد أو رئيس يقود شعبه أو جنسه لقومية أو شعوبية معينة أو لجنس أو أمة كانت في تلك المنطقة منذ مئات وآلاف السنين ، كالفراعنة والفينقين والآشوريين والبربر والفرس والأكراد والترك والطاجيك والبخاري والعرب وما شابه ذلك من مئات الأسماء للجنس البشري المنتشر على هذه الأرض ينادي باتحاده ووحدته على هذا الأساس ، أو على أساس مميزاته أو أفضليته أو أحقَّيته أو عرقيته فإن هذا يعتبر عملاً عنصرياً كريهاً عفناً منتناً منافياً للإسلام ومناقضاً لمبادئه وشريعته ، بل يعتبر

عدواً للإسلام والمسلمين لأنه يسعى بهذه المبادى إلى تحطيم الإسلام ومزيدٍ من التفرقة والتجزئة للعالم الإسلامي ونشر العداء والحقد بين الأمة الإسلامية الواحدة .

وكذلك عندما يقود شعبه أو قبيلته أو جنسه لحرب أو معارك جزئية في سبيل وحدة جنسه ، أو وحدة قبيلته ، أو وحدة عرقيته ، أو بهدف التوسع في الأرض ، أو في سبيل الدفاع عما يسمى بالحدود في البلاد الإسلامية ، أو الحدود بين الشعوب والقبائل الإسلامية ، أو بين الأجناس والعروق ، هذه الحدود الوهمية التي وضعت في العالم الإسلامي عندما استعمرت من قبل أعداء الإسلام ، ويقوم العنصريون بإثارتها وتسعيرها وسفك الدماء لأجلها لماذا ؟ ، لأجل قطعة أو منطقة من الأرض يعتقد أنها تحتوي على بعض المعادن أو بعض الثروات ، ثم يسفكون دماء شعوبهم في سبيلها ، وكأن هذا الجزء من الأرض أو التراب اشتروه بأموالهم أو ورثوه عن أجدادهم .

إن الأرضَ أيةَ أرض من أرض الإسلام هي للمسلمين أجمع ، ويذكر في هذا الصدد ما حدث في قضية البريمي عندما كانت مستعمرة من قبل بريطانيا ضمن المناطق الأخرى التى كانت تسمى بالمحميات ، فقد كانت حكومة المملكة العربية السعودية تهاجم بريطانيا بعنف وقوة وتطالبها بالانسحاب فوراً ، وتنذرها باتخاذ الإجراءات العنيفة ضدها إن لم تنسحب ، وأرادت بريطانيا الكيد والانتقام من المملكة كما تعتقد بهدف إثارة الأحقاد والضغائن ، فضمت البريمي وما حولها للمناطق الأخرى التي توحدت بعد ذلك باسم الإمارات العربية المتحدة ، وقابل الملك فيصل – رحمه الله – هذا الإجراء بحكمة عظيمة وسياسة إسلامية نقية ، وأبلغ المسئولين في الإمارات برضائه وموافقته ، وجعل كيد المستعمرين في نحورهم .

لقد أعطى هذا الرجل العبقري المثل الأعلى والقدوة الحسنة في هذا

التصرف الحكيم ، لأنه يعلم أن دماء المسلمين أهم من كل ما تحتويه الأرض من معادن وثروات ، ومادامت هذه الثروات وهذه المناطق قد عادت للمسلمين أو لفئة منهم فكأنها عادت لهم جميعاً .

إن بلاد المسلمين كانت بلاداً واحدة ، وقطعة واحدة ، ثم جزئت بتخطيط من الصليبين والدول غير الإسلامية ، مستغلة ضعف المسلمين وابتعادهم عن دينهم وعقيدتهم كما استغلت العنصريين والعرقيين والقوميين في كل مكان لتنفيذ مآربها وتحقيق غاياتها وتحطيم تجمع المسلمين ووحدتهم ، لأن أي تجمع إسلامي سواء كان جزئياً أو شاملاً يعتبر إضعافاً وتخسيراً لأعداء الإسلام ، ولا يمكن أن تقوم للمسلمين قائمة إلابوحدتهم وتجمعهم على أساس إسلامي ، ولذلك فإن أعداء الإسلام حريصون أشد الحرص على تثبيت وتقوية العنصرية والقومية والوطنية بكافة أنواعها وأشكالها في كل بلد وفي كل منطقة ، وكلما قام العنصريون بفصل جزء عن جزء شعر أعداء الإسلام بالفرح والارتياح والاطمئنان ، لأن هذا ينتج لهم مزيداً من السيطرة على المنطقة من كافة جوانبها .

ولا ننسى ما فعلته بريطانيا عدوة الإسلام والمسلمين عندما أرسلت عميلها لورانس لتحطيم الدولة العثمانية ، وزوّدته بالذهب الوفير لتوزيعه على العنصريين والقوميين والقبليين وإثارتهم ضد الأتراك ، حيث قتلت الكثير منهم ، وفجروا القطارات بما فيها بمساعدة العنصريين البدو ، ثم تبين فيما بعد أن القوميين العرب الذين ثاروا ضد الدولة العثمانية كانوا على اتصال بالسفارات الفرنسية والانكليزية ، ومن الأسباب التي عجلت بزوال الدولة العثمانية أولئك الضباط الأتراك العنصريون الملحدون الذين آمنوا بالقومية الطورانية ونادوا بالتتريك ، واتخذوا شعار الذئب الأغبر الذي كان معبود الأتراك قبل اعتناقهم للإسلام .

وما حدث أيضاً من المستعمرين الإنكليز والفرنسيين وغيرهم حيث استغلوا العنصريين ليساعدوهم في إخضاع الشعوب الإسلامية الأخرى ، حيث ساهموا في قتل واستباحة دماء إخوانهم المسلمين بعضهم لبعض في سبيل سيادة المستعمر الكافر وسيطرته على البلاد ، مقابل فتات تافهة لا تسمن ولا تغني من جوع ، ومقابل أماني ووعود للعنصريين والقوميين وزعمائهم ومشايخ قبائلهم في إعطائهم مزيداً من الدعم والنفوذ والسلطة والاستقلال .

وقد رأيت بأم عيني وأنا طفل صغير الجنود المسلمين السنغال وغير السنغال وهم يضربون إخوانهم المسلمين في مستعمراتهم ، وينفذون تعليمات أوامر صف الضباط الفرنسيين بدون تردد .

ولو كان لدى هؤلاء الجنود المسلمين أدنى شعور بالأخوة الإسلامية والترابط الإسلامي لكانوا عوناً لإخوانهم المسلمين ضد المستعمرين الكفرة .

ومن هنا نعلم ضرورة الاهتمام بالمسلمين في كل مكان في أنحاء العالم بما فيهم الأقليات الإسلامية ، وضرورة الاهتمام بتعليمهم إسلامياً وتربوياً ورفع مستواهم اقتصادياً ، وإشعارهم بمدى أهمية الأخوة الإسلامية ، وحرمة قتل المسلم لأخيه المسلم ، والكفر بالعنصرية والقومية والشعوبية بكافة أنواعها ، وهذا واجب الأفراد والحكومات كل حسب امكانياته ومقدرته ، لأننا إن لم نفعل ذلك بُؤنا بغضب الله أولاً ، وأجبرنا هؤلاء على أن يكونوا أعداءً لنا ، وأقنعناهم باحتقارنا ومحاربتنا .

ولهذا اتفق علماء المسلمين بالإجماع على أنه إذا احتل بعض الكافرين جزءاً من بلاد الإسلام وجب على المسلمين أن ينفروا جميعاً أو أشتاتاً لطرد المعتدي الكافر من بلاد المسلمين وردعه ، فإن لم يفعلوا ذلك فهم آثمون لأنهم تركوا واجباً من الواجبات الشرعية المطالبين بها ، وهذا ينطبق أيضاً على كل فئة أو

أقلية إسلامية تتعرض للاضطهاد أو الطرد من بلادها أو محاولة إبادتها وتصفيتها ، كما يحدث الآن في مناطق كثيرة من العالم ، ولا بد في هذه الحالة من أن ينفر المسلمون أو بعضهم لمساعدة هذه الفئة لإعادة حقوقهم كاملة ، وهذا يشمل بالطبع مساعدتهم في كافة المجالات مادياً ومعنوياً وعسكرياً .

إن توعية المسلمين في كل مكان وإنشاء المدارس الإسلامية لهم فرض كفاية على كل قادر سواء كان بماله أو علمه أو نفوذه أو منصبه .

يذكرني هذا بالقبائل الإسلامية الموجودة بالفلبين ، وكيفية اعتناقهم للإسلام ، لقد انتقل الدعاة إليهم منذ أكثر من أربعمائة عام عن طريق ماليزيا ، وهؤلاء الدعاة قدموا أصلاً من اليمن الجنوبي ، وكان لهم الفضل في اعتناقهم للإسلام ، ولكل قبيلة هناك لغة خاصة بها ، ولكن في جميع هذه اللغات نسبة كبيرة من اللغة العربية ، وكان لأحد أمرائهم المسلمين الفضل في قتل ماجلان وزملائه عندما أرسلهم الصليبيون الأسبان لإبادة المسلمين هناك بعد أن قاموا بذبح المسلمين في الأندلس !!! .

لقد كان المستعمرون النصارى يدرِّسون الطلبة في المدارس الابتدائية بالبلاد العربية المستعمَرة بأن : ماجلان قام برحلته البحرية لإثبات كروية الأرض ! بينما هو في الحقيقة أرسل للشرق الأقصى للقضاء على المسلمين هناك وإبادتهم ، وفعلاً أرسلت أسبانيا حملة عسكرية أخرى بعد مقتل ماجلان ، واستعمرت المناطق الإسلامية بالفلبين ، وذبحت وقتلت الكثيرين منهم ، ونجحت في تنصير كثير من المسلمين ، وظلت إحدى القبائل المسلمة وهي قبيلة المرناو وبعض القبائل الأخرى تقاوم النصارى الأسبان لعشرات السنين ، ثم المستعمرين اليابانيين ثم المستعمرين الأمريكيين .

وكان الاسم الأساسي لمانيلا عاصمة الفلبين هو (أمان الله) ثم حرِّف

اختصاراً وأصبح بلفظ مانيلا ، ولا زالت بعض الأماكن في العاصمة تحتفظ باسمها العربي حتى الآن ، ومن الطريف أن النصارى الذين يعتنقون الإسلام الآن يطلقون على أنفسهم (العائدون للإسلام) ، أي أنهم كانوا مسلمين في الأصل ثم أجبر أجدادهم على اعتناق النصرانية .

والمهم أن عنصريتنا وعرقيتنا جعلتنا نفكر في أنفسنا فقط ، وقال الكثيرون منا : فليذهب الآخرون منا إلى الجحيم .

وقال العنصريون : نموت في سبيل أوطاننا ونعمل لتحيا بلادنا ، ونفديك يا بلادي بالمهج والأرواح ، وأرواحنا ودماؤنا في سبيل الوطن ، أو الدين لله والوطن للجميع .

أو ذلك الملحد الذي يقول :

لا تسل عن ملتي أو مذهبي   أنا بعثي اشتراكي عربي

أو ذلك الذي يقول :

أنا مصري بناني من بنى   هرم الدهر الذي أعيا الفنا

أو الذي يقول : قومية عربية اشتراكية .

وقال آخرون ممن سلبت بلادهم :

نحن مستعدون للتعاون مع الشيطان في سبيل عودة الأوطان .

هذا هو شعار العنصريين : الموت في سبيل التراب والوطن ، والإخلاص والفداء في سبيل ذلك الزعيم أو الرئيس .

ألم يأنِ لنا أن نعلم أن هذا كله في سبيل الطاغوت .

لقد تعاون العنصريون بكافة أنواعهم ، وأشكالهم ، وأحجامهم ، في تدمير الدين وتجزئة العالم الإسلامي ، وتعاون الآلاف منهم مع الكفرة في تقوية عنصريتهم ، وعرقيتهم ، وقوميتهم ، وشعوبيتهم ، في سبيل

الشيطان ، ثم يتساءلون : ألا ينصرنا الله ! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

* * * * *

الفصل السابع
عنصرية الانتماء للجماعات الإسلامية

بعض الأفراد الذين ينتمون للجماعات الإسلامية في مختلف بلدان العالم الإسلامي ، وخاصة في البلدان التي فيها أقليات إسلامية ، أحدثوا عنصرية جديدة وهي مهاجمة بعضهم البعض ، والحط من قيمة الآخرين الذين ينتمون للجماعات الأخرى ، بل إن بعضهم يصف الجماعات الأخرى بعبارات غير مؤدَّبة وغير لائقة ، منها أنهم بعيدون عن الدين ، وأنهم ليسوا جماعات إسلامية حقيقية ، أو أنهم مهرِّجون ! وبعضهم يشعر بالسعادة والنشوة والانتصار إذا امتُحِن إخوانه في الدعوة من الجماعات الأخرى ، وأُلقوا في السجون أو قتلوا أو عذِّبوا في الله وكأنهم أعداؤه الألداء !.

هؤلاء الأفراد مهمتهم الهدم ، هدم إخوانهم الدعاة ، فبدلاً من أن يبني تراه يهدم ، وأول من يهدم إخوانه في الدعوة ، إخوانه في العقيدة والدين ، لأنهم ينتمون لجماعات إسلامية أخرى ، لأنهم يختلفون معهم في الأسلوب أو في طريقة الدعوة .

هؤلاء الناس لم يعرفوا عدوهم بعدُ ، لم يعرفوا الهدف من انتمائهم لجماعة إسلامية ، إن هدف المسلم من الانضمام لأية جماعة إسلامية هو العمل للإسلام ، وإيجاد النموذج الإسلامي الكامل ، وإقامة الدولة الإسلامية ، وتطبيق شرائع الإسلام .

والدعوة إلى الإسلام بين المسلمين وغير المسلمين ليس الهدف منها تقديس اسم الجماعة التي يحمل اسمها والدفاع عن أخطائها ، كما أن الاخلاص في

العمل لهذه الجماعة أو تلك يتوقف على مدى تمسك هذه الجماعة بالإسلام وشرائعه وإصرارها على ذلك .

لم يعرفوا المعركة القائمة وطبيعتها ، لم يعرفوا الميدان الذي يجب أن يعملوا فيه ، لماذا يهدم بعض الأفراد بعضهم ، ألايكفينا أن نلتقي على الحد الأدنى في الدعوة إلى ما يصير به المسلم مسلماً : شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله ، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره .

إن المفروض في الجماعات الإسلامية وفي الدعاة عموماً لا سيما من كان منهم يعيش في الأقليات الإسلامية أن يتكاتفوا ، وأن يتواصوا ، وأن يهبوا لنجدة بعضهم البعض ، وأن يواسوا بعضهم بعضاً ، بدلاً من أن يتفرقوا ويتمزقوا ويحارب بعضهم بعضاً .

هناك من يتسمى بأهل الحديث أو الشباب الإسلامي أو التبليغ أو الجماعة الإسلامية أو الإخوان المسلمين أو جمعية العلماء أو غير ذلك .

المفروض في هؤلاء الناس الذين يعيشون في أقلية مسلمة بين أصحاب ديانات أخرى تريد أن تبيدهم وتفنيهم وتطردهم من أرضهم وقُراهم ، المفروض فيهم أن يقدِّروا هذا ، بدلاً من أن يملأوا وقتهم باتهام الآخرين وإساءة الظن بهم ، حتى إن بعض علمائهم يهاجم بعضهم بعضاً في المسائل الفرعية ، وبعضهم إذا انتقل للدعوة في بلد آخر أصر على أن يطبق الآخرون مذهبه في الفروع ، مع أن المسلمين جميعاً في ذلك البلد يتبعون مذهباً آخر ، وبعضهم ينتقدون أئمة المذاهب رحمهم الله ، الذين أدوا للمسلمين أعظم الأعمال وأجلها .

وقد قرأت هجوماً عنيفاً لأحد العلماء الكبار على عالم جليل آخر ضمنه

كثيراً من العبارات القاسية والكلمات المهينة بدون أن يذكر مبرراً يستحق ذلك .

إذا كان العلماء يفعلون ذلك فماذا نفعل نحن العوام المقلدين الذين نعتبر جميع العلماء موجهين لنا وقادة ؟! .

إن على جميع الدعاة وعلماء الأمة أن يعرفوا أعداءهم ! أن يتعرفوا على القوى الشريرة التي تخطط للقضاء عليهم ! أن يتعرفوا على البرامج والخطط التي يقصد منها تدمير الإسلام وأهله ! ، ويأتي في مقدمة هؤلاء الأعداء العلمانيون والملحدون ومن هم على شاكلتهم كالصهيونية العالمية والصليبية .

إن واجب الدعاة هو الكشف عن هؤلاء بالدرجة الأولى وتعريتهم وأن تظهر عمالتهم لأنهم لا يعملون لأنفسهم ولا لأوطانهم ولا لأمتهم ، وإنما يعملون لأعداء الإسلام .

إن عليهم الكشف على الهدامين الذين يريدون انتقاص الإسلام ، وحذف أو بتر القواعد الأساسية لهذا الدين ، هؤلاء الذين يريدون الإسلام بلا عقيدة وبلا شريعة أو أخلاق أو عبادة ! أو ديناً بلا جهاد أو دولة ! أو يريدون تجزئة الأمة الإسلامية إلى فرق وأحزاب وشعوب ! أو يريدونه ديناً منقوصاً يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض .

وبعضهم يريد حذف الجهاد بكامله وكأنه غير واجب على المسلمين ، كما فعل المرتدون القاديانيون وأمثالهم ، هذه النِّحْلة الضالة التي بنت اعتقادها على : النبوّة المزيّفة ، وإلغاء الجهاد بكافة أنواعه ، وإطاعة أولي الأمر حتى لو كان كافراً .

ثم يأتي بعد ذلك القوميون والشعوبيون والعنصريون بمختلف أنواعهم وأشكالهم واتجاهاتهم ، وهؤلاء رغم أن الأغلبية يعملون ضد الإسلام دون

أن يشعروا بذلك فإن مهمة العلماء والدعاة أن يبينوا لهذه الفئات الضالة خطأهم وانحرافهم عن الحق .

إن أخطر الخطر هو الذي يأتي من الدعاة أنفسهم إذا كان هدفهم الطعن في بعضهم البعض ومهاجمة زملائهم وإخوانهم في الدعوة ، إن هذا سيؤدي - لا سمح الله - إلى إنهاء حياة المجتمع الإسلامي وتدمير المسلمين والدعاة إليه !.

إن هذا التعصب وهذه العنصرية الجديدة آفة الآفات ، التعصب للرأي ، والتعصب على أفضلية جماعته ، وأن مَن دونها حثالة لا قيمة لها ، هذا الشعور المؤسف بعيد عن الإسلام كل البعد ، إن على الدعاة أن يحترم بعضهم بعضاً ويقدر بعضهم بعضاً مهما كان أسلوبهم وطريقتهم في الدعوة ، إن تعليم الفاتحة ومعناها لمن لا يجيدها : من الدعوة ، وتعليم الناس كيفية أداء الصلاة : من الدعوة إلى الله ، وكذلك كافة القواعد الإسلامية .

لا مانع أن تبين أو تشرح للآخرين آراءك وأفكارك ، وأفضل الوسائل والطرق لتوعية المسلمين ، أو التعريف بالإسلام لغير المسلمين ، وتقيم المحاضرات والندوات وتؤلف الكتب والنشرات ولكن بالحكمة والرفق ، وبدون الطعن على الدعاة الآخرين أو الحط من شأنهم .

لا مانع أن ترى رأياً وأرى رأياً ، إن كنت مقلداً وأنا مقلد فلا بأس ، وإن كنت مجتهداً وأنا مجتهد فلا إنكار في المسائل الاجتهادية .

وهذا طبعاً في المسائل التي لا قطع فيها من القرآن والسنة ، ولكل مجتهد نصيب ، فمن أصاب فله أجران ، ومن أخطأ فله أجر ، فلماذا التعصب للرأي ؟! لماذا تعتبر رأيك هو الحق وما عداه هو الضلال ؟! ما كان الصحابة ولا كان سلف الأمة هكذا .

لماذا الاصرار على التشديد والتعسير في كل الأمور ، وفي كل المواقف ؟! .

عندما بعث رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذاً إلى اليمن أوصاهما بتلك الوصية الجامعة : « يسِّرا ولاتعسِّرا ، وبشِّرا ولاتنفِّرا ، وتَطَاوعا ولاتختلفا ، بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » .

وحينما بال الأعرابي في المسجد ونهره الصحابة قال لهم سيد البشر ﷺ : « لاتَزْرِموه ، وصبُّوا على بوله ذَنوباً من ماء » ، حل المشكلة ذَنوبٌ من ماء.

ومعنى لا تزرموه : أي لا تقطعوا على الرجل بوله .

يجب أن نراعي تفاوت الناس في عقولهم ، وأماكنهم ، في علمهم ، في ثقافتهم ، في درجة إيمانهم ، وهناك إنسان يكفيك منه في أول دعوته الفرائض ويجتنب الكبائر ، وآخر تقول له : لا ، لا بد أن تجتنب الكبيرة والصغيرة ، فإن فعل قلت له : لا بد أن تجتنب الشبهات ، وهكذا .

أما أن تصر على أن تجعل الناس في منزلة واحدة في تفكيرهم ، في فهمهم، في قوة استيعابهم وهضمهم للأمور ، فإن هذا من عدم الفقه .

ومنذ مدة انتقد رجل من أهل العلم - غفر الله له - شعباً مسلماً في أوربا يقتَّل أبناؤه وتغتصب نساؤه من قبل أعداء الإسلام ، وقال : إن كثيراً منهم مسلمون بلا إسلام ، ولا يمكنك أن تفرق بين المسلم والكافر إلا حين يذهب المسلم للمسجد ، ويذهب الكافر للكنيسة .

أهذا كلام يقال ؟! ، ولمصلحة من يقال ؟! ، هل قام هذا العالم ومن هم على رأيه بالذهاب إلى تلك البلاد لإرشادهم وتعليمهم ؟! هل ساهم في إنشاء المدارس والمعاهد الإسلامية لهم ؟! .

هل ترجم كتاباً واحداً من الكتب الإسلامية التي يراها مفيدة إلى لغاتهم ؟! .

هل واساهم عندما كان علماؤهم يشنقون والمؤمنون منهم يعذَّبون في السجون ؟! .

لقد كانت منطقته هو بالذات في غاية الجهل والانحراف وكان الكثير عاكفين على تقديس الأشجار والقبور ، حتى هيأ الله لهم الدعاة من العلماء والأمراء الصالحين لإنقاذهم وتحويلهم إلى دين التوحيد .

ثم إن تلك البلاد لم تعط الحرية منذ عشرات السنين وبقيت مسيطَراً عليها من الشيوعية الكافرة لدرجة أن وجود مصحف مع أحدهم يؤدي لدخوله السجن لفترات طويلة ، بل اعدامه وإحراق بيته بمن فيه وبما فيه ، فلمَ هذه العجلة في تقرير الأمور ومهاجمة الآخرين ؟! .

ورحم الله العالم الجليل الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي الداعية الإسلامي وصاحب التفسير المعروف ، الذي وضع النقاط على الحروف في كتابه القيم « السياسة الشرعية » ، قال رحمه الله :

إن مجموع أصول الجهاد نوعان :

أحدهما : السعي الحثيث في تقوية المسلمين ، والسعي في إزالة الضغائن والعداوة بين أفرادهم وجماعاتهم وحكوماتهم ، بالدعايات والمواعظ المناسبة للحال ، وأن يكون صوت المسلمين واحداً يتكلم ، ويدعو إليه العلماء والكبراء وجميع طبقات الناس كلهم ينفقون لهذه الدعوة بحسب إمكانياتهم .

ومما يسهل هذا الأمر مع صعوبته في بادي الأمر أن يعلموا أن هذا السعي والدعوة إلى جمع المسلمين وإلى إصلاح ذات بينهم هو أفضل الأعمال ، وأنه أفضل من استغراق الزمان بالصوم والصلاة [النافلة] ، وأنه من أعظم وأجلِّ الجهاد في سبيل الله ، فإن أصل الجهاد الذي لايستقيم إلابه : اتفاق وارتباط المسلمين بالأخوة الدينية ارتباطاً وثيقاً .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ ، وبه يحصل أسباب النصر ، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ ﴾[1] .

فبين سبحانه أنه يجب على المؤمنين الارتباط بالأخوة الدينية ، وأن تحقيق هذا الأمر من مقتضيات الإيمان وشروطه ، وأنه كلما قوي إيمان العبد عرف مقدار نفع هذا الأمر ، وعمل واجتهد عليه ، وأن الله نصر نبيه بأمرين :

أمر سماوي ، وهو نصره الذي ينزله على المتقين القائمين بدينهم .

وأمر معنوي ، وهو اجتماع كلمة المسلمين وتآلف قلوبهم ، وحصول التحابب الذي يوجب لكل منهم أن يرى مصلحته ومصلحة إخوانه واحدة ، والغاية واحدة ، فالواجب على جميع طبقات الأمة لا سيما الرؤساء - رؤساء الدين ورؤساء الدنيا - أن يجاهدوا أنفسهم وإخوانهم المسلمين لتحقيق الأخوة الإيمانية ، وإذا ملكت طرقه وأبوابه التي تسهِّله وشعر كل واحد بما يجب عليه لربه ودينه ولإخوانه واستعانوا بالله ولم يخلدوا إلى الكسل والخَوَر واليأس أفلحوا .

وهل أخَّرَ المسلمين عن الأمم الأخرى إلا تفرقُهم وكسلهم وجبنهم وخورهم ويأسهم من القيام بشؤونهم حتى صاروا بذلك عالة على غيرهم . انتهى .

وقال رحمه الله أيضاً ص(٨-١٤) : وعلى المسلمين أيضاً أن لا يجعلوا الاختلاف بينهم في الأقوال والمذاهب وفي الملك والسياسات والأغراض الشخصية حائلاً يحول بينهم وبين تحقيق الأخوة الدينية والرابطة الإيمانية ،

---

(١) سورة الأنفال ، الآيات (٦٢،٦٣).

بل يجعلون الخلافات كلها والأغراض الجزئية تبعاً لهذا الأصل الكبير ، لأن مصلحة ذلك الكلية وما يطلبه دينهم منهم من الوحدة والألفة وما يمنعهم منه من التفرق المفكِّك لوحدتهم وقوتهم يأتي على ذلك أجمع ، ويقدَّم على كل شيء .

فالمصالح الكلية تندرج فيها الأغراض الجزئية ، فمتى صار الغرض الوحيد المصالح العامة تبعتها المصالح الخاصة .

ثم قال رحمه الله أيضاً ص(٢٩-٣٠) : ومن أهم أمور الجهاد - وخصوصاً في هذه الأوقات - التعاون بين المسلمين في جميع شؤونهم الدينية والسياسية والاقتصادية ، واتصال بعضهم ببعض في تحقيق ذلك ، لأن عددهم كثير ، وأعداؤهم جادُّون في الحيلولة بينهم في هذه الأمور ، وقد تفننوا في تفريقهم وأقاموا الحواجز والسدود في اتصال بعضهم ببعض ، حتى أوهنوا قواهم وساءت حالهم وهم مجدُّون في هذا الأمر .

فمن أكبر الجهاد السعي في الأسباب التي بها يتعارف المسلمون ويتفاهمون، حتى يعرفوا كيف يتعاونون على الحصول على حقوقهم ، ودفع المعتدين عنهم بكل وسيلة ، ولا ينبغي - إذا رأوا أنهم لا يدركون ، كما يريدون - أن يضعفوا عن بعض ما ينفعُهم ويحصلُ به الدفاع ، فمن جدَّ واجتهد واستعان بالله فلا بد له من النجاح . انتهى .

والمهم أن أغلب الجماعات الإسلامية شغلتهم الخلافات الجانبية فيما بينهم عن المهمات الأساسية التي أنشئت من أجلها هذه الحركات ، وبذلت لأجلها الجهود الجبارة ، وضحّى بسببها المخلصون من المنتسبين إليها .

إن عدم توحيد الصفوف بين الجماعات الإسلامية لهو حجر عثرة يبدِّد جلَّ طاقات المخلصين ، ويحرم الشعوب رحمة الإسلام وعدله ، فمن البديهي

أن الذي لايستطيع أن يتغلب على هواه وشهواته أو يحل مشكلاته لا يمكنه أن يحل مشكلات أمة أو شعب !.

إن المحنة أو المحن التي تمرُّ بها الأمة الإسلامية تحتاج من هؤلاء الناس أن يوقفوا خلافاتهم وتهجُّمهم على بعضهم البعض ، ويتعاونوا جميعاً للوقوف في وجه الأعداء الحقيقين لهذا الدين ، وأن يهبُّوا لنجدة بعضهم البعض كما يأمرهم دينهم وإسلامهم .

لقد حذر الله من التفرقة والاختلاف ، ونهى عنه أشد النهي فقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1].

وقال سبحانه : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾[2].

إن توحيد الصفوف ومراجعة المناهج والمواقف والأساليب وتشخيص الأمراض والتوقف عن الأخطاء هو الذي يفرضه الشرع والدين كما يفرضه الواقع المؤلم الذي نعيش فيه .

* * * * *

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٠٥).
(٢) سورة الأنفال ، الآية (٤٦).

الفصل الثامن
عنصرية الزواج

عنصرية الزواج

إن من المضحك المبكي حقاً أن تُطبَّق العنصرية حتى في الزواج ، فلا نزوج بناتنا إلا لمن يماثلنا في المرتبة أو الدرجة ، حتى لو كان فاسقاً أو جاهلاً أو ملحداً ! بل إن بعض الأسر التي تعتقد أنها أفضل أو أرقى تطالب بمهور فاحشة باهظة ، والرسول ﷺ يقول :« إذا أتاكم من ترضون دينه وخُلُقه فزوِّجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » ويقول عليه الصلاة والسلام : « تنكح المرأة لمالها ، ولجمالها ، ولحسبها ، فاظفر بذات الدين تربتْ يداك » .

الحكمة من تعدد الزوجات

إن عدد النساء في بعض مناطق الشرق الأقصى كالفلبين وغيرها يزيد على الرجال بأكثر من سبعة أضعاف ، ولابد من تسهيل عملية الزواج بين المسلمين في هذه المناطق وجميع المناطق الأخرى المشابهة .

وعلى كل مسلم لديه بنات أن يبحث لهن عن أزواج صالحين ، وخاصة بين طلبة العلم ، بل يجب تشجيع التعدد وعدم الاكتفاء بزوجة واحدة ، وذلك لصلاح المجتمع ، لأن بقاء أعداد كبيرة من النساء بدون زواج خطر عظيم ، والإسلام أباح التعدد لأهداف نبيلة ومقاصد سامية .

ومن هذه الأهداف معالجة الحالات الموجودة في بعض مناطق المسلمين بالشرق الأقصى والمناطق الأخرى ، لأن المسلم قد يتزوج بثانية وثالثة ورابعة للأهداف التالية :

١- معالجة حالة زيادة عدد النساء على الرجال عدة أضعاف .

٢- تمكين الرجل المسلم من الزواج بأخرى إذا كانت زوجته عقيماً لا تنجب الأطفال ، أو توقفت عن الإنجاب لسبب من الأسباب .

٣- تمكين الزوج من التعدد إذا أصيبت زوجته بمرض لا يرجى برؤه أو أن المرض يمنعها من الاتصال الجنسي .

٤- إذا كانت حالة الزوجة المرضية أو النفسية أو الجسدية لا تتحمل رغبة الزوج في الاتصال بها كلما أراد .

٥- الزواج بأخرى لمساعدة امرأة استشهد أو مات زوجها ، وذلك بنية إحصانها ، أو بنية كفالتها ورعاية أطفالها ، كما فعله الرسول ﷺ والصحابة الأكارم رضوان الله عليهم ، فقد خطب ﷺ أم سلمة رضي الله عنها ولديها أبناء ذكور وإناث ، وعندما أخبرته بأنها امرأة مُصْبِية - أي كثيرة الصبية - وكبيرة السن وعندها غيرة قال لها رسول الله ﷺ : « أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عنك ، وأما ماذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك ، وأما ماذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي »[1].

٦- إذا وقع بحب امرأة أخرى ، لأن الاتصال بها عن طريق غير مشروع محرم في الإسلام .

٧- إذا كانت مقدرته الجنسية تتطلب التعدد ولا تكفي واحدة أو أكثر .

٨- لتوطيد أواصر المحبة وإزالة العداء والنفور مع الآخرين وتقوية أواصر القربى والأرحام .

وفي جميع هذه الحالات تبقى للزوجة الأولى مكانتها واحترامها ولا يعنى

---

(١) رواه الإمام أحمد في « مسنده » عن أم سلمة .

هذا طلاقها أو فراقها ، بل قد يكون الهدف أحياناً مساعدة الزوجة الأولى في مرضها أو مشكلتها .

والفتاة التي تُخطب لتتزوج من رجل لديه زوجة أو أكثر من حقها أن ترفض الزواج سواء كان خاطبها عزبا أو لديه عدة زوجات ، وليس من حق والدها أو أي فرد من عائلتها جبرها على شخصٍ معين ، وإلا اعتبر العقد باطلاً خاصة إذا كانت بالغة رشيدة ، فهي التي تقدر مصلحتها حسب ظروفها أو أوضاعها ، ومن يتقدم لها من الخطاب فهي تختار ما تعتقد أنه الأفضل والأنسب لها ، ولكن ليس من حقها أن تتزوج من فاسق أو ملحد أو من شخص لا يصلي أو مدمن على المخدرات أو المسكرات ، ومن حق ولي أمرها في هذه الحالة أن يرفض إجراء العقد .

كذلك من حق الزوجة طلب الانفصال عن زوجها إذا كان يتصف ببعض هذه الصفات ، وحتى لو لم يكن عنده شيء منها ولكنها كرهته ونفرت منه ففي استطاعتها طلب الانفصال بعد أن تعيد له ما أخذت منه ، وأعتقد شخصياً أن الرجل الذي لديه كرامة ومخافة لله وتطلب منه زوجته الطلاق بسبب كرهها له ونفورها منه وإصرارها على ذلك ، عليه أن يسرحها فوراً لأن بقاءها تعذيب للنفس البشرية بدون حق ، فإن لم يفعل فهو آثم عند الله ، لأن الهدف من الزواج سعادة الزوجين وليس شقاء أحدهما أو كليهما .

والتعدد في الحقيقة هو لمصلحة النساء قبل الرجال ، لأن بقاء أعداد كبيرة من النساء بدون زواج أمر خطير للغاية ، وأيهما أفضل للمرأة : أن تبقى بدون زواج محرومة من الأطفال أم تتزوج برجل لديه زوجة أو أكثر ! .

إن هؤلاء الذين يهاجمون التعدد في غاية الجهل والغباء ، لأن المرأة غير مجبورة على أن تتزوج شخصاً محدداً أو معيناً بل هي حرة في اختيار من تريد

ومن تحب ممن يتقدمون لها ، فإذا لم يتقدم لها شاب أعزب لسبب من الأسباب إما لكبر سنها أو لشكلها أو لسبب آخر فهل تحرم نفسها من الزواج طيلة حياتها .

ولهذا فإن الشارع أعطاها الحق في القبول أو الرفض لأنها هي التي تقدر مصلحتها وتختار أفضل من يتقدمون لها ، فهي تقدر شخصيتها بالنسبة لسنها وجمالها ومكانتها وتقواها .

وكذلك الرجل ، فهو لا يستطيع أن يجبر أحداً على الزواج منه ، ولهذا فهو يبحث عمن تقبله زوجاً سواء كان شاباً أو كهلاً غنياً أو فقيراً ، وكذلك والد الفتاة فهو لايستطيع إجبار ابنته على الزواج سن شخص محدد أو معين ، ولكن من حقه أن يرفض الموافقة على زواج ابنته من فاسق أو ملحد .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها »[١] .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال :« من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلاً ، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً ، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءةً ، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلاأن يغضَّ بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه »[٢] .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزوجوا النساء لحسنهن ، فعسى حسنهن أن يُرْدِيَهنَّ ، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل »[٣] .

---

(١) رواه ابن حبان بإسناد صحيح « المشكاة » رقم (١١٠٥).
(٢) رواه الطبراني في « الأوسط ».
(٣) رواه ابن ماجه وفيه ضعف .

لمن يزوج الرجل الصالح بناته

وكان العلماء والصلحاء في الماضي يبحثون لبناتهم عن أزواج من طلبة العلم الصالحين ويزوجونهم بدريهمات قليلة .

سيد التابعين سعيد بن المسيب يزوج ابنته على درهمين

ومن الأمثلة على حرص العلماء والصالحين في تزويج بناتهم للشاب الصالح : ماجاء في قصة سيد التابعين العالم الجليل سعيد بن المسيَّب ، الذي جمع بين العلم والعبادة والتقوى والورع رضي الله عنه .

قال أبو وداعة : كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدني أياماً ، فلما جئته قال : أين كنتَ ؟ قلت : توفيت أهلي فاشتغلت بها . فقال : هلا أخبرتَنا فشهدناها . ولما أردت أن أقوم قال : هل أحدثتَ امرأة غيرها ؟ فقلت : يرحمك الله ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟! قال : إن أنا فعلت تفعل ؟ قال : نعم .

ثم حمد الله وصلى على نبيه ﷺ وزوَّجني ابنته على درهمين . . . وفي مساء ذلك اليوم وإذا بالباب يقرع فقلت : من هذا ؟ قال : سعيد . . ففكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب ، فإنه لم يُرَ منذ أربعين سنة إلا مابين بيته والمسجد . فقمت وفتحت وإذا بسعيد بن المسيب ، فظننت أنه بدا له - أي عدل عن تزويج ابنته مني - فقلت : فما تأمرني ؟ قال : رأيتك رجلاً عزباً قد تزوجتَ ، فكرهت أن تبيت الليلة وحدك ، وهذه امرأتك . فإذا هي قائمة خلفه في طوله ، فدفعها في الباب وردَّ الباب ! .

أبو الدرداء يرفض تزويج ابنته من ابن أمير المؤمنين

وورد أن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان خطب إلى أبي الدرداء ابنته ، فردَّه ورفض أن يزوجه ، ويزيد ولي العهد وأبوه أمير المؤمنين ، فقال رجل من جلساء يزيد : أصلحك الله تأذن لي أن أتزوجها قال : أُغْرُبْ ويلك . قال:

فأْذن لي أصلحك الله . قال : نعم . قال : فخطبها فأنكحها أبو الدرداء الرجلَ ، قال : فسار ذلك في الناس : أن يزيدَ خطب إلى أبي الدرداء فردَّه، وخطب إليه رجل من ضعفاء المسلمين فأنكحه !! قال : فقال أبو الدرداء : إني نظرت للدرداء ، ما ظنكم بالدرداء إذا قامتْ على رأسها الخصيان ، ونظرت في بيوت يلتمع فيها بصرها ، أين دينها منها يومئذ ؟[١].

لماذا يرفض الآباء تزويج بناتهم

وبعض الآباء يرفض تزويج ابنته حتى لو كانت ابنته موافقة على الزواج من خاطبها أو راغبة فيه ، أو هما متحابان ، فإن أباها يرفض لاعتقاده أن ذلك الشاب لا يماثل عائلته في المنزلة ، وقد يؤدي الأمر إلى قتل الشاب أو قتل الفتاة بدون داعٍ أو مبرر ، مع أن الأفضل تزويجهما من بعضهما قبل حدوث ما يسيء ، وقبل حدوث فاحشة بينهما ، أو هروبهما أو زواجهما بدون موافقة الأهل .

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يُرَ للمتحابَّيْنِ مثلُ النكاح »[٢].

الزواج بين مسلمي الشرق الأقصى

وفي تلك البلاد رغم كثرة النساء في تلك البلاد وزيادة عددهن عن عدد الرجال فإن المسلمين هناك متمسكون بهذه العادات ، ونتيجة لذلك فإن هناك أعداداً كبيرة من النساء بدون زواج .

وهناك أعداد من الشباب يتزوج من غير المسلمات لعدم وجود المهر ، مما أدى في بعض الأسر إلى وجود أبناء غير مسلمين نتيجة تأثرهم بوالدتهم التي أصرت على التمسك بنصرانيتها !! بل إن بعضهم يرفض أن يزوج ابنته

---

(١) « حلية الأولياء » ٢:٢١٥.

(٢) رواه ابن ماجه ، انظر « المشكاة » رقم (١١٢٥).

برجل صالح لالسبب سوى أن أمه من معتنقي الإسلام ، أو أن الشاب نفسه من معتنقي الإسلام ، مما يدل على الجهل الكامل بالإسلام .

فهذا سيد البشر محمد ﷺ يتزوج صفية أم المؤمنين رضي الله عنها - بعد أن سُبيت وقُتل قومها وزوجها وأبوها وجماعتها ، لغدرهم ، وأصلها رضي الله عنها من اليهود - وجَعَل عتقها صداقها .

فعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه أعتق صفية، وجعل عتقها صداقها . لفظ مسلم . وفي رواية : وأصدقها عتقها[١] .

وكذلك تزوج مارية القبطية ، أُهديت له من المقوقس ملك مصر في ذلك الزمن ، وأنجب منها ابنه إبراهيم عليه السلام الذي توفي في فترة الرضاعة .

وعن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « من أعتق جاريته ثم تزوجها فله أجران »[٢] .

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يُؤتَون أجرهم مرتين : رجل كانت له أَمَةٌ فأدَّبها فأحسن أدبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها وتزوجها . وعبدٌ يؤدي حقَّ الله وحق مواليه . ومؤمن أهل الكتاب »[٣] .

لماذا يرفضون تزويج معتنقي الإسلام

أما هؤلاء الذين يرفضون أن يزوجوا بناتهم لمعتنقي الإسلام ، أو يتزوجوا منهم ، أو من كان أحد والديه من معتنقي الإسلام : فإنهم على جهل عظيم، لأنهم هم أنفسهم كان أجدادهم في وقت ما غير مسلمين، فكل

---

(١) « المشكاة » رقم (١١١٠).
(٢) رواه النسائي .
(٣) رواه النسائي ، كما في « المشكاة » رقم (١٣١٤).

إنسان أصله أو أصل أجداده في وقت ما من الزمن الغابر كان غير مسلم ، سواء كان أعجمياً أو عربياً .

عن أنس رضي الله عنه قال : تزوج أبو طلحة وهو من كبار الصحابة رضي الله عنه أمَّ سُلَيم رضي الله عنها ، فكان صداق مابينهما الإسلام .

أسلمت أم سليم قبل أبي طلحة ، فخطبها وهو مشرك ، فقالت : إني قد أسلمتُ، فإن أسلمتَ تزوجتُك. فأسلم، فكان الإسلام صداقَ مابينهما[1] .

وقد ورد أن عبدالرحمن بن عوف الصحابي الجليل والقرشي وأحد العشرة المبشرين بالجنة زوج أخته القرشية من سيدنا بلال بن رباح سيد المؤذنين رضي الله عنهم .

وورد أن بلالاً ذهب ليخطب لنفسه ولأخيه فقال : أنا بلال بن رباح، كنت ضالاً فهداني الله ، وكنت عبداً فأعتقني الله ، فإن تزوجوني فالحمد لله، وإلا فسبحان الله .

وعندما استأذنوا رسول الله ﷺ قال : « أين أنتم من بلال ؟! » .

فكأن هؤلاء الجهلة الذين يرفضون تزويج بناتهم من معتنقي الإسلام، أو الزواج من معتنقات الإسلام ، يعتقدون أنهم أفضل من الصحابة ، لأن الصحابة وهم أفضل البشر بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم كان أغلبهم مشركين ، بل إن بعضهم أو أغلبهم حارب الإسلام ، وقَتَل من المسلمين الكثير ، ثم هداه الله للإسلام ، منهم سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وعمرو بن العاصي ، وكثيرون ، وجميع العلماء يعرفون ذلك .

---

(١) « المشكاة » رقم (١١٣٩).

وقد مر معنا أن رسول الله ﷺ أعتق زيد بن حارثة وزوَّجه بنت عمته زينب بنت جحش ، ثم طلقها زيد ، فتزوجها رسول الله ﷺ بأمر الله سبحانه ، لإلغاء عادة التبني التي كانت موجودة بالجاهلية .

وورد أن الرسول ﷺ أمر بني بياضة أن يزوِّجوا أبا هند وكان من الموالي ، ويتزوجوا منه ، ولما كانت العنصرية الجاهلية لاتزال سائدة وآثارها باقية قالوا للرسول ﷺ : أنزوج بناتنا موالينا ؟ فأنزل الله هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ردعاً للتفرقة والتفاخر بالأنساب ، فإن المدار في المفاضلة إنما هو التقوى فقط ، فالجميع أبناء رجل واحد وامرأة واحدة « ياأيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود ، إلا بالتقوى ألا هل بلغت ؟ » قالوا : نعم . قال : « ليبلِّغ الشاهد الغائب » .

الزواج من الأصيلة لإنجاب الأصيلين

ومن الطريف أن بعضهم يتزوج الدميمة أو المسنة أو الجاهلة لهدف واحد هو أن هذه المرأة حسب اعتقاده أصيلة ، وبالتالي فهو سينجب منها الأبناء الأصيلين فيفتخر بهم ويستعلي بهم على الآخرين ، وقد تكون تلك المرأة راعية غنم أو إبل ولا تفقه من دينها شيئاً .

* * * * *

الفصل التاسع
أسباب ودوافع العنصرية

كيف يربي الناس أبناءهم على العنصرية والعصبية

إن من أسباب التفرقة التي تفرق بين الناس والأسر : البغضاء وحب الذات والرغبة في التفاضل ، وبعض الجهلة يغذّون هذه البغضاء في قلوب أبنائهم وإخوانهم وعائلاتهم ، ويستدعيهم على أساس عنصري ليساندوه ويعاونوه على الظلم والطغيان والباطل . يعلمهم التفرقة والتفاضل بين الأسر ويقنعهم بأن أسرته عريقة وأصيلة وذات ماضٍ عظيم ، وأن جده كان سلطاناً وكان مسيطراً وكان وكان !! ويخبرهم بالعداء الموجود بين الأسر والقبائل ، ويذكِّرهم كيف تقاتلت الأسر والقبائل في الماضي والحاضر ، وقد قتلوا بعضهم البعض في سبيل القبيلة ، وماذا فعل بنو فلان ببني فلان، وماموقف هذه الأسرة وهذه القبيلة منا ومن أصدقائنا ومن أعدائنا !! .

وهذا كله جاهلي وثني منافٍ للكتاب والسنة ، بل هو حرب وجريمة ضد الإسلام والمسلمين ! .

الحسد من الأسباب الرئيسية للعنصرية

ومن أسباب التفرقة : الحسد ، والعياذ بالله . يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[1] والحاسد أساء الأدب مع الله ، لأنه لم يرض بما وهب الله سبحانه للمحسود ، و« الحسد يأكل

---

(١) سورة النساء ، آية (٥٤).

الحسنات كما تأكل النار الحطب »[1] كما قال ﷺ ، ويدمّر الصالحات ، ويزيد البغضاء والعداء ، ويزيل الإخاء والمحبة بين الناس ، وهو كثير في الناس ، خاصة بين الذين يحبون الدنيا ويفنون حياتهم في سبيل المال وجمعه من حلال وحرام ! ثم يذهبون ويتركونه لغيرهم ، ويكون عليهم حسرة وندامة .

من أسباب العصبية والعنصرية حب الدنيا

حب الدنيا هو الذي وقعنا فيه جميعاً إلا من رحم الله ، و« حب الدنيا رأس كل خطيئة » .

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[2] .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « هل لك من مالك إلا ماأكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدقتَ فأمضيت » . رواه مسلم .

واعلم علم اليقين أن مِن أحسن ما تقدمه العمل الصالح ، وأن كلَّ شيء سوف يزول إلا ما أبقاه العبد لآخرته .

يقول عليه الصلاة والسلام : « لينتهين أقوامٌ يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم ، أو ليكونُنَّ أهونَ على الله من الجُعَل الذي يُدَهْدِه الخُرْءَ بأنفه » .

---

(١) رواه أبو داود والبيهقي ، ورواه ابن ماجه من حديث أنس . انظر الترغيب والترهيب ج٣ ص٥٤٦-٥٤٧ .

(٢) سورة الحديد ، الآية (٢٠).

والجُعَل والجُعْلان يشبه الخنفساء يأكل الغائط ويخزنه .

وللعنصرية أسباب ودوافع أخرى ، منها : حب الظهور والتفاخر والتكبر على الآخرين . ومنها : الجهل بالإسلام وعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ذلك لأن العادات والتقاليد في عدد من مناطق الشرق الأقصى ، تمنع أو تحرِّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتعتبر انتقاد الشخص لآخر من الأمور المنافية للأخلاق وللآداب ، وإذا قام شخص بانتقاد أخيه ، أو توجيه النصح له اعتبر ذلك إهانة كبيرة ، وترتَّب عليها عداء قد يؤدي إلى الضرب أو القتل، أو تدبير المكائد له ظاهراً أو باطناً .

ولهذا فإن العلماء هناك يحجمون عن تبيين وإظهار الحق لأي شخص بطريق مباشر ، لأن هذا خطر على حياتهم ، وسبيلُهم الوحيد هو خطبة الجمعة أو المحاضرات والبيانات التي تلقى من العلماء ، ويوضَّح الأمر بصيغة عامة ولا يوجَّه لأي فئة أو فرد .

وبسبب هذا الوضع انتشر هناك سفك الدماء والقتل والخطف ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وأصبح سفك دم المسلم أهون من قتل ذبابة ، وأصبح الناس أعداء لبعض ، وأغلب الناس لايستطيعون أن يذهبوا إلى قرية أو بلدة غير بلدتهم ، وانتشر الخوف والرعب بين الناس ، وأصبح أغلب الأفراد يحملون مسدَّسات في جيوبهم حتى أثناء الصلاة يضعونها أمامهم ، خوفاً من الانتقام !! وذلك لأن أحد جماعتهم قتل آخر من جماعة أخرى .

وحدثني بعض العلماء منهم أن أخاه وهو من العلماء الفضلاء ، أتى المسجد ليصلي صلاة الفجر جماعة ، وأثناء قيامه بالصلاة جماعةً قام أحدهم بإطلاق الرصاص عليه ! واختفى القاتل ! وساعد على عدم معرفته انتشار الظلام وعدم وجود النور الكافي بالمسجد ، مع أن القتيل من العلماء

الصالحين وليس له أعداء إطلاقاً ، ورغم البحث والتحري من قِبَل أهله وجماعته فلم يتوصلوا لمعرفة الجاني ! ومن المحتمل أن يكون القاتل قد قصد في القتل رجلاً آخر فخيِّل إليه أن هذا العالم هو مبتغاه ! .

وهكذا خسر المجتمع الإسلامي عالماً صالحاً بدون سبب أو مبرر ، والعالم العابد يكون أفضل من مئات من الجهلة الذين لايعرفون شيئاً عن الإسلام .

العنصرية والعصبية من الأسباب الرئيسية لانهيار الدول الإسلامية

لقد انهارت كثير من الدول بسبب العنصرية ، فالأندلس مثلاً ، تلك الدولة العظيمة التي وصلت جيوشها إلى حدود باريس بإيمانها وجهادها وتماسكها ووحدتها ، وأصبحت دولة عظيمة ، هذه الدولة عندما تركت مبادىء الإسلام العظيمة ، مبدأ الأخوة الإسلامية ، والمحبة الإسلامية ، وحلَّت محلها العنصرية والعصبية ، وتفرقت بسبب ذلك إلى ولايات كثيرة، سلط الله عليها النصارى الأسبان فقضوا عليهم وذبحوهم ذبحاً ! وآثار هذه الأمة الإسلامية لا تزال حتى الآن في اسبانيا بل لا تزال كتب فقهائها وعلمائها حتى يومنا هذا .

والدولة العثمانية التي فتحت مناطق شاسعة من أوروبا باسم الإسلام وبقيت أكثر من ستمائة عام ، وكانت أوروبا بأكملها ترتجف رعباً وخوفاً منها ، وذلك بسبب تمسكها بعقيدة الإسلام والأخوة الإيمانية التي كانت تطبقها ، والوحدة الإسلامية التي كانت تنشدها ، هذه الدولة العظيمة ، عندما بدأت تتجه للوطنية والقومية التركية والدعوة للطورانية وتفضل نفسها على الأجناس الأخرى أبادها الله وسلط عليها الأعداء الأوربيين ، فأبيدت وانطفأت شعلتها وأعلنت إلحادها بقيادة الماسوني أتاتورك ، وقد بدأ شعبها الآن يعود للإسلام ، وإلى الأخوة الإسلامية ، ولاتزال آثار العثمانيين الأتقياء حتى الآن في كافة المناطق التي دخلتها ، ومنها ألبانيا في أوروبا التي

أغلب سكانها من المسلمين والبوسنة والهرسك الذي يذبح فيها المسلمون من قبل النصارى والصرب .

فالفضل في دخول الإسلام لهذه المناطق يعود للعثمانيين المؤمنين .

وهناك دول وشعوب كثيرة في كل مكان من العالم ، من الأسباب الرئيسية لزوالها وفنائها هو العنصرية والعصبية والتفاخر بالأصل والنسب، وبالتالي فقدان المحبة الإسلامية ، والأخوة الإسلامية ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[1] .

مراحل تطور العنصرية والعصبية

العنصرية تبدأ عادة بشعورٍ بسيط ، وبأشياء صغيرة منها : الادعاء بالجنس الأفضل أو الجنس الأصيل ، ومثل : نحن لانتزوج من بني فلان لأنهم أقل منا منزلة ، أو أنهم ليسوا أحراراً ، أو أن أجدادهم أو بعض أجدادهم عبيد أو موالي !! وأصحاب هذه الأفكار من المسلمين وقد يكونون من الملتزمين وأتقياء في دينهم ، يطبقون الكثير من تعاليم الإسلام ، محافظين على الصلاة في المساجد ، بل إن بعضهم من الدعاة إلى الله ، وبعضهم من العلماء ، ولذلك فإن عنصريتهم محدودة لاتضر الآخرين بصورة مباشرة ، لاعتقادهم جهلاً بأن مبدأ التفوق أو التفاضل أو الجنس الأصيل لا علاقة له بالدين ، وهكذا يبدؤون بالسقوط في هذا الاتجاه الخطير ، ويسيئون إلى أنفسهم ودينهم وأمتهم من حيث لا يشعرون .

وبالنظر لتمسكهم بكثير من تعاليم الإسلام فإن هذه العنصرية والعصبية تبقى مقيدة ومسيطراً عليها ، بحيث لا تؤدي لتفاقم العداء والحقد ، إلا أن

---

(١) سورة الشورى ، الآية (٤٢).

هذا الجيل قد ينقرض وتأتي أجيال أخرى تتطور عنصريتهم وقبليتهم أو شعوبيتهم إلى ماهو أسوأ وأخطر بحيث لا يمكن تقييدها أو السيطرة عليها بعد ذلك .

ومن أسباب تطور العنصرية إلى درجة خطيرة :

١- استعمار الدول الكافرة وإلغاء التعليم الإسلامي كلياً أو جزئياً وفرض الأفكار العنصرية والقومية .

٢- أنظمة التعليم الخالية من الروح الإسلامي والمحبة الإسلامية ووحدة الأمة الإسلامية ، وإحلال تاريخ غير المسلمين محلها ، أو تمجيد تاريخ ذلك الشعب وعاداته وتقاليده على حساب الإسلام ، أو تأجيج العنصرية في النفوس بالشعور الوطني ، وتقديس الوطن ، وفداء الوطن ، والعمل للوطن وللأرض وللتراب ، وكذلك الشعور القومي وتقديس الزعيم الرئيس والعَلَم والشعب والجنس والأرض والعرق ! .

٣- فقدان التربية الإسلامية في البيت والمدرسة بحيث ينشأ الطفل أو الفتاة على أساس عنصري أو قومي أو شعوبي أو قبلي أو عرقي ، سواء ذلك من قِبَل والديه اللذين يفتخران دوماً أمامه بقبيلتهما وبجنسهما وأنهما الأفضل والأحسن ، وأن جدهم كان كذا وأن جماعتهم انتصروا على بني فلان ، وأن قبيلتهم فعلت كذا ، وسحقت كذا وقتلت كذا ، وافتخرت بكذا ، وأن بني فلان وبني فلان ليسوا لنا بأكفاء ، وليسوا من مستوانا ، إلى آخر هذا الهراء .

٤- الأجهزة الإعلامية سواء كانت مرئية أو مسموعة أو مقروءة فهي تؤكد تفوُّق الجنس والشعب والعرق والقبيلة والوطن .

٥- تقصير العلماء والكتاب والتربويين في محاربة هذا المرض في تلك البلدان ، وتبيان حكم الإسلام بأسلوب مفصل واضح .

٦- إصدار الأنظمة التي تساعد على زيادة الشعور بالعنصرية سواء كانت عنصرية الجنس أو الشعب أو القبيلة أو القومية .

٧- الجهل بالإسلام وحكم الإسلام ، ومدى احتقار الإسلام للعنصريين والقوميين والعرقيين والشعوبيين .

٨- الشعور الطبيعي لدى البشر في الرغبة في التفوق والاستعلاء ، وأن يكونوا مميزين عن الآخرين وأن ينظر الناس إليهم بإعجاب أكثر أو باحترام أكثر إلا إذا كان لديهم دين وإيمان يمنعهم من الاستمرار في هذا الانحراف .

٩- وجود زعماء أو قادة أو رؤساء عنصريين يقودون شعوبهم أو قبائلهم أو أجناسهم إلى مزيد من العنصرية تمجيداً لأشخاصهم ومذاهبهم أو يجدون أن من مصلحتهم زيادة العنصرية لإلهاء شعوبهم عما هو أهم وأفضل .

١٠- عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وهكذا تتطور العنصرية إلى ما هو أسوأ فيزداد استعلاؤهم وتفاضلهم واستكبارهم ، ثم يتطور الأمر إلى عداء وكره وحقد مكبوت في النفس ، وقد يؤدي ذلك إلى درجة خطيرة ، فيصل إلى الاعتداء على الآخرين بالضرب أو القتل أو سفك الدماء ، وقد تأتي ظروف وأوضاع ينفخ فيها الشيطان من وسوسته وكيده في قلوبهم وعقولهم ، فتبدأ الرغبة في سحق الآخرين وتدميرهم أو الحد من نفوذهم ، فتبدأ الاعتداءات الفردية ثم الجماعية على الآخرين فتسفك الدماء ، ويردُّ العنصريون الآخرون بنفس الطريقة فيزداد الأمر سوءاً ، ثم يتطور إلى مذابح جماعية قد يذهب ضحيتها العشرات أو المئات .

وقد يساعد على تفاقم الوضع ظروف اقتصادية أو سياسية أو أمنية فيزداد الأمر خطورة ، وقد يتدخل آخرون من خارج المنطقة أو داخلها فيمد أحد

الجانبين بما يحتاجه من وسائل القتل والفناء فتزداد الرغبة في سحق الآخرين ، ويخيل إليهم أن الفوز والنصر أصبح قريباً ، فيزداد القتال ضراوةً وشدة ، ويُقتل الناس في سبيل شيطان العنصرية .

وهكذا يفقد الزمام وتستمر المذابح ويتعذر على عقلاء وحكماء كل طرف إيقاف هذه الفتنة ، لأن كل طرف يريد أن ينتقم وأن يحدث دماراً أكبر أو خسارة بشرية أو غير بشرية لدى الطرف الآخر بحيث تكون مضاعفة لخسائره ، وقد يساعد على تطور الموقف وخطورته الأُسَر والأقرباء الذين فقدوا أبناءهم وشبابهم أو بيوتهم وثرواتهم ، حيث تمكن الغضب وحب الانتقام من الآخرين لدرجة يصعب إيقافها أو تهدئتها ! .

وقد تتوقف العنصرية أو تتلاشى أو تتضاءل نتيجة اهتمام أهلها بالدين والعقيدة والبحث عن الحكم الشرعي ، فيرتدع البعض ويتوقفون عن جاهليتهم بل إن بعضهم يصبح من الصالحين ، حيث يبذل جهده وطاقته لنشر المحبة والأخوة الإسلامية بين أفراد قبيلته والقبائل الأخرى ، وإقناعهم بالتوقف عن هذا الانحطاط الفكري والخلقي وهذا الاتجاه المدمر للقبيلة والأمة .

وقد تتوقف العنصرية أيضاً وتتلاشى نتيجة قيام العلماء المخلصين بواجبهم في محاربة هذا الضلال والانحراف والجهر بالحق دون خوف أو وَجَل ، أو تقوم الدولة أو ولي الأمر أو الجماعات الإسلامية في البلدان ذات الأقليات الإسلامية بمحاربة هذا الاتجاه وبذل الجهود لإيقاف هذه الجاهلية الخطيرة .

ومن أسباب تفاقم العنصرية إهمال كثير من العلماء الحديث والكتابة عن هذا الموضوع الخطير وعدم محاولة محاربة العنصرية بالقدر الذي يستحق ، بل إن كثيراً منهم ساعد على انتشار العنصرية وتقويتها بأساليب وطرق مختلفة

، وبطرق مباشرة وغير مباشرة ، وبعضهم كان يعتقد أن الحديث عن ذلك يؤدي إلى الفتنة مع أن العكس هو الصحيح ، والساكت عن الحق شيطان أخرس .

وبعضهم لم يستطع إيضاح الحق في هذه المسألة لأن الآخرين كانوا يعتقدون أن نسبه أو عنصره أقل منهم ، كأن يكون أجداده السابقون موالي أو عبيداً أو عتقاء ،فهو يخشى إن تكلم ودعا إلى إزالة العنصرية من نفوس الناس : أن يتهم بمحاولة رفع عار استرقاق أجداده عن نفسه ، فلهذا يؤثر السكوت عن الكلام .

وهذا خطأ كبير ، لأن العبد هو الذي يباع ويشترى ، فإذا أعتق أصبح حراً ، وله كامل الحقوق التي للأحرار ، ولا يشترط أن يكون العبد المملوك أسود اللون ، فقد يكون العبد المملوك أسود ، أو أبيض ، أو أحمر لأن مصدر العبيد هو الحروب بين الدول ، حيث كان النظام العالمي هو استعباد الشعوب المغلوبة ، وأتى الإسلام والدول في العالم أجمع ومنها أوروبا تطبق نظام الرق في الحروب .

* * * * *

الفصل العاشر
مدى عنصرية المسلمين مع غير المسلمين

الدين الإسلامي يأمر أتباعه بالعدل والإحسان مع جميع أنواع البشر مهما اختلفت أجناسهم وعقائدهم ، وسواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين أو الوثنيين .

يقول سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ ﴾[2] .

ويقول سبحانه آمراً رسوله ﷺ أن يقول لأهل الكتاب : ﴿ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ﴾[3] .

فالمسلمون جميعاً ليس بينهم وبين غيرهم من الأديان الأخرى قبل تحريفها أحقاد أو عداوة ، كما حدث في الأمم السابقة ، فقد كفَّر اليهود نبي الله عيسى وخططوا لصلبه ، واضطهدوا أتباعه وعذبوهم .

وآمن النصارى بعيسى ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ واضطهدوا أتباعه على مدى التاريخ في جميع أنحاء العالم : في أسبانيا ، وفي الحروب الصليبية ، وفي فلسطين ، وأرتيريا ، والبوسنة والهرسك ، ومناطق كثيرة أخرى في آسيا ،

---

(١) سورة المائدة ، آية (٨).
(٢) سورة النساء ، آية (٥٨).
(٣) سورة الشورى ، آية (١٥).

وأفريقيا ، والجمهوريات السوفيتية ، والصين .

أما الأمة الإسلامية فإن من عقيدتها الإيمان بالأنبياء والرسل جميعاً ، كما علَّم الله تعالى المؤمنين بقوله : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾، ودعت جميع البشرية لسماحة الإسلام بلا أحقاد ولا ضغائن ولا عصبيات .

وهناك نماذج وأدلة كثيرة جداً من التاريخ الإسلامي في الحروب مثلاً : لا يجوز قتل الأطفال والنساء وكبار السن والفلاحين وغيرهم من أهل المدن من الذين لا يشتركون عادة في القتال ، وكذلك يحرم قتل القسيسين والرهبان المتفرغين للعبادة من أهل الكتاب ، إلا إذا شاركوا في القتال ضد المسلمين.

كما يحرم على الجندي المسلم الغلول وهو أن يأخذ شيئاً لنفسه أو يسرق من الغنائم ، أو أن يعتدي على النساء أو ينتهك حرماتهن وأعراضهن .

أما بالنسبة لغير المسلمين الذين يقيمون في البلاد الإسلامية أو ما يسمى بأهل الذمة أو المعاهدين فلا يجوز ظلمهم أو الاعتداء عليهم بل لا يجوز عند الأحناف إهراق خمورهم ومسكراتهم ويغرم من فعل ذلك ، وكذلك التدخل في مذاهبهم ، أو اغتصاب ممتلكاتهم وأموالهم ، أو الاعتداء على معابدهم وكنائسهم .

يقول عليه الصلاة والسلام : « من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة »[١].

كذلك في حالة فقرهم وعجزهم يجرى لهم عطاء من بيت المال[٢] .

وأبصر عمر رضي الله عنه شيخاً كبيراً من أهل الذمة يسأل ، فقال له : ما لك ؟ قال : ليس لي مال والجزية تؤخذ مني ، فأسقط عنه الجزية وأجرى

---

(١) رواه أبو داود .

(٢) كتاب الخراج ص٨٥ .

له من بيت المال ، وكتب إلى أمينه : « ما أنصفناه والله ، أكلنا شبيبته ثم نأخذ منه الجزية في كبره »[١] .

وفي رحلة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه إلى دمشق أيضاً أمر بعيالة المقعدين من أهل الذمة من بيت المال[٢] .

بالإضافة إلى أن الشريعة الإسلامية أعفتهم من الخدمة العسكرية والإشتراك مع المسلمين في حروبهم .

وجاء في فتوح البلدان أن الوليد بن عبد الملك الأموي أخذ كنيسة يوحنا من النصارى قهراً وأدخلها في المسجد . فلما استخلف عمر بن عبد العزيز شكا النصارى إليه ما فعل الوليد بهم في كنيستهم فكتب إلى عامله يأمره برد ما زاده في المسجد عليهم[٣] .

وأجلى الوليد بن يزيد من كان بقبرص من الذميين وأرسلهم إلى الشام مخافة حملة الروم ، فغضب على ذلك الفقهاء وعامة المسلمين في عصره ، فلما ردهم يزيد بن الوليد إلى قبرص استحسنه الناس وعدوه من العدل .

وأما بالنسبة للأسرى : فيجب تقديم أفضل الطعام المتوفر لهم ، كما كان يفعل المسلمون في حروبهم ، وتقديم الوسائل المتوفرة لحمايتهم من الحر أو البرد .

يقول سبحانه في كتابه العظيم في وصف الفئات المؤمنة من هذه الأمة الإسلامية : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾، ولهذا كانوا يقدمون أفضل مالديهم من طعام للأسرى ويحرمون أنفسهم منه إلى أن يتم

---

(١) كتاب الخراج ص٨٣ ، و« فتح القدير » ج٤ص٣٧٣ .
(٢) فتوح البلدان للبلاذري طبع أوربا ص١٢٩ .
(٣) المصدر السابق ص١٣٢ .

النظر في أمرهم ومبادلتهم بأسرى المسلمين .

كذلك الرحمة بالنساء والأطفال من غير المسلمين ورعايتهم والاهتمام بهم، حتى إنه يحقُّ للسيدة المسلمة الحرة أن تتزوج عبدها إذا أعتقته واعتنق الإسلام، وكذلك يحق للسيد أن يتزوج من جواريه إذا شاء .

تحريم قتل غير المسلمين

تحدث أحياناً في بعض البلدان الإسلامية اعتداءات على غير المسلمين ، فيقوم بعض الأشقياء بقتل غير المسلمين من النساء والرجال بدون سبب مبرر أو واضح سوى عدم رغبتهم ببقائهم ووجودهم بين المسلمين ، وهذا محرم شرعاً إلا إذا ارتكب غير المسلم جريمة يستحق عليها القتل .

وبعض هؤلاء أتوا للعمل في مناطق المسلمين بعد أن تعاقدوا مع أفراد مسلمين للعمل لديهم ، وهؤلاء يصبحون بموجب الشريعة الإسلامية داخلين في العهد والأمان الذي لا يجوز لأحد من المسلمين نقضه ، لأن أي مسلم أو مسلمة – حتى لو كان صغيراً – يؤمِّن رجلاً أو امرأة من غير المسلمين للدخول لبلاده أو لقريته أو لمدينته لأي سبب من الأسباب المباحة شرعاً ، سواء للعمل أو للتعرف على الإسلام أو للزيارة أو لأي سبب آخر لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية يعتبر ذلك أماناً له من جميع المسلمين ، ولا يحق لأحد من المسلمين نقضه أو الغدر به ، بل إن علماء المسلمين أجمعوا على أن مجرد إشارة لغير المسلم بالأمان كافية لأمانه حتى لو كان من الأعداء المحاربين .

أما في المناطق المختلفة بين المسلمين وغيرهم فلا يجوز أيضاً الاعتداء على غير المسلمين ، لأن هذا يتنافى مع الدعوة للاسلام ، ولأن الاعتداء عليهم يؤدي إلى قيامهم بالاعتداء على المسلمين في مناطقهم بدون حق .

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « ذمة المسلمين واحدة

يسعى بها أدناهم ، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ولا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً » . أخرجه البخاري ومسلم .

يقال : أخفر بالرجل إذا غدر به ونقض عهده ، والمعنى أنه إذا أمَّن المسلمُ مشركاً أو كافراً للدخول لبلاد المسلمين أو منطقة المسلمين لأي هدف مباح شرعاً فلايجوز نقض هذا الأمان ، ومن حق الرجل المسلم أو المرأة المسلمة أن يجير المشرك أو الكافر في الدخول لبلاد المسلمين ، خاصة إذا أراد التعرف على الإسلام ، ثم على المسلم حمايته حتى إعادته إلى بلاده أو منطقته .

يقول سبحانه في ذلك : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾[١] .

وقوله ﷺ : « المسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يدٌ على من سواهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم » .

ومعنى الحديث : أن المسلمين يتساوون في القصاص والديات ، لا فضل لشريف على وضيع ، وإذا أعطى أدنى رجل منهم أماناً فليس للباقين نقضه ، ومعنى « وهم يد » أي يجب عليهم أن ينصروا بعضهم بعضاً على كافة الملل الأخرى من غير المسلمين .

يقول ﷺ : « من ظلم معاهَداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة »[٢] .

وعن عمرو بن الحَمِق رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) سورة التوبة ، آية (٦).

(٢) عزاه في « الترغيب والترهيب » إلى رواية أبي داود له .

« أيما رجل أمَّن رجلاً على دمه ثم قتله فأنا من القاتل بريء وإن كان المقتول كافراً »[١].

* * * * *

(١) رواه ابن حبان .

الفصل الحادي عشر
عنصرية الرق والاسترقاق في الإسلام

الرق قبل الإسلام

إن نظام الاسترقاق قديم قِدم الإنسانية ، ووصل إلى أرقى نفوس المفكرين من أمثال أفلاطون وأرسطو وغيرهما ، وقد دامت هذه الفكرة في القرون الوسطى في أوروبا ، ولم تتلاشى تماماً إلا في القرن الماضي.

موقف الإسلام من الرق

وكان الرق منتشراً في جزيرة العرب قبل الإسلام كما كان منتشراً في البلاد والشعوب الأخرى .

ولكن الإسلام انفرد بنظام للرق يعتبر أسمى وأفضل الأنظمة في سبيل التقليل من الرق وتحرير الأرقاء واحترامهم ، حيث أمر الله سبحانه وتعالى في القرآن بعتق رقبة في عدد من المخالفات الشرعية ، وأمر بمكاتبة العبد لإعتاقه وتحرير نفسه إن كان فيه خير وفائدة .

كذلك أمر الرسول ﷺ بعدم ضرب الرقيق وأن يُطعَموا مما يأكل أسيادهم ، ويلبسوا مما يلبس أسيادهم ، ولا يكلفون بما لا يطيقون ، بل حتى في مخاطبتهم ، وتحريم التفريق بين المرأة الأَمَة وأبنائها ، وقال عليه الصلاة والسلام « من قتل عبده قتلناه ، ومن جدع عبده جدعناه »[1]. ومن أراد التوسع في هذا الموضوع فعليه بالرجوع إلى كتب الفقه لمعرفة مزيد من

---

(١) رواه أحمد والأربعة وحسنه الترمذي ، وفي رواية أبي داود والنسائي بزيادة « ومن خصا عبده خصيناه » وصحح الحاكم هذه الزيادة .

الأمور حول الرق .

عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال : خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار قبل أن يهلكوا ، فكان أول من لقينا أبا اليَسَر صاحب النبي ﷺ ومعه غلام له ، وعلى أبي اليسر بردة ومعافري ، وعلى غلامه بردة ومعافري ، فقلت له : ياعمي لو أخذت بردة غلامك وأعطيته معافريك ، أو أخذت معافريه وأعطيته بردتك ، كانت عليك حلة وعليه حلة ، فمسح رأسي وقال : اللهم بارك فيه ، يا ابن أخي بصر عيني هاتين، وسمع أذني هاتين ، ووعاه قلبي - وأشار إلى مناط قلبه - النبي ﷺ يقول : « أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون » وكان إن أعطيته من متاع الدنيا أهون علي من أن يأخذ من متاعي يوم القيامة[١] .

الرق لدى غير المسلمين

أما الأوربيون والأمريكان فكان من ضمن وسائل الحصول على الرقيق عندهم القيام بغزوات لأفريقيا لخطف البشر من بلادهم الأصلية وإحضارهم لأمريكا وأوربا لبيعهم ، للعمل في الزراعة والصناعة . وجميع السود الموجودون الآن في أوربا وأمريكا أصلهم من أفريقيا ، بل إن أغلب أجدادهم الأصليين مسلمون .

أما الإسلام فقد حرم الاسترقاق تحريماً قاطعاً إلا أن يكون مصدره الحروب أو التوالد .

وسائل الرق لدى العرب المشركين

أما في الجاهلية قبل الإسلام فكان الرق منتشراً في جزيرة العرب بالأساليب الظالمة على أساس الاغتصاب والقوة حيث يُخطَف الأفراد من مأمنهم

---

(١) أخرجه البخاري في « الإدب المفرد » برقم (١٨٧) .

ويساقون لبيعهم .

وكان ممن وقع عليهم مثل هذا الاسترقاق قبل البعثة المحمدية سيدنا زيد ابن حارثة حيث اختطف على غفلة من قومه عندما كان يزور بعض أقاربه في الشام من قبل جبل تهامة ، واشتراه حكيم بن حزام بن خويلد ابن أخي خديجة زوج النبي ﷺ ، فوهبه حكيم لعمته خديجة رضي الله عنها ، فوهبته لزوجها النبي ﷺ.

قال ابن إسحاق : ثم أسلم زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب ، مولى النبي ﷺ ، وكان أول ذَكَر أسلم وصلى ، بعد علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وقال ابن هشام : كان حكيم بن حزام قدم من الشام برقيق فيهم زيد بن حارثة - وذلك قبل البعثة - فدخلت عليه عمته خديجة بنت خويلد وهي يومئذ عند رسول الله ﷺ فقال لها : اختاري ياعمة ، أي هؤلاء الغلمان شئتِ فهو لك ، فاختارت زيداً فأخذته فرآه رسول الله ﷺ عندها ، فاستوهبه منها ، فوهبته له ، فأعتقه رسول الله ﷺ وتبناه ، وذلك قبل أن يوحى إليه .

وكان أبوه حارثة قد جزع عليه جزعاً شديداً ، وبكى حين فقده ، حتى عثر عليه عند رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ لزيد : « إن شئت فأقم عندي ، وإن شئت فانطلق مع أبيك » فقال : بل أقيم عندك .

فلم يزل عند رسول الله ﷺ حتى بعثه الله فصدّقه وأسلم وصلى معه . وكان يسمى زيد بن محمد ، لأنْ الرسول ﷺ تبناه ، أي : جعله كابنه ، فلما أنزل الله عز وجل ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾[1] قال : أنا زيد بن

---

(١) سورة الأحزاب ، آية (٣٣).

حارثة[١].

وقد ورد في السيرة أيضاً : أن رسول الله ﷺ شاهد في الجنة في حديث الإسراء والمعراج جارية أعجبته وسألها :« لمن أنت » ، فقالت : لزيد بن حارثة .

وقد آخى رسول الله ﷺ بين زيد بن حارثة وبين عمه حمزة بن عبدالمطلب أسد الله وأسد رسوله ، وقد أوصى حمزة في موقعة أحد إليه .

واستعمله رسول الله ﷺ على المدينة ، كما استعمله رسول الله ﷺ أميراً على سرية القَرَدَة من مياه نجد ، وأميراً في غزوة مؤته ، وفيها كبار الصحابة ، واستشهد فيها رضي الله عنه .

وزوّجه رسول الله ﷺ بنت عمته الهاشمية القرشية زينب بنت جحش ، وعندما طلقها زيد لعدم رغبتها فيه تزوّجها رسول الله ﷺ بأمر الله سبحانه وتعالى لإنهاء عادة التبني .

وقد يعتقد البعض خطأ أن زيداً رضي الله عنه لم يكن كفؤاً للقرشيات ، فالحق خلاف ذلك ، فهو من أوائل المسلمين السابقين ، زوجه رسول الله ﷺ بعد طلاقه زينب من عقيلات قريش : أم كلثوم بنت عقبة ، وأروى بنت كريز ، ودرة بنت أبي لهب ، وهند بنت العوام أخت الزبير .

تعذيب المشركين لسيدنا بلال رضي الله عنه

أما بلال بن رباح رضي الله عنه : فهو مولى أبي بكر رضي الله عنه، وكان عبداً مملوكاً لبعض بني جُمح ، مولَّداً من مولَّديهم ، وكان اسم أمه حمامة ، وكان صادق الإسلام طاهر القلب ، وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة

(١) « سيرة ابن هشام » ١ : ٢٦٥.

فتوضع على صدره ، ثم يقول : لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، - أسماء بعض أصنامه - فيقول -وهو في ذلك البلاء -: أحدٌ أحدٌ .

قال ابن إسحاق : وحدثني هشام بن عروة ، عن أبيه قال : كان ورقة بن نوفل يمرُّ به وهو يعذَّب بذلك وهو يقول : أحدٌ أحدٌ ! فيقول : أحدٌ أحدٌ والله يابلال .

ثم مرَّ به أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوماً وهم يصنعون ذلك به ، فقال لأمية بن خلف : ألا تتقي الله في هذا المسكين ! حتى متى ؟! قال: أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى ! فقال أبو بكر : أفعل ، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى ، على دينك ، أعطيكه ، قال : قد قبلت . قال : هو لك ، فأعطاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه غلامه ذاك ، وأخذ بلالا فأعتقه ، وأعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب .

وقد آخى رسول الله ﷺ بين بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ وبين أبي رويحة عبدالله بن عبدالله الخثعمي[1] .

بلال يؤذن فوق الكعبة المشرفة

وبلال رضي الله عنه أصله من الحبشة ، وعندما فتحت مكة صعِد بلال رضي الله عنه على ظهر الكعبة بأمر رسول الله ﷺ وأذَّن .

آية من آيات خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه

قال ابن هشام : وحدثني أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال ، فأمره أن يؤذِّن ، وأبو سفيان بن حرب وعتَّاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب بن أسيد : لقد أكرم الله أسيداً أن

---

(١) « سيرة ابن هشام » ٢ :١٢٧.

لا يكون سمع هذا ، فيسمع منه ما يغيظه ! فقال الحارث بن هشام :

أما والله لو أعلم أنه محقٌّ لاتبعته ! فقال أبو سفيان : لا أقول شيئاً لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى ! .

فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : « قد علمتُ الذي قلتم » ثم ذكر لهم ماتكلموا به ، فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ! والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك ![١].

بلال بن رباح رضي الله عنه ينتقم ممن كان يعذبه

قال ابن إسحاق : إن عبدالرحمن بن عوف الصحابي الجليل رضي الله عنه وأحد العشرة المبشرين بالجنة قال : كان أمية بن خلف لي صديقاً بمكة ، وكان اسمي عبدَ عَمرو ، فتسميت حين أسلمت عبدالرحمن ، ونحن بمكة ، فكان يلقاني إذْ نحن بمكة فيقول : ياعبد عمرو ، أرغبت عن اسم سمَّاكه أبواك ؟! فأقول : نعم ، فيقول : إني لاأعرف (الرحمن) فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به ، أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول ، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف ، قال : فكان إذا دعاني ياعبد عمرو ، لم أجبه .

قال : قلت له : يا أبا علي ، اجعل ماشئت . قال : فأنت عبد الإله . قال : قلت : نعم . قال : فكنت إذا مررت به قال : يا عبد الإله فأجيبه ، فأتحدث معه ، حتى إذا كان يوم بدر مررت به - وهو واقف مع ابنه علي بن أمية آخذ بيده - ومعي أدراع لي قد استلبتها فأنا أحملها ، فلما رآني قال لي : ياعبد عمرو ، فلم أجبه فقال : ياعبد الإله فقلت : نعم ، قال : هل لك فيَّ ، فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك . قال : قلت: نعم هاالله إذاً - يعني : نعم والله إذاً - قال : مارأيت كاليوم قط!! أما لكم حاجة في

---

(١) « سيرة ابن هشام » ٤ : ٣٣.

اللَّبن ؟ ثم خرجت أمشي بهما .

قال ابن هشام : يريد باللبن : أنَّ من أسرني افتديت منه بإبل كثيرة اللبن .

قال عبدالرحمن : فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي -وكان هو الذي يضرب بلالاً بمكة على ترك الإسلام فيخرجه إلى رمضاء مكة- (والرمضاء : الرمل الشديد الحرارة من الشمس) إذا حميت ، فيضجعه على ظهره ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول : لاتزال هكذا أو تفارقَ دين محمد . فيقول بلال : أحد أحد .

قال فلما رأى بلالٌ أميةَ بن خلف معي قال : رأس الكفر أمية بن خلف ! لا نجوت إن نجا قال : قلت : أي بلال أَبِأَسيري ، قال : لا نجوت إن نجا ، ثم صرخ بأعلى صوته : ياأنصار الله ، رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا قال : فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة - أي كالسِّوار - وأنا أذبُّ عنه ، قال : فأخلف رجل السيف فضرب رِجْل ابنه فوقع ، وصاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط قال : فقلت : انجُ بنفسك ولا نجاء بك فو الله ما أُغني عنك شيئاً . قال : فهبروهما بأسيافهم - يعني قطعوهما - حتى فرغوا منهما . فكان عبد الرحمن يقول : يرحم الله بلالاً ذهبت أدراعي وفجعني بأسيري[١] .

وفي يوم فتح مكة دخل رسول الله ﷺ الكعبة ومعه بلال ، ثم خرج رسول الله ﷺ وتخلف بلال ، فدخل عبد الله بن عمر على بلال فسأله : أين صلى رسول الله ﷺ فأخبره . وبقي مؤذناً حتى وفاة الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٧١.

هذا هو سيدنا بلال العبد الرقيق المولى الأسود اللون لما آمن بلا إله إلا الله وسجد لعظمة لا إله إلا الله ، وأذن في الأرض لمنادي السماء أصبح سيداً من السادات ، يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا بلالاً .

فضل بلال رضي الله عنه ورؤية رسول الله ﷺ له في الجنة

في الصحيحين يقول عليه الصلاة والسلام : « دخلت الجنة البارحة فسمعت دفَّ نعليك يابلال -أي : صوت نعليك - فماذا كنت تصنع ؟» قال : يارسول الله ما أنا بكثير صيام ولا صلاة ولا صدقة ، لكني ما توضأت في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت ركعتين .

قصة بلال مع أ بي ذر رضي الله عنهما

وعند البخاري في الصحيح أن الصحابة اجتمعوا في مجلس يتشاورون في أمر الحرب وكان معهم سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه ومعهم بلال بن رباح رضي الله عنه وأبو ذر ، فتكلم بلال فردَّ عليه أبو ذر يقول: حتى أنت يا ابن السوداء ! حتى أنت يابن السوداء تتكلم ! فقال بلال : والله لأرفعنك إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذهب إلى الرسول فأخبره وقال : يارسول الله أبو ذر قال لي كذا وكذا ، فاحمرَّ وجهه عليه الصلاة والسلام واستدعى أبا ذر - قال أبو ذر : والله ماعلمت هل رد عليَّ السلام أم لا من الغضب - ثم قال : « أعيرَّته بأمه! إنك امرؤ فيك جاهلية » ، قال : يارسول الله أَعَلَى كبر سني وشيبتي ! قال : « نعم ، إنك امرؤ فيك جاهلية ».

فخرج أبو ذر رضي الله عنه وقال : لا جرم ، والله لأنصفن بلالاً من نفسي ، وأقبل بلال يمشي في الطريق ، فوضع أبو ذر رأسه على الأرض - على التراب - وقال لبلال : طَأْ يابلال رأسي برجلك ، لاأرفع رأسي حتى

تطأه برجلك ، فرجلك أكرم من رأسي ، فبكى بلال وقال : والله لاأطأ رأسك ، أنت أخي وحبيبي ، فتعانقا والتزما وبكيا .

وقال عليه الصلاة والسلام لأبي ذر : « انظر ! فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى »[١].

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن أنسابكم هذه ليست بسباب على أحد إنما أنتم ولد آدم طفُّ الصاع لم تملؤوه ، ليس لأحد فضلٌ على أحد بالدين أو عمل صالح »[٢].

وقال عنه رسول الله ﷺ : « بلالٌ سابِقُ الحبشة ، وصهيب سابق الروم»[٣].

وعن عبد الله بن مسعود : أول من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله ﷺ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمُّه سُميَّة ، وصهيب ، وبلال ، والمقداد[٤].

وعن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ قال : « يا بلال ، حدثني بأرجى عمل عملته عندك في الإسلام منفعة فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة »، قال : ما عملت عملاً أرجى عندي من أني لم أتطهر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي . رواه البخاري ومسلم .

وعن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه قال : دعا رسول الله ﷺ بلالا فقال : « يا بلال بمَ سبقتني إلى الجنة ؟ إني دخلت الجنة البارحة فسمعت خشخشتك أمامي » فقال بلال : يارسول الله ما أذنت قط إلا صليت ركعتين ، وما

---

(١) « مسند الإمام أحمد » ٥ :١٥٨ .
(٢) رواه أحمد والبيهقي .
(٣) كنز العمال رقم الحديث (٣٣١٧٢).
(٤) طبقات ابن سعد ج٧ ص٣٨٥ .

أصابني حدث قط إلا توضأت عندها ، فقال رسول الله ﷺ : « بهذا »[١] .

ولما كانت خلافة أبي بكر رضي الله عنه تجهز بلال ليخرج إلى الشام، فقال له أبو بكر : ماكنت أراك يابلال تَدَعنا على هذا الحال ! لو أقمت معنا فأعنتنا ، قال : إن كنتَ إنما أعتقتني لله تعالى فدعني أذهب إليه، وإن كنت إنما أعتقتني لنفسك فاحبسني عندك ؛ فأذن له فخرج إلى الشام فمات بها[٢] .

مؤاخاة الإسلام فوق كل مؤاخاة

ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ آخى بين بلال المهاجري وأبي رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي الأنصاري ، فلما دوَّن عمر الدواوين بالشام ، وسجَّل فيها أسماء الناس ورواتبهم في بيت المال ، وكان بلال قد خرج إلى الشام فأقام بها مجاهداً ، قال عمر لبلال : إلى من تجعل ديوانك - أي : راتبك - يا بلال ؟ قال بلال : مع أبي رويحة لا أفارقه أبداً ، للأخوة التي كان رسول الله ﷺ عقد بينه وبيني . فضمَّ إليه ، وضم ديوان الحبشة إلى خثعم ، لمكان بلال منهم ، فهو في خثعم إلى هذا اليوم - أيام ابن إسحاق - بالشام .

قصة صهيب رضي الله عنه

أما صهيب بن سنان رضي الله عنه : فقد اشتُري من الروم وهو من المسلمين الأوائل رضي الله عنه . يقول عنه الرسول ﷺ: « صهيب سابق الروم » .

قال ابن هشام : وذكر لي عن أبي عثمان النهدي أنه قال : بلغني أن صهيباً حين أراد الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكاً - أي فقيراً -

---

(١) رواه أحمد في المسند والترمذي . انظر كنز العمال (٣٣١٧٤).

(٢) حلية الأولياء ج١ص١٥٠.

حقيراً فكثُر مالك عندنا وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ؛ والله لايكون ذلك ، فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي ؟ قالوا : نعم قال : فإني جعلت لكم مالي . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « ربح صهيب، ربح صهيب».

قصة سلمان الفارسي رضي الله عنه

أما سلمان الفارسي رضي الله عنه : فإن أصله من فارس وهي إيران اليوم، وله قصة طويلة فيها طرافة ومتعة وعبرة ، وهذا محل الشاهد منها :

قال سلمان : ثم قال لي رسول الله ﷺ : « كاتِبْ ياسلمان » - أي : أن يعقد اتفاقاً مع مالكه ليحرره مقابل مال أو شيء معين - فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير - بالفقير أي: بالحفر وبالغرس - وأربعين أوقية ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أعينوا أخاكم » - أُنظُرْ ! إن رسول الله ﷺ يؤكد لأصحابه أن سلمان العبد الرقيق أصبح أخاً لهم بإسلامه - فأعانوني بالنخل ، الرجل بثلاثين وَدْيَة ، والرجل بعشرين وَدْيَة ، والرجل بخمسة عشر وَدْيَة ، والرجل بعشرٍ ، كلٌ يعين الرجل بقدر ما عنده ، حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية - الودية صغار النخل أو الفسيلة - .

سلمان وأبو الدرداء الخزرجي أخوان

وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي الدرداء عويمر بن ثعلبة من الخزرج .

وقد ورد في السيرة أن سلمان الفارسي رضي الله عنه أشار على رسول الله ﷺ بحفر الخندق حول المدينة ، وفعلاً حفر الخندق ومنع المشركين من عبوره .

سلمان الفارسي يصبح من أهل بيت النبوة

قال ابن هشام : وحدثني بعض أهل العلم أن المهاجرين يوم الخندق قالوا : سلمان منا ، وقالت : الأنصار سلمان منا ، فقال رسول الله ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » .

والهدف من هذه الأمثلة والقصص الواقعية ، أن المسلم له قيمة بين إخوانه مهما كان جنسه ،حتى لو كان عبداً يباع ويشترى ،حتى لو كان من أقصى بلاد الدنيا .

المشركون من قريش يستهزئون بضعفاء المسلمين

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ إذا جلس في المسجد - المسجد الحرام في مكة في بداية الدعوة - فجلس إليه المستضعفون من أصحابه : خباب ، وعمار ، وأبو فُكيهة يسار مولى صفوان بن أمية بن محرث ، وصهيب ، وأشباههم من المسلمين ، هزأت بهم قريش فقال بعضهم لبعض : هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ؟ لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه وماخصهم الله به دوننا ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١) .

المساواة الكاملة بين السادة والعبيد حتى في المطعم والملبس والحقوق

---

(١) سورة الأنعام ، الآية (٥٢-٥٤).

وهذه طائفة من الأحاديث تدل على رفعة أخلاق الإسلام في معاملة الرقيق وكلها صحيحة ، وغالبها من الصحيحين .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا يقل أحدكم : عبدي . أَمَتي . كلكم عَبيد الله ، وكل نسائكم إماء الله ، وليقل : غلامي ، وجاريتي ، وفتاي ، وفتاتي » .

وكان جابر بن عبدالله يقول : كان النبي ﷺ يوصي بالمملوكين خيراً ويقول : « أَطْعِموهم مما تأكلون ، وألبِسوهم من لبوسكم، ولا تعذبوا خلق الله عز وجل » .

وعن المعرور بن سويد يقول : رأيت أبا ذر وعليه حلة وعلى غلامه حلة ، فسألناه عن ذلك ؟ فقال : إني سابَبْت رجلاً فشكاني إلى النبي ﷺ فقال لي النبي ﷺ : « أَعيرَّتَه بأمه ؟» قلت : نعم ، ثم قال :« إن إخوانكم خَوَلكم ، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليُطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم مايغلبهم ، فإنْ كلفتموهم مايغلبهم فأعينوهم » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « للمملوك طعامه وكسوته ولا يكلف من العمل ما لا يطيقه ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إذا جاء أحدَكم خادمُه بطعامه فليجلسْه ، فإن لم يقبل فليناوله منه » .

وعن أبي بردة عن أبيه أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ فله أجران ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت عنده أمة يطؤها فأدَّبها فأحسن تأديبها ، وعلَّمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها ، فله أجران ».

وعن عمار بن ياسر قال : لا يضربُ أحد عبداً له وهو ظالم له إلا أُقِيدَ منه يوم القيامة .

الله سبحانه وتعالى يأمرُ رسوله محمداً ﷺ أن يجلس مع الفقراء والمساكين والموالي ويُصَبِّرُ نفسه معهم

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[1] .

فالله سبحانه يأمر نبيه ورسوله محمداً ﷺ أن يكون صبوراً مع الذين يدعون ربهم بالغداةِ والعشيِّ يريدون وجهه ، أي اجْلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرةً وعشياً من عباد الله ، سواء كانوا فقراء أو أقوياء أو ضعفاء .

روى مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص قال : كنا مع النبي ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترؤن علينا ، قال : وكنت أنا ، وابن مسعودٍ ، وبلال ، ورجل من هذيل ، ورجلان نسيت اسميهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحَدَّثَ نفسه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[2] .

وروى الطبراني عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال : نزلتْ على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم

---

(١) سورة الكهف الآية ٢٨-٢٩ .
(٢) سورة الأنعام الآية ٥٢ .

بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ . . . ﴾ الآية فخرج يلتمس ، فوجد قوماً يذكرون الله تعالى منهم ثائرُ الرأس وجافُّ الجلد وذو الثوب الواحد ، فلما رآهم جلس معهم وقال : « الحمد لله الذي جعل في أمتي من أَمَرَني أن أُصَبِّرَ نفسي معهم » .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ، قال ابن عباس : ولاتجاوزهم إلى غيرهم ، يعني تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة ، ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾ أي شُغِلَ عن الدين وعبادةِ ربه بالدنيا ، ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ أي أعماله وأفعاله سَفَهٌ وتفريطٌ وضياع ، ولا يكن مطيعاً له ولا محباً له ولطريقته[١] .

ويقول الشهيد سيد قطب - رحمه الله - في الظلال حول هذه الآيات : يروى أنها نزلت في أشراف قريش ، حين طلبوا إلى الرسول ﷺ أن يطرد فقراءَ المؤمنين ، من أمثال بلالٍ وصهيب وعمار وخباب وابن مسعود ، إذا كان يطمع في إيمان رؤوس قريش ، أو أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس هؤلاء النفر ، لأن عليهم جباباً تفوح منها رائحة العرق فتؤذي السادة من كبراء قريش .

ويروى أن الرسول ﷺ طَمِعَ في إيمانهم ، فحدثته نفسه في ما طلبوا إليه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ . . . ﴾ الآية أنزلها تعلن عن القيم الحقيقية وتقيم الميزان الذي لا يخطىء ، وبعد ذلك ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ فالإسلام لا يتملَّقُ أحداً ، ولا يزن الناس بموازين الجاهلية الأُولى ، ولا آية جاهلية تقيم للناس ميزاناً غير ميزانه .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير لهذه الآيات .

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ ... لاتملَّ ولاتستعجل ، ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ فالله غايتهم ، يتجهون إليه بالغداة والعشيّ ، لايتحولون عنه ولا يبتغون إلا رضاه ، وما يبتغونه أجلُّ وأعلا من كل ما يبتغيه طلاب الحياة .

اصبر نفسك مع هؤلاء ، صاحبهم وجالسهم وعلمهم ففيهم الخير ، وعلى مثلهم تقوم الدعوات ، فالدعوات لا تقوم على من يعتنقونها لأنها غالبة ، ومن يعتنقونها ليقودوا بها الأتباع ، ومن يعتنقونها ليحققوا بها الأطماع ، وليتَّجروا بها في سوق الدعوات تشترى منهم وتباع ! ، إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التي تتجه إلى الله خالصةً له ، لا تبغي جاهاً ولا متاعاً ولا انتفاعاً إنما تبتغي وجهه وترجوا رضاه .

﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ولا يتحول اهتمامك عنهم إلى مظاهر الحياة التي يستمتع بها أصحاب الزينة ، فهذه زينة الحياة (الدنيا) لا ترتفع إلى ذلك الأفق العالي الذي يتطلع إليه من يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه .

﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ لا تُطِعهم فيما يطلبُون من تمييز بينهم وبين الفقراء ، فلو ذكروا الله لطامنوا من كبريائهم ، وخففوا من غلوائهم ، وخفضوا من تلك الهامات المتشامخة ، واستشعروا جلال الله ، الذي تتساوى في ظله الرؤوس ، وأحسوا رابطة العقيدة ، التي يصبح بها الناس إخوة ، ولكنهم إنما يتَّبعون أهواءهم ، أهواء الجاهلية ، ويحكمون مقاييسها في العباد ، فهم وأقوالهم سفهٌ ضائعٌ لايستحق إلا الإغفال جزاء ما غفلوا عن ذكر الله .

لقد جاء الإسلام ليسوي بين الرؤوس أمام الله ، فلا تفاضل بينها بمالٍ ولا نسبٍ ولا جاهٍ ، فهذه قيمٌ زائفة ، وقيم زائلة ، إنما التفاضل بمكانها

عند الله ، يوزن بقدر اتجاهها إليه وتجردها له ، وما عدا هذا فهو الهوى والسفه والبطلان .

﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾ . . . أغفلنا قلبه حين اتجه إلى ذاته ، وإلى ماله ، وإلى أبنائه ، وإلى متاعه ولذائذه وشهواته ، فلم يعد في قلبه متسع لله ، والقلب الذي يشتغل بهذه الشواغل ، ويجعلها غايةَ حياته لا جرم يغفل عن ذكر الله ، فيزيده الله غفلةً ، ويُملي له فيما هو فيه ، حتى تفلت الأيام من بين يديه ، ويلقى ما أعده الله لأمثاله الذين يظلمون أنفسهم ، ويظلمون غيرهم .

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ . . . بهذه العزة وبهذه الصراحة ، وبهذه الصرامة ، فالحق لا ينثني ولا ينحني ، إنما يسير في طريقه قيماً لا عوج فيه ، قوياً لا ضعف فيه ، صريحاً لا مداورة فيه ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ومن لم يعجبه الحق فليذهب ، ومن لم يجعل هواه تبعاً لما جاء من عند الله ، فلا مجاملة على حساب العقيدة إليه .

إن العقيدة ليست ملكاً لأحد حتى يجامل فيها ، إنما هي ملك لله ، والله غنيٌ عن العالمين ، لا تعتز ولا تنتصر بمن لا يريدونها لذاتها خالصةً ، ولا يأخذونها كما هي بلا تحوير ، والذي يترفع عن المؤمنين ، الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيِّ يريدون وجهه ، لا يرجى منه خيرٌ للإسلام ولا المسلمين . انتهى كلامه - رحمه الله - .

تحريم الإسلام إيذاء المملوكين أو ضربهم

وعن سويد بن مقرِّن المزني - ورأى رجلاً لطم غلامه - فقال : أما علمت أن الصورة محرمة ! -أي أنّ ضرب الوجه محرم - رأيتني وإني سابع سبعة إخوة على عهد رسول الله ﷺ مالنا إلا خادم، فلطمه أحدنا ، فأمرنا النبي ﷺ أن. . . . .

نعتقه[١] .

وعن زاذان أبي بكر قال : كنا عند ابن عمر فدعا بغلام له كان ضربه ، فكشف عن ظهره فقال : أَيُوجِعك ؟ قال : لا . فأعتقه ، ثم رفع عوداً من الأرض فقال : مالي فيه من الأجر ما يزن هذا العود ، فقلت : يا أبا عبد الرحمن لِمَ تقول هذا ؟ قال : سمعت النبي ﷺ يقول - أو قال - : « من ضرب مملوكه حداً لم يأتِه ، أو لطم وجهه : فكفارته أن يعتقه »[٢] .

وعن أبي مسعود قال : كنت أضرب غلاماً لي فسمعت من خلفي صوتاً : « اعلم أبا مسعود لَلَّهُ أقدرُ عليك منك عليه » فالتفتُّ فإذا هو رسول الله ﷺ قلت : يارسول الله فهو حرّ لوجه الله ، فقال : « أَما إنْ لو لم تفعلْ لمسَّتْك النار ، أو : لَلَفَحَتْك النار »[٣] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من قتل عبده قتلناه ، ومن جَدَع عبده جدعناه »[٤] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أفٍّ ، ولا لم صنعت ، ولا ألا صنعت . رواه البخاري .

وعن البراء بن عازب عن النبي ﷺ: « ثلاثة لا تقبل منهم الصلاة ، من تقدم قوماً وهم له كارهون ، ورجلٌ أتى الصلاة دِباراً - والدِّبار أن يأتيها بعد أن تفوته - ورجلٌ اعتبد محرَّره »[٥] .

قال الخطابي : واعتباد المحرَّر يكون من وجهين ، أحدهما : أن يعتقه ثم

---

(١) الأدب المفرد للبخاري رقم الحديث (١٧٩).
(٢) الأدب المفرد للبخاري رقم الحديث (١٨٠).
(٣) المصدر السابق رقم (١٧١).
(٤) رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة .
(٥) رواه أبو داود وابن ماجه . انظر الترغيب والترهيب ج٣ص٣٣.

يكتم عتقه أو ينكره ، وهذا أشرُّ الأمرين ، والثاني : أن يعتقله بعد العتق فيستخدمه كرهاً .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يذهب للعوالي في كل سبت ، فإذا وجد عبداً في عمل لا يطيقه وضع عنه[١] .

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : عهد نبيكم ﷺ قبل وفاته بخمس ليالٍ ، فسمعته يقول : « اللهَ اللهَ فيما ملكت أيمانكم ، أشبعوا بطونهم ، واكسوا ظهورهم ، وألينوا القول لهم »[٢].

« للمملوك على سيده ثلاث خصالٍ : لا يعجله عن صلاته ، ولا يقيمه عن طعامه ، ويشبعه كلَّ الإشباع »[٣].

« إخوانكم خَوَلُكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه ، وليلبسه من لباسه ولا يكلِّفه ما يغلبه ، فإنْ كلفه ما يغلبه فَلْيُعِنْه » . رواه البخاري ومسلم .

تفضيل السابقين على اللاحقين

وعن الحسن بن علي رضي الله عنه قال : حضر بباب عمر رضوان الله عليه سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب ، في نفر من قريش من تلك الرؤوس ، وصهيب وبلال ، وتلك الموالي الذين شهدوا بدراً - يطلبون جميعاً الإذن بمقابلة أمير المؤمنين عمر - فخرج الإذن للموالي ، وترك أولئك ، فقال أبو سفيان : لم أر مثل اليوم قط ! يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت إلينا ! فقال سهيل بن عمرو - وكان رجلاً عاقلاً - : أيها القوم إني والله أرى الذي في وجوهكم ، إن كنتم

---

(١) رواه مالك وعبد الرزاق والبيهقي في شعب الإيمان .

(٢) رواه ابن جرير .

(٣) رواه الطبراني في الكبير .

غِضاباً فاغضبوا على أنفسكم ، دُعي القوم ودُعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذا دُعوا يوم القيامة وتُركتم ؟[١].

تفضيل بعض السود على الألوان الأخرى

وخطب صلوات الله وسلامه عليه في أوسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال : « يا أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا أحمر على أسود ولا أسود على أحمر : إلا بالتقوى إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا هل بلغت؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : فليبلغ الشاهد منكم الغائب »[٢].

وهذا الحديث العظيم فيه آيات باهرة ، فهو يدل على أن السود سيفتخرون على الألوان الأخرى ، وهذا ماحدث ويحدث فعلاً ، فكثير من السود يحتقرون الجنس الأبيض كبعض السود في أمريكا وفي تنزانيا حيث إن على الأبيض أن يقف ذليلاً حقيراً أمام الأسود ، كذلك كثير من الشعوب الأعجمية تحتقر العرب أو تعتقد أنها الأفضل وأغلبهم بالطبع من غير المسلمين .

التفاضل في الأعمال

سبق أن قلنا إن الناس قد يتفاضلون ويتميزون في كل شيء إلا في العرق والجنس ، فهم يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح ، ويتفاضلون بالجهاد ، ويتفاضلون بالدعوة إلى الله ، ويتفاضلون بالعلم ، فإن عالماً واحداً من علماء المسلمين عاملاً بعلمه مخلصاً في دعوته أفضل بكثير من آلاف الأشخاص أمثال كاتب هذه السطور ، ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه .

والمؤمنون يتفاضلون كذلك بنياتهم وبإخلاصهم ، وهناك فرق كبير ما بين

---

(١) حياة الصحابة .

(٢) الترغيب والترهيب ج٣ ص٦١٣ .

الرجل الذي يعمل لراتبه ، والرجل الذي يعمل لعقيدته ، وفرق كبير بين من يعمل بجدّ ونشاط طمعاً في ترقية أو مكافأة أو منصب ، وبين من يعمل لله وحده ، فإن الأول يعمل بإخلاص ونشاط مادام مراقَباً ومادام خائفاً من عقاب أو فصل أو حرمان ، فإذا أمن من العقاب خان وخدع وغش وأهمل ، أما الثاني فلا يهمه شيء من ذلك فإن إخلاصه دائم مستمر حتى لو حرم من الترقية والمكافأة ، وسواء كان مراقباً أو غير مراقب ، لأن إخلاصه لله وحده ، ولأنه يؤمن أنه مراقب من العليم الخبير ، فالأول صاحب رزق ومكسب ، والثاني صاحب عقيدة ومبدأ .

والناس يتفاضلون بالعبادة يقول سبحانه : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾[1] .

ورب تسبيحة من إنسان أفضل من ملء الأرض من عمل غيره ، وكان إدريس صلوات الله وسلامه عليه يرفع له في اليوم مثل عمل جميع أهل الأرض ، وإن الرجلين ليكونان في الصف يصليان وأجر مابين صلاتيهما كما بين السماء والأرض[2] .

والناس يتفاضلون ويتميزون بخبرتهم وموهبتهم وحسب اجتهادهم وتجاربهم ، وأغلب الدول الكافرة الآن أصبحت تتميز وتتفوق على المسلمين بالتكنولوجيا والتسليح والاختراع وفي كل شيء تقريباً من أمور الدنيا ، وذلك نتيجة إهمال المسلمين لدينهم وعقيدتهم ونتيجة سيطرة العنصريين والعرقيين والعلمانيين على أغلب بلاد المسلمين .

---

(١) سورة الكهف الآية (٧ ، ٣٠).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج٤ ص٣٨٤ .

وتفوق الكفرة في أمور الدنيا ذكره الله سبحانه في القرآن الكريم فقال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾[١] .

وأما خبرتهم في أمور الدين وفي اليوم الآخر فهم جهلاء تماماً ، لأنهم يعتبرون الدين ضد العلم بسبب التناقضات التي حدثت في بداية النهضة العلمية لأوربا ووقوف علماء الدين النصارى ضدهم ، ولتكفيرهم للعلماء وحرقهم وشنقهم مما جعل علماءهم يكفرون بالكنيسة ورجالها ، وهم يعتقدون جهلاً وغباءً أن الإسلام شبيه الكنيسة ، وقد بدأت هذه النظرة تتغير نتيجة جهود العلماء الدعاة .

* * * * *

(١) سورة الأنعام ، الآية (٤٤).

الفصل الثاني عشر
التكبر وعلاقته بالعنصرية والعصبية

عرّف النبيُّ ﷺ الكِبرْ بقوله : « الكبر بَطَر الحق وغمط الناس » رواه مسلم والترمذي.

ومعنى « بطر الحق » : رفض قبوله ، والاستعلاء عليه ، كمن يقع بينه وبين غيره خصومة ، أو ينصحه أخوه بمعروف ، أو يفهِّمه آخر خطأه ، وهو لا يقبل ولا يخضع للحق ، ولا يعترف أنه مخطى بل يصُّر على موقفه ، ويتعالى ويستكبر ، ويرفض الحق ولا يقبله ، حتى لو ذكرتَ له أمر الله أو أمر رسوله !! وحتى لو أحضرت له كتب الحديث والفقه ، بل يستمر في استكباره وطغيانه .

هذا إذا لم يغضبْ عليك ويعادِك ، ويخطِّطْ لهلاكك - والعياذ بالله - ويُشِعْ عليك السوء بالكذب والحقد . هذا معنى « بطر الحق » .

وأما « غمط الناس » فمعناه احتقارهم وتصغيرهم ، وازدراؤهم والترفع عليهم، وانتقاصهم حقوقهم .

ومن صفات المتكبر أيضاً : التعصب لأقواله وأفعاله ، والإعجاب بقوله وفعله ، يبينٌ له الحق فيشمخ بأنفه متكبراً عنه ، عُجْباً بنفسه وتيهاً ! وبهذه الصفات نزل إلى أسفل الدركات .

والتكبر من صفات إبليس لعنه الله ، فقد تكبر على أمر الله ورفض السجود لآدم ، لاعتقاده أنه أفضل منه ، ولذلك قال بعضهم : إن أول معصية عُصي الله تعالى بها : التكبرُّ !.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من المتواضعين ، ومن الذين قال الله فيهم : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(١) .

من أضرار التكبر

إن التكبر من الأمراض القلبية التي تفتك بالإنسان وبإيمانه وبدينه ، وبعمله الصالح ، وإذا بقي من هذا المرض مقدار ذرة من الكبر كانت سبباً في إلقائه على وجهه في النار ، فالكبرْ والتكبر من الأمراض الخطيرة التي عالجها القرآن الكريم واهتم بها في آيات كثيرة ، وكذلك السنة النبوية الشريفة .

قال الله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾(٢) الله أكبر ! إن الله سبحانه سيصرف بصيرة كلِّ متكبر عن آياته فلا يشعر بعظمة الله ، ولا يستدلُّ على آيات الله في الكون ، فيكون أعمى القلب ، أعمى البصر حتى لو شاهدها !! وهذا ما عليه كثير من العلماء الملحدين والمثقَّفين المستغربين الذين ينكرون آيات الله ومعجزاته ، وهي عقوبة من الله إذْ أعمى قلوبهم وطمس بصائرهم ! .

وقال تعالى : ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾(٣) .

نعم إنه سبحانه لا يحبُّ المستكبرين ، وإذا أبغض الله عبداً عذَّبه ، وإذا أحب الله عبداً غفر له وأدخله الجنة .

---

(١) سورة القصص ، الآية (٨٣).
(٢) سورة الأعراف ، الآية (١٤٦).
(٣) سورة النحل ، الآيات (٢٢، ٢٣).

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾[١] .

هذه من وصايا لقمان لابنه في القرآن ، ذكرها الله سبحانه في كتابه لأهميتها ، ولاتباع هذه النصائح العظيمة الجليلة ، لأن الذي يصعِّر خدَّه للناس هذا التصعير مظهر من مظاهر التكبُّر ، وهي حركة تؤدي إلى رفع الخدِّ ، أو الحاجب ، أو الرأس أو العين ، أو أي عضو آخر ، بل جميع الحركات التي يقصد منها الترفعُّ والتكبر والاستعلاء على الآخرين يعذِّبه الله عليها ، وبسببها ، وربما ذكر الخدّ لأنه أبسط الأشياء - والله أعلم - .

والقصد في المشي : علامة التواضع والرحمة واللين والرفق .

وقال سبحانه : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٢] .

نعم الجنة للمتواضعين الهيِّنين الليِّنين فقط ، وليست لأصحاب العنصرية والعصبية الذين يرون أنفسهم أفضل من الآخرين بنسبهم وعائلاتهم وأجدادهم ! .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ۝٤٠ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾[٣] .

وسَمُّ الخِياط هو ثقب الإبرة . فالمعنى : أنهم لن يدخلوا الجنة أبداً ، لأن

---

(١) سورة لقمان ، الآيات (١٨، ١٩).
(٢) سورة القصص ، الآية (٨٣).
(٣) سورة الأعراف ، الآية (٤٠).

الجمل لا يستطيع أن يدخل في ثقب الإبرة .

ويقول سبحانه في كتابه العظيم : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾(١).

وإذا طبع الله على القلب أي ختم عليه بالعذاب والضلال - نعوذ بالله من ذلك - انطمس القلب فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، بل يصبح المنكر عنده معروفاً ، والمعروف منكراً ، وتنقلب الرذائل إلى فضائل ، والفضائل إلى رذائل ، كما يحدث فعلاً للبعض عندما يجمع قومه وجماعته وينادي فيهم بالعنصرية والعصبية ، ويثير فيهم الحمية الجاهلية ويطالبهم بسحق الخصوم وإبادتهم وإفنائهم ، لأنه هو وقومه الجنسَ الأعلى ، والنوع الأرقى الذي يجب أن يستعليَ وأن يسيطر ، وأن لا يجرؤ الآخرون على رفع رؤوسهم نحوهم ، وعليهم الخضوع والتذلل لهم !.

مع أن الموضوع قد يكون بسيطاً جداً وتافهاً جداً ، وقد يكون خلافاً بسيطاً بين الأطفال ، أو نزاعاً على ماء أو أرض ، أو بسبب خلاف زوجي ، أو طلاق زوجة ، أو كلمة نابية !.

ولنفرض أن ثمة اعتداء ، أو ضرباً ، أو سفك دماء فيجب بحث الأمر بروِيَّة وهدوء واتباع الحكم الشرعي .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾(٢).

وقوله داخرين : أي أذلاء حُقَراء ، والجزاء من جنس العمل ، تكبروا في

---

(١) سورة غافر ، الآية (٣٥).

(٢) سورة غافر ، الآية (٦٠).

الأرض فكانت عقوبتهم أن يدخلوا جهنم محتقرين لأنهم استكبروا عن عبادة الله ودعائه ، والاستعانة به ، واتباع منهاجه وطريقه وشريعته ، والخضوع لأوامره وتعليماته ، والاستسلام لمشيئته والتوكل عليه .

الخضوع للحق

فإذا قلتَ له : إن الله قد حرم الربا ! تراه يستكبر ويقول : لا ، ويعلل الأمر بقوله : إن الأوضاع في هذا العصر قد تطوَّرتْ ولا بدَّ من الربا .

وإذا قيل للمرأة بضرورة الحجاب تقول : لا ، الإسلام لم يقل ذلك .

وإذا قلت له : إن الله ورسوله حرم التكبر والعنصرية والاستعلاء على الآخرين ، أخذته العزة بالإثم ، وغضب واستكبر وقال : لا ، أنت لا تعلم شيئاً .

وإذا نصحتَه بالتقَيُّد بالشرع ، والحفاظ على الأمانة ، وعدم الخيانة والغش: غضب واستكبر ، واعتبرك عدوه اللدود ، مع أن هدفك هدايته ومحبته ، وصلاحه ، ولكنه يستمرّ في عدم قبول الحق والانقياد له .

ولهذا سيدخلون جهنم داخرين ، أي : أذلاء حقراء مُهانين ، لأن المسلم يجب أن يخضع للحق مهما كان مصدره .

ورد أن شخصاً قال لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : اتَّقِ الله! فقال له آخر : أتقول لأمير المؤمنين اتق الله ؟! فقال عمر رضي الله عنه: لاخير فيكم إن لم تقولوها ، ولا خير فينا إن لم نقبلها . أو كما قال رضي الله عنه .

ومن طبيعة المتكبر : التعصُّب لأقواله وأفعاله وآرائه حتى لو كان مقتنعاً من أعماقه بخطأ رأيه وصواب رأيك ، ويصر على مقاله . تبين له الحق فيشمخ بأنفه متكبراً عنه ، عجباً بنفسه وتيهاً ، وبهذه الأخلاق وهذه الصفات نزل إلى أسفل الدركات .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾[1] .

فالذي يخبط بقدميه الأرض علواً وكبراً وبطراً وغروراً يقال له : رُوَيدَك أيها العبد الحقير ، لا تظنُّ أنك ستخرق الأرض برجلك ، أو تشمخ بأنفك على عباد الله ، حتى إذا قال لك أحدهم : اتق الله : استكبرت وغضبت ، وأخذت تتطاول على عباد الله ، وتظلمهم وتحتقرهم ، فاعلم أنك لن تبلغ الجبال طولاً ، فالجبال أطول منك .

بعض الأحاديث الواردة في التكبر

وإليك بعض الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ والخاصة بالكبر والتكبر:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « من كان في قلبه مثقال ذرة من خردل من كِبْرٍ كبَّه الله لوجهه في النار »[2] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرة من كبر» ، فقال رجل : إن الرجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً ! ، فقال : « إن الله جميل يحبُّ الجمال ، والكِبْرُ بَطَر الحق وغمط الناس » . رواه مسلم .

وقال ﷺ : « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يُكتبَ في الجبارين فيصيبه ما أصابهم »[3] .

---

(١) سورة الإسراء ، الآيات (٣٧،٣٨).
(٢) رواه أحمد .
(٣) رواه الترمذي .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي » رواه مسلم .

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : كنا مع النبي ﷺ في جنازة فقال : « ألا أُخبِركم بشرِّ عباد الله : الفَظِّ المستكبر ، ألا أخبركم بخير عباد الله : الضَعيفِ المستضعف ، ذي الطِّمْرين لا يُؤْبَه له ، لو أقسم على الله لأَبَرَّه » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلِّمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكِّيهم ، ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم : شيخٌ زانٍ ، وملِك كذاب ، وعائلٌ مستكبر » رواه مسلم .

والقصد هنا الصنف الثالث ، وهو العائل المستكبر ، لأن الكبر له دوافع ومن دوافعه : الغنى ، وكثرة المال ، والمنصب ، والجاه ، لأن الله يقول : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾[1] ولكن هذا فقير وصاحب عائلة وجائع وبحاجة للآخرين ثم يجد في نفسه مبرراً أن يتكبر ؟! على أي شيء يتكبر ؟ على فقره ! وعوزه وحاجته ؟! إذاً هي معاندة لله رب العالمين ، أفقره الله لكي يعيش ذليلاً لله محتاجاً إليه ، فأبى إلا أن يتكبر على الله وعلى عباد الله وهو فقير ، فضمَّ مع الذنب عناداً ومكابرة لله !![2] .

والغنى وحده لا شيء فيه ، إنما الضرر يأتي من رؤيته لنفسه أنه صار غنياً، فالاستغناء هو سبب الطغيان ، لا الغنى . وكم من غني في السلف والخلف ليس طاغياً ، وكم من فقير صار يجد السعة شيئاً فشيئاً ، فصار يجد أنه أصبح غنياً ، فدخله الطغيان .

---

(١) سورة العلق ، الآيات (٦، ٧).
(٢) من محاضرة قيمة للشيخ أحمد القطان .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من تعظَّم في نفسه واختال في مشيته لقي الله تبارك وتعالى وهو عليه غضبان »[١] .

وللكبر عدة أنواع ، منها :

- التكبر على الله عز وجل ! وهو أعظم أنواع الكبر ! .
- التكبر على رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً .
- التكبر على الناس .

وبعض الناس يتكبر بأصله وأجداده وحسبه ونسبه ، أو لأن أباه أو جدَّه كان سلطاناً أو ملكاً أو قائداً أو زعيماً .

وبعضهم يتكبر ويفتخر ويتباهى بأمواله أو قوّته ، أو جماله أووسامته ، أو ملابسه ، أو ذكائه ، أو رشاقته .

وبعضهم يتكبر ويتباهى إذا لبس ملابس جديدة ، أو قاد سيارة جديدة أو عمل تسريحة جميلة ، أو يفتخر ويتباهى بقَصْرِه ، أو عائلته أو أبنائه أو زوجته ، أو رجاله ، أو علمه ، أو فصاحته .

إن الكبر مرض وداء وبيل ، وله صور عجيبة ، وأشكال مختلفة ، وأساليب متنوعة ، يجب على المسلم أن ينتبه لها ويحذر أن يقع فيها .

كيف عالج الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه التكبر

ولهذا كان الأنبياء والرسل وخاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كانوا يحذِّرون أممهم من الكبر ويتواضعون لله سبحانه لتحذوَ البشرية حَذْوَهم .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير واللفظ له ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم . انظر الترغيب والترهيب ج٣ص٥١٩ .

فهذا نوح عليه السلام يأمره ربه ببناء السفينة ويعلّمه ويرشده لإتمامها .

وهذا داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده ، وكان يعمل بيديه الدروع ، وقيل إنه كان يعمل كل يوم درعاً يبيعها .

وقد ثبت في الحديث أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وأن نبي الله داود كان يأكل من كسب يده .

نماذج من تواضع سادات السلف

وقد طبق الصحابة والتابعون رضي الله عنهم أجمعين هذه الوصايا ، وكذلك كافة المؤمنين والصالحين في كل مكان وزمان ، فكانوا في غاية التواضع والزهد ، وبساطة العيش في الأكل والملبس والمسكن .

ويحدثنا التاريخ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه شاهد أبا بكر الخليفة يتردَّد على بيت بعيد ، فدخل ذلك البيت فوجد امرأة عجوزاً مقعدة ، فسألها ماذا يفعل الرجل الذي يدخل عليك ؟ فأجابت : إنه يتردد عليها لينظف بيتها ، ويزيل الأذى عنها ، ويخدمها ويقدِّم لها الطعام وما تحتاج إليه .

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يحلب الشياه لجيرانه ، فلما ولي الخلافة قالت امرأةٌ : الآن لا يستطيع أبو بكر أن يحلب شياهنا . فقال : بل سأحلبها لكم إن شاء الله . أو كما قال رضي الله عنه .

وهذا عمر بن الخطاب اعتاد أن يلبس ثياباً مرقعة ، وينام تحت الشجر ويتناوب مع خادمه ركوب الجمل ، ويحمل الطعام على ظهره ويطبخه ويقدمه لامرأة جائعة بعد ولادتها بمساعدة زوجته ! .

وفي حادثة أخرى فعل ذلك مع أطفال جائعين مع أمهم قدموا من البادية! .

ويحمل قربة الماء على ظهره وهو خليفة فيقول له ابنه : أنا أكفيك يا أبتِ !

فيجيب : أنا أعلم ذلك ، ولكني وجدت نفسي قد كَبِرت عليَّ فأحببت أن أُذِلَّها . أو كما قال رضي الله عنه .

وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم يتواضعون لله سبحانه وتعالى ، لأنهم تعلموا في مدرسة محمد ﷺ واقتدوا به ، وكذلك كافة المؤمنين الذين أتوا بعدهم .

فهذا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يطلب من جاريته وهو خليفة أن تروِّحه في يوم شديد الحر ، فغلبتها عيناها فنامت ، فأخذ المروحة وأقبل يروِّحها ! فانتبهتْ وصاحتْ ! فقال لها عمر : إنما أنت بشر مثلي ، أصابك من الحرِّ ما أصابني ، وأحببت أن أروِّحك مثلَ الذي روَّحتني !! .

وعن عمرو بن مهاجر قال : قال لي عمر بن عبد العزيز : ياعمرو إذا رأيتني قد مِلتُ عن الحق فضع يدك في تلابيبي ثم هُزَّني ثم قل لي : ماذا تصنع ؟! .

وعن المفضَّل بن يونس قال : قال رجل لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين كيف أصبحتَ ؟ قال : أصبحت بَطيناً ملوَّثاً في الخطايا ، أتمنَّى على الله الأماني ! .

وعن ابن عائشة ، عن أبيه قال : بلغ عمرَ بنَ عبد العزيز أن ابناً له اشترى فَصّاً بألف درهم فتختم به ! فكتب إليه عمر : عزيمة مني عليك لَمَّا بعتَ الفَصَّ الذي اشتريتَه بألف درهم ، وتصدقت بثمنه ، واشتريت فصاً بدرهم نقشتَ عليه : (رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه) والسلام .

وكان لعمر بن عبد العزيز ابن من فاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوجته - وكان عمر خليفة ، ووالد زوجته عبد الملك بن مروان خليفة من قبل - فخرج الغلام يلعب مع الغلمان ، فشجه غلام ، فاحتملوا ابن عمر والذي شجَّه فأدخلوهما على فاطمة ، فسمع عمر الجَلَبة وهو في بيت آخر ، فخرج ،

وجاءت امرأة فقالت : هو ابني ، وهو يتيم ، فقال عمر : له عطاء ؟ قالت: لا ، قال : اكتبوه في العطاء . - أي سجّلوا له راتباً سنوياً في بيت المال - فقالت زوجته فاطمة : فعل الله به وفعل ! إن لم يشجَّه مرةً أخرى ! فقال عمر رضي الله عنه : إنكم أفزعتموه .

وعن عبد الملك قال : قام عمر بن عبد العزيز الخليفة إلى قائلته[١] وعرض له رجل بيده طومار[٢] ، فظن القوم أنه يريد أمير المؤمنين ، فخاف الرجل أن يُحبَس دونه فرماه بالطومار ، والتفت أمير المؤمنين في اللحظة التي رمى فيها الطومار ، فأصابه في وجهه فشجَّه ، فنظرت إلى الدماء تسيل على وجهه وهو في الشمس ، فقرأ الكتاب وأمر له بحاجته ، وخلَّى سبيله[٣] .

والمسلم يتواضع في غير مذلَّة ولا مهانة ، والتواضع من أخلاق المسلم وصفاته ، والمسلم إذا تواضع رفعه الله . قال رسول الله ﷺ : « ما نقصَتْ صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » .

روي أنْ عمر بن الخطاب رضي الله عنه شوهد يحمل لحماً بيده اليسرى وفي يده اليمنى الدِّرَّة ، وهو أمير المؤمنين وخليفتهم .

وروي أن علياً رضي الله عنه اشترى لحماً ، فجعله في ملحفته ، فقيل له : نُحمل عنك يا أمير المؤمنين ! فقال : أبو العيال أحقُّ أن يَحمل .

قال أبو سلمة : قلت لأبي سعيد الخدري : ما ترى فيما أحدث الناس في الملبس والمشرب ؟ فقال : يا ابن أخي كُلْ لله ، واشربْ لله ، والبسْ لله ،

---

(١) قائلته : قيلولته ، وهي : النوم والراحة في الضحوة الكبرى .

(٢) الطومار : رسالة من جلد ، كانوا يكتبون على الجلد في ذلك الزمن .

(٣) من كتاب « مناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد » للإمام ابن الجوزي .

وكلُّ شيء دخله من ذلك زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف ، وعالجْ في بيتك من الخدمة ما كان يعالج رسول الله ﷺ : كان يعلف الناضح ، ويعقل البعير ، ويَقُمُّ البيت - أي : يكنسه - ويحلب الشاة ، ويخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويأكل مع خادمه ، ويطحن عنه إذا أعيا ، ويشتري الشيء من السوق ، ولا يمنعه الحياء أن يعلِّقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه ، وينقلب إلى أهله ، يصافح الغنيَّ والفقير ، والكبير والصغير ، ويسلِّم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير وكبير ، أو أسود أو أحمر ، حرّ أو عبد من أهل الصلاة .

* * * * *

الفصل الثالث عشر
من عوامل الأخوة والقطيعة ونتائجهما

يشهد العالم الإسلامي ظاهرة العودة إلى الإسلام بين أفراده ، والرغبة في تطبيق المنهاج الإسلامي كما تمثّله مصادره الأساسية : القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، وقد بدأت هذه الصحوة بعد أن جرَّبت الشعوب الإسلامية كثيراً من الأنظمة والمعتقدات غير الإسلامية مثل : الاشتراكية ، والقومية ، والشيوعية ، والديموقراطية ، فأُصيبوا بنكسات ونكبات إقتصادية ، وسياسية ، وخُلُقية ، ولا يزالون يعانون منها حتى الآن ، ولم يبق أمامهم إلا العودة للإسلام المضمون نجاحه وفوزه .

وبما أن هذه الصحوة منتشرة بين الأفراد فقط ، فقد أدى وجودها ونشاطها إلى معاداتها ومحاربتها من قبل أغلب الحكام ، لأنهم لا يفهمون شيئاً عن الإسلام ، فهم من المستغربين الذين درسوا في الغرب ، أو الملحدين .

وآخر تصريح لواحد منهم هو الجنرال المتقاعد كنعان إفرين رئيس جمهورية تركيا السابق ، الذي أدلى به خلال لقاء تلفزيوني بعد أن أزعجه الاتجاه الإسلامي والصحوة الإسلامية في تركيا ، قال هذا الملحد : إننا لن نسمح لأنصار الشريعة أن يهددوا أركان الدولة العصرية ويرجعوا بنا إلى عصر الظلام ! وقال : اللهم احفظنا من الشريعة !!

وأمثال هذا الرجل كثير !.

وقد بدأ العالم غير الإسلامي يراقب الصحوة الإسلامية ، ويفتك

بالمسلمين ويسفك دماءهم بطريقة غير مباشرة في كثير من مناطق العالم ، بل إن الدول الكبرى أخذت تجاهر بعدائها لكل ما هو إسلامي ، وتفرض سيطرتها على جميع الدول الإسلامية تقريباً في محاربة الإسلام وأهله ، بل وتشترط في معوناتها وقروضها العداء للإسلام ، ولنظام الإسلام ، وإبادة ما يسمونهم بالأصوليين !!.

وهكذا أقيمت المذابح للمسلمين في كل مكان : في الهند ، وكشمير وفلسطين ، وبورما ، وطاجكستان ، وفي آسيا وإفريقيا ، وفي البوسنة والهرسك حيث حوصر المسلمون هناك ، وأُخذوا يذبحون مع أطفالهم ، وتغتصب نساؤهم بموافقة ورضاء مجلس الأمن الذي قرر منع السلاح عنهم! وكثير من الحكام وكثير من الملحدين لم يعلنوا استنكارهم لما يحدث ، لأنهم مشغولون بإبادة الدعاة في بلادهم .

لقد تربَّوا على محاربة الإسلام عن طريق مناهج التعليم ، ووسائل الإعلام، وحاولوا إقناع الشعوب الإسلامية بأن الإسلام رجعية وجمود وتأخُّر، واستغلوا كل شيء تقريباً لإقناع الناس بذلك ، بما فيهم: المفكرون والكُتَّاب ، والسينمائيون والإذاعيون والتلفزيونيون ، والقصاصون ، والمسرحيون والفنانات والفنانون ، والأولاد والبنات المنحلُّو الأخلاق ، وبتوفير المواد السامة من المخدرات بتخطيط من الصهيونية العالمية ، وبدأ العالم شرقيُّه وغربيُّه يحارب الإسلام والمسلمين ، وفي مقدمتهم اليهودية العالمية ، وبدأ يتكتل ويتحد للوقوف في وجه الخطر الإسلامي -كما يعتقد- تخطيطاً سرياً في الماضي ، وسرياً وعلنياً في الحاضر .

نيكسون يقول : الخطر هو الإسلام

عندما سأل الصحفيون نيكسون الرئيس الأمريكيَّ الأسبق حين عاد من جولة قام بها في أفغانستان لدراسة الأحوال هناك :

ماذا وجدت هناك ؟ فأجاب نيكسون :

وجدت أن الخطر هو الإسلام ! ويجب أن نصفّي خلافاتنا مع روسيا في أقرب وقت ، فروسيا على أي حال بلد أوروبي ، والخلاف بيننا وبينها قابل للتسوية ، أما الخلاف الذي لا يقبل التسوية فهو الخلاف بيننا وبين الإسلام!!.

فرنسا لن تسمح بقيام دولة أصولية في أوروبا

وهذا وزير خارجية فرنسا يصرح : أننا لن نسمح بقيام دولة أصولية في أوروبا ، وهو يعلق بذلك على الأحداث في البوسنة والهرسك وذبح المسلمين هناك .

الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم

يقول القس سيمون : إن الوحدة الإسلامية تجمع لآمال الشعوب الإسلامية ، وتساعد على التملص من السيطرة الأوربية ، والتبشير عامل مهم في كسر شوكة هذه الحركة ، من أجل ذلك يجب أن نحول بالتبشير المسلمين عن الوحدة الإسلامية[١] .

وقد كُشِف أخيراً عن الوثيقة التي كتبها وزير المستعمرات البريطانية (أورسي جو) لرئيس حكومته حيث قال : إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الامبراطورية أن تحذره وتحاربه وليست انجلترا وحدها هي التي تلتزم بذلك ، بل فرنسا أيضاً ، ومن دواعي فرحنا أن الخلافة الإسلامية قد زالت ، لقد ذهبت ونتمنى أن يكون ذلك إلى غير رجعة . . . إن سياستنا تهدف دائماً وأبداً إلى منع الوحدة الإسلامية أو التضامن الإسلامي ، ويجب أن تبقى هذه السياسة كذلك .

---

(١) كيف هدمت الخلافة ص١٩٠ ، نقلاً من كتاب دمروا الإسلام أبيدوا أهله لجلال العالم ص ٦٨-٦٩ .

إننا في السودان ونيجيريا ومصر ودول إسلامية أخرى شجعنا – وكنا على صواب – نمو القوميات المحلية فهي أقل خطراً من الوحدة الإسلامية أو التضامن الإسلامي ، ومن الخطر أن الوحدة العربية قد تكون تمهيدية لإقامة وحدة إسلامية ، وضرورة الحذر من هذا الاتجاه حتى لا يواجه الاستعمار خطر عودة الإسلام . . . هذه هي الخطة التي ما زالت تفرض نفسها[١] .

دور بعض الشعوب والجماعات الإسلامية في تدمير الإسلام والمسلمين

لهذا فإن من المؤسف والمخجل أن ينحرف المسلمون عن مبادى دينهم العظيمة ، ويتمسكوا بالعادات والتقاليد المنافية للإسلام ، وينشغلوا بمعارك جانبية ، بدلاً من أن يتحدوا ويتجمعوا للوقوف في وجه أعدائهم الحقيقيين الذين يريدون إبادتهم وتصفية عقيدتهم وجعلهم كالأنعام ! .

إن أعداء الإسلام ليشعرون بالبهجة والفرح يغمر قلوبهم عندما يشاهدون بعض الشعوب الإسلامية وهي تذبح بعضها البعض ، غارقة في جاهليتها ، منحرفة عن عقيدتها ومبادئها ، لأن هذه الشعوب الضالة قد وفرت عليهم الكثير من الجهد والتخطيط .

لقد أجمع العالم غير الإسلامي على محاربتنا وإبادتنا ، ونحن مشغولون بنزاعات عرقية تافهة ، أو حدود مصطنعة ، بدون أن نبذل أي جهد لإيقاف هذا التخلّف المزري في حياتنا الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والفكرية والخُلُقيّة .

دور الأغنياء المسلمين

لا أحد يتصور أن المسلمين في كثير من البلاد ذات الأقلية المسلمة لم يترجموا حتى الآن أي كتاب عن سيرة الرسول ﷺ ، أو سيرة الخلفاء

---

(١) مجلة الدعوة ، السعودية ، العدد ١١٨٠ ، نقلاً من كتاب : اعترافات متأخرة لمحمد عبد العزيز المسند .

الراشدين والفتوحات العظيمة التي تمت في عهدهم ، إلى لغاتهم المحلية ، ولم يؤلفوا كتاباً فيه من الأحاديث النبوية ما يشمل نظام الشريعة الإسلامية ، أو تفسيراً لبعض سور القرآن الكريم ، مع أن البعض ينفق الآلاف في سبيل الافتخار والاستعلاء والمظاهر الفارغة ، وبعضهم ينفق مئات الألوف أو الملايين في سبيل الانتخابات !.

إذاً كيف يعرف الناس الحلال والحرام ، وكيف يفهم الناس عقيدتهم إذا كانوا لا يملكون كتاباً إسلامياً واحداً .

هناك الكثير من الأغنياء في تلك المناطق ، ولكنهم لم يوفَّقوا لعمل إسلامي جادّ ، كترجمة أمهات الكتب الإسلامية وطبعها ، أو تجمع فئة من أغنياء التجار للقيام بمشروع يخفف من البطالة المتزايدة في المنطقة ، ويرفع من مستوى الحالة الاقتصادية في البلاد .

واقع المسلمين في كثير من البلاد الإسلامية

وهكذا خسر المسلمون هناك إيجاد النموذج الإسلامي الصحيح حيث انتشر الربا ، واقتنع الكثيرون أن هذا من مستلزمات التجارة والربح ! والله تعالى يقول : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾[1] .

وانتشر الفساد وشرب الخمر ، وإدمان المخدرات ، وفقدان الأمانة ، وأكل أموال الناس بالباطل ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾[2] .

ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ

---

(١) سورة البقرة ، الآية (٢٧٥).
(٢) سورة البقرة ، الآية (١٨٨).

ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾[1] .

والرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه يقول : « من اقتطع حق امرى مسلم بيمينه - أي بالحلف والقسم - فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة وإن كان قضيباً من أراك ». رواه مسلم .

الله أكبر ! قضيب من أراك وما يماثل قيمته يؤدي لدخول النار ، ذلك لأن المسلم لا يمد يده إلى ما لا يحل له فيقتطعه ظلماً من أخيه ، أو يأخذه بدون حق ، ولأنه « لا إيمان لمن لا أمانة له » والأمانة ليست فقط أن تؤدي ما ائتمنك عليه آخر ، بل كل ما يقوله أو يفعله المسلم أمانة في عنقه .

إذاً كيف يقتنع الناس من غير المسلمين بصلاح هذا الدين وعظمة هذا الدين إذا كان أتباعه والمنتسبون إليه يرتكبون هذه الموبقات !.

إنهم بعملهم وتصرُّفهم هذا يشوِّهون الإسلام ، ويرتكبون أعظم جريمة بحق أنفسهم وحق دينهم ، ويصرون على إعطاء النموذج السيء للمجتمع الإسلامي ، وللمحبة الإسلامية والتعاون الإسلامي !.

والمسلم لا ينصب نفسه جسراً للتشفِّي والانتقام كي يعبر عليه أصحاب المطامع الخفية من أعداء الدين ، إنما يصبر ويحتسب ، ولا يقول إلا حقاً ، ولا يتصرف إلا بما يرضي الرب تبارك وتعالى .

علاقة المسلم بأخيه المسلم

كما أنه يجب أن تكون علاقة المسلم بأخيه المسلم علاقة الودّ والمحبة ، والإخلاص والتفاني ، والتراحم والتوادد والتعاطف ، حتى لو اختلفوا في الرأي أو الانتماء ، وحتى لو بدر من أخيه كلمة نابية أو انتقاد فعليه أن

---

(١) سورة النساء ، الآية (٥٨).

يتحمله ، لأن الله أمره بذلك ، كما قال سبحانه : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[١].

ويقول سبحانه : ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[٢].

وقال الله تعالى : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾.

ويقول سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٣].

ولهذا فقد اهتم المسلمون الأوائل بعلاقة بعضهم ببعض للوصول إلى الدرجة العالية الكريمة عند الله ، فنبذوا العصبيات الجاهلية ، وتخطوا الحدود العرقية جميعها ، وتوحَّدوا تحت راية الإسلام ، فتعانق الحبشي والرومي ، والفارسي والعربي ، والتقت قلوبهم وتآلفت أرواحهم ، وتآخت في ظلال هذه المبادئ السامية ، وقدموا لنا أروع الأمثلة في التضحية والفداء في سبيل العقيدة والدين والأخوة الإسلامية ، كلٌّ حسب درجة إيمانه وعقيدته .

روابط العنصرية والعصبية

أما الروابط الأخرى : روابط العنصرية ، وروابط المادة ، والمنافع الدنيوية ، فإنها تهبط بهم إلى الخسران المبين ، خسران الدنيا والآخرة ، حيث تنقطع الروابط الحميمة ، وتنقلب إلى عداوة مشينة إلا رابطة العقيدة ، رابطة

---

(١) سورة المائدة ، الآية (٥٤).
(٢) سورة التوبة ، الآية (١١).
(٣) سورة الحشر ، الآية (١٠).

الإيمان الصادق ، كما قال سبحانه : ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[١] .

وقال سبحانه : ﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴾[٢] .

إخلاص العمل لله

فلا رباط يدوم إلا رباط التقوى ، ورباط الإيمان . جاء في كتب السنة والسيرة النبوية الشريفة أن أبا طالب عم الرسول ﷺ الذي كان يحوط الرسول ﷺ ويمنعه من زعماء قريش المشركين ومن سفهائهم ، أنه لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ ، وعنده أبو جهل وآخرون من زعماء المشركين من قريش فقال له : « أيْ عم قل : لا إله إلا الله ، كلمةً أُحاجُّ لك بها عند الله » .

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب ؟! . فلم يزالا يكلِّمانه حتى قال : على ملة عبد المطلب . فقال النبي ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أُنْه عنك » فنزلت : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾[٣]، ونزلت : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾[٤].

وفي « الصحيح » عن العباس بن عبد المطلب أنه قال للنبي ﷺ : ما أغنيت عن عمك ؟ فإنه كان يحوطُك ويغضبُ لك ،قال : « هو في ضَحْضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار » .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية (٤٣).
(٢) سورة عبس ، الآيات (٣٤-٣٧).
(٣) سورة التوبة ، الآية (١١٣).
(٤) سورة القصص ، الآية (٥٦).

وعن أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي ﷺ - وذُكِر عنده عمه - فقال : « لعله تنفعُه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار تبلغ كعبيه » . رواه البخاري .

الأخوة الصادقة

لهذا لا بد من أن يكون العمل خالصاً لوجه الله سبحانه ، ولإعزاز دين الله ، وإقامة حكم الله ، ولا بد أن تكون علاقاتنا على أساس الأخوة الإيمانية الصادقة الخالصة من الأهواء والمصالح ، فالمسلم يحبُّ لإخوانه ما يحبُّ لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لها ، ويؤثرهم على نفسه ، كما وصف الله سبحانه المؤمنين بقوله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1] .

ومن هنا كانت الأخوة الصادقة صفة ملازمة للإيمان ، فلا أخوة بدون إيمان ، ولا إيمان بدون أخوة ، لأنها إن وجدت فهي أخوة مصالح ومنافع ، أخوة نفاق ، أخوة مظاهر ، أخوة دنيا ! .

إن الأخوة الصادقة لتجمع بين المؤمن وأخيه المؤمن ، وتؤلف بينهما أشد التآلف ، ولم يسبق بينهما لقاء أو تعارف ، ويقول الرسول ﷺ : « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه »[2] .

والحديث المشهور « سبعة يظلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظله » ومنهم : « ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه » . رواه الشيخان .

أحاديث في الحب في الله والبغض في الله

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : كنت جالساً عند النبي ﷺ فقال : « أتدرون أيُّ عرى الإيمان أوثق ؟ » قلنا : الصلاة قال : « إن

---

(١) سورة الحشر ، الآية (٩).

(٢) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » ، والترمذي وقال : « حسن غريب ».

الصلاة حسنة ، وما هي بها » فذكروا شرائع الإسلام ، فلما رآهم لا يصيبون قال : « أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله » رواه أحمد والبيهقي والطبراني .

وقال عليه الصلاة والسلام : « قال الله تعالى : المتحابُّون بجلالي في ظل عرشي يومَ لا ظلَّ إلا ظلِّي »[1] .

وفي حديث آخر : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابُّون بجلالي ؟ اليوم أُظلُّهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » . رواه مسلم .

وقال عليه الصلاة والسلام : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً » . رواه البخاري .

وقال عليه الصلاة والسلام: « مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . متفق عليه .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من أصبح وهُمّه الدنيا فليس من الله في شيء ، ومن لم يهتمَّ بأمر المسلمين فليس منهم »[2] .

وقال ﷺ : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا » . أخرجه مسلم .

لهذا لا بد أن تعود هذه الأخوة الإسلامية للمجتمع المسلم أفراداً وجماعات ، وقبائل وشعوباً ، على نفس الأسس التي قامت عليها يوم أن أسس رسول الله ﷺ مجتمعه العظيم ، فكان جسداً واحداً متآلفاً متعاوناً متماسكاً .

---

(١) أخرجهما الإمام أحمد في « المسند » ، والبيهقي في « الشعب » .
(٢) رواه الطبراني .

وجاء في الحديث القدسي : « المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم عليها النبيون والشهداء »[١].

وقال الإمام مالك رحمه الله : المحبة في الله من واجبات الإسلام ، وهي دأب أولياء الله تعالى [٢].

وعلى هذا فليس لأحد أن يستغرب ما نزل بالمسلمين من البلاء ، ما دامت الأخوة فيهم قد أنهكها المرض ، وأعياها الأنين .

إن الأخوة الإيمانية ضرورة اجتماعية لا غنى لأي فرد عنها ، كي تنتظم حياته ويهنأ عيشه .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[٣].

وقال عليه الصلاة والسلام : « كل المسلم على المسلم حرام ، ماله وعرضه ودمه ، حسْب امرى من الشر أن يحقر أخاه المسلم »[٤].

فهل توقفنا عن إيذاء بعضنا البعض ، وظلم بعضنا البعض ، واتهام بعضنا البعض بالباطل ، واحتقار بعضنا البعض .

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، أنه سمع النبي ﷺ يقول : « لن تؤمنوا حتى تراحموا » قالوا : يارسول الله كلنا رحيم! قال : « ليس برحمة أحدكم صاحبه ، ولكنها رحمة الناس ، رحمة العامة »[٥].

قال ابن حجر رحمه الله عند شرحه للحديث « ترى المؤمنين في توادهم

---

(١) رواه الترمذي وأحمد .
(٢) « جواهر البخاري » ص ٢٥.
(٣) سورة الأحزاب ، الآية (٥٨).
(٤) رواه الترمذي .
(٥) رواه الطبراني كما في « مجمع الزوائد ».

وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » قال فيما نقله عن ابن أبي جمرة : فأما التراحم : فالمراد به أن يرحم بعضهم بعضاً بأخوة الإيمان ، لا بسبب شيء آخر[١] .

فالأخوة يجب أن تكون موفورة بين كل المؤمنين ، والرحمة قائمة بينهم بسبب من إيمانهم ، وليس من أجل ما بينهم من روابط وعلائق ، أو بفضل ما ينتظرونه من منافع ، أو ما يتوقعونه من مصالح[٢] .

وقال ﷺ : « إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، يألَمَ المؤمنُ لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس »[٣] .

وعن النعمان بن بشير ، عن النبي ﷺ أنه قال : « المؤمنون كرجل واحد ، إذا اشتكى رأسه اشتكى كله ، وإن اشتكى عينه اشتكى كله » . أخرجه مسلم .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[٤] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذِبه ، ولا يخذُله »[٥] .

وفي حديث آخر : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يُسْلمه » . رواه البخاري ومسلم .

وورد عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن رب العزة جل وعلا أنه قال : « حقَّتْ محبتي على المتحابين فيّ ،

---

(١) « فتح الباري » ١٠ : ٤٣٨ .
(٢) من كتاب « والإخوتاه حنين يردد الفؤاد صداه ، للشيخ محمود فؤاد الطباخ .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ٥ : ٣٤٠.
(٤) سورة التوبة ، الآية (٧١).
(٥) رواه الترمذي .

وحقت محبتي للمتناصحين فيّ ، وحقت محبتي على المتزاورين فيّ ، وحقت محبتي على المتباذلين فيّ ، على منابر من نور ، يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون »[١] .

حبهم لله ، وتزاورهم لله ، ومجالستهم لله ، يأتمرون بأمر الله ، ويتناهون عما نهى الله عنه ، كل واحد يوصي إخوانه بما يراه كفيلاً للنهوض بهم نحو الصواب ، ليتعاونوا على نشر هذا الدين والدعوة إليه .

الرسول الأعظم يعلن المساواة الكاملة وأخوة الإسلام في حجة الوداع

وفي حجة الوداع قال من ضمن خطبته ﷺ :« تعلمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم ، وإن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمُنَّ أنفسكم »[٢] .

من هو الأفضل من المؤمنين

وعن عبد الله بن عمر ، أن فتى من الأنصار أقبل وسلم على رسول الله ﷺ ثم جلس ، فقال : يا رسول الله صلى الله عليك : أي المؤمنين أفضل ؟ قال: « أحسنهم أخلاقاً » قال : فأي المؤمنين أكيس ؟ قال : « أكثرهم ذكراً للموت ، وأحسنهم استعداداً له قبل أن ينزل به ، أولئك الأكياس»[٣] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لاتباغضوا ولاتنافسوا ، وكونوا عباد الله إخوانا » . رواه البخاري .

حد الهجران بين المسلمين

وروى البخاري ومسلم في صحيحهما أنه صلوات الله وسلامه عليه قال :

---

(١) أورده الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١٠ : ٢٧٨ .
(٢) « سيرة ابن هشام » ٤ : ٢٧٥ .
(٣) « الترغيب والترهيب » ٤ : ٢٣٨ .

« لايحل لأحد أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان فيصدُّ هذا ، ويصدُّ هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام » .

تحريم الجنة على من مات وهو هاجر لأخيه المسلم

وعن هشام بن عامر الأنصاري - ابن عم أنس بن مالك - وكان قتل أبوه يوم أحد ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يحل لمسلم أن يصارم مسلماً فوق ثلاث ، فإنهما ناكبان عن الحق ماداما على صرامهما ، وإن أولهما فيئاً يكون سبقُه بالفيء كفارة له ، وإن سلم عليه فأبى أن يقبل تسليمه وسلامه رد عليه الملك ، ورد على الآخر الشيطان ، وإن ماتا على صرامهما لم يدخلا الجنة جميعاً أبداً »[1].

هجران المسلمين كسفك دمائهم

وعن أبي خراش السلمي ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من هجر أخاه سنة فهو بسفك دمه »[2].

الأفضل لمن يبدأ بالسلام

وعن أبي أيوب الأنصاري ، أن رسول الله ﷺ قال : « لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام يلتقيان فيعرض هذا ، ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام » . رواه البخاري.

وعن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « ثلاث من لم يكنَّ فيه غفر له ماسواه لمن شاء : من مات لا يشرك بالله شيئاً ، ولم يكن ساحراً يتبع السحرة ، ولم يحقد على أخيه »[3].

---

(١) رواه أحمد وغيره .

(٢) « الأدب المفرد » رقم (٤٠٦).

(٣) المصدر السابق رقم (٤١٣).

حق المسلم على المسلم

ومن حقوق المسلم على المسلم - كما قال رسول الله ﷺ - : « حقُّ المسلم على المسلم ست » قيل : وما هي ؟ قال : « إذا لقيتَه فسلِّم عليه ، وإذا دعاك فأَجِبْه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمِّتْه ، وإذا مرض فعُدْه ، وإذا مات فاتبعه »[١] .

وفي رواية للترمذي : « ويحبُّ له ما يحب لنفسه » بدل : « وإذا استنصحك فانصحه » .

وفيما يرويه البراء بن عازب رضي الله عنه قال : أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ، ونهانا عن سبع ، أمرنا بعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وتشميت العاطس ، وإبرار المقسِم ، ونصر المظلوم ، وإجابة الداعي ، وإفشاء السلام . . . . رواه الشيخان.

ويقول عليه الصلاة والسلام : « لا تَبَاغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا - عباد الله - إخواناً ، لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث » . رواه مسلم .

وقال عليه الصلاة والسلام : « والذي نفسي بيده لاتدخلوا الجنة حتى تسلموا ، ولا تُسلموا حتى تحابوا ، وأفشوا السلام تحابّوا ، وإياكم والبغضةَ ، فإنها هي الحالقة ، لا أقول لكم تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدِّين ! »[٢] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ما من مسلمين يلتقيان أخذ أحدهما بيد

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد رقم (٩٢٥).
(٢) المصدر السابق رقم (٢٦٠).

صاحبه إلا كان حقاً على الله أن يحضر دعاءهما ولا يفرق بينهما حتى يغفر لهما »[١].

وذلك لأن التقاءهما كان لله ، وفي سبيل الله ، وكان تصافحهما دليلاً على تصافي القلوب ، والحب في الله ، فالسلام والمصافحة يزيدان المحبة والعلاقة بينهما إخلاصاً ومودةً ، ويبعدان الهجران والضغائن ، مع أن الهجران من الأمور المحرمة في الإسلام حيث قال عليه الصلاة والسلام : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيُعرض هذا ، ويُعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ صاحبه بالسلام » . رواه البخاري ومسلم .

ومن حقوق الأخوة الإسلامية كذلك : أن تبتسم لأخيك ، حيث يقول عليه الصلاة والسلام : « كل معروف صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طَلْق ، وأن تُفْرغ من دلوك في إناء أخيك »[٢].

وقال جرير البجلي : ما رآني رسول الله ﷺ منذ أسلمت إلا تبسم في وجهي .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ثلاثة من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحبَّ المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقْذف في النار» . رواه البخاري .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملَك الموكَّل به : ولك بمثلٍ » . رواه مسلم .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « تعرض الأعمال في كل اثنين وخميس

---

(١) ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٨:٣٧.
(٢) رواه أحمد ٣:٣٦٠.

فيغفر الله لكل امرى لا يُشرك بالله شيئاً إلا امرءاً كانت بينه وبينْ أخيه شحناء ، فيقول : اتركوا هذين حتى يصطلحا » . رواه مسلم .

وقال عليه الصلاة والسلام : « المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمن يكفُّ عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه »(١) .

وعن أبي أمامة ، عن رسول الله ﷺ قال : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله : فقد استكمل الإيمان »(٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « كنْ وَرِعاً تكن أعبد الناس ، وكن قَنِعاً تكن أشكر الناس ، وأحبَّ للناس ما تحبُّ لنفسك تكن مؤمناً ، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً »(٣) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أَفْشُوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وكونوا إخواناً كما أمركم الله »(٤) .

وقال ﷺ : « والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أفلا أدلكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم ؟ » ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « أفشوا السلام بينكم » رواه مسلم .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا أحب أحدكم أخاه فَلْيُعْلِمه أنه يحبُّه »(٥) .

وعلى من يقال له ذلك أن يجيب : أحبَّك الله الذي أحببتني له .

كيف تنتشر المحبة بين المسلمين

يقول ﷺ : « والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا

---

(١) رواه أبو داود والبخاري في « الأدب المفرد » .

(٢) رواه أبو داود .

(٣) « سلسلة الأحاديث الصحيحة » رقم (٣٩) .

(٤) « سلسلة الأحاديث الصحيحة » رقم (١٥٠١) .

(٥) رواه أبو داود والترمذي والبخاري في « الأدب المفرد » .

حتى تَحَابُّوا ، أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أَفْشوا السلام بينكم » .

معنى ذلك : أن تسلِّم على من لقيتَ ممن عرفت ومن لم تعرف ، ومعنى ذلك : أن تبتسم في وجوه الناس ، تبسمك في وجه أخيك صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة[1].

إن الإيمان لا يمكن أن يكمل لدى المسلم ، والمحبة لا يمكن أن توجد إلا بإنهاء العصبية الجاهلية ، وجميع أنواع الطبقيات ليبقى حبهم لله سبحانه وتعالى ، وإخاؤهم لله ، وفي الله ، حتى يصلوا إلى رضوان الله .

نحن كلنا لآدم ، جَمَعَنا كتاب واحد وسنة واحدة ، وإمامنا وقائدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وآخى بيننا الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ .

إن من يأتي ليفاضل بين الأسر والقبائل ، ويحزب الفتن ، إنما هو عدو لله ورسوله .

إن من يأتي ليفاضل بين الناس بسبب أسرهم وعائلاتهم وقبائلهم وجنسهم ، إنما هو متعدّ على حدود الله ، منتهك لحرمات الله !! .

يقول عليه الصلاة والسلام : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يُسْلِمه ، ولايخذله ، ولايحقِره ، بحسب امرى من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » .

كيف تحب لأخيك ما تحب لنفسك

ويقول ﷺ : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وفي رواية صحيحة للنسائي وغيره : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه من الخير » .

---

(١) من محاضرة قيمة للشيخ عايض القرني .

ومن أعظم الخير أن تحب له أن يستقيم وأن يهتدي ، وأن يصلي الصلوات الخمس في جماعة ، وأن يتفقه في الدين ، وأن تنصحه بذلك وتهتم بأمره وخاصته ، وإن رأيته يفعل مايسيء فعليك أن تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر بلطف ومودة ومحبة ، فإن لم تفعل ذلك فإنك لاتحب له الخير .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « إن روح المؤمنَيْن ليلتقيان في مسيرة يوم ومارأى أحدهما صاحبه » .

الإيثار : معناه وفضيلته

ومن دلائل المحبة الصادقة : الإيثار . وهو أن تؤثره بفضلك ، أي أنك تفضِّله على نفسك ، وتخصُّه بصلتك ، رغبة في نيل الأجر والثواب عند الله، ولا ينشأ ذلك إلا عن قوة في اليقين ، وقدرة على الصبر والمشقة ، وصدق في الأخوة والانتماء . كما قال سبحانه في صفة المؤمنين : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وقال سيد البشر ﷺ : « اتقوا الشحَّ فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » . رواه مسلم .

روي أن رجلاً أتى النبيَّ ﷺ فقال : أصابني الجهد ! فأرسل ﷺ إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ! فقال رسول الله ﷺ : « ألا رجلٌ يُضِيف هذا الليلة يرحمه الله » فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ، فذهب إلى أهله فقال لامرأته : ضيف رسول الله ﷺ لا تدَّخريه شيئاً ، قالت : والله ما عندي إلا قوتُ الصِّبْية ! قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوِّميهم وتعاليْ فأطفئي السراج ، ونطوي بطوننا الليلة ، ففعلت .

أي : أنهما أطفأا السراج ، وتظاهرا بالأكل ليتمكن الضيف من أخذ حاجته من الطعام دونهما . ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام : « لقد عجب الله عز وجل - أو : ضحك - من فلان

وفلانة » وأنزل الله عز وجل : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[١].

كيف يفضل المسلم أخاه المسلم على نفسه

كان من رجالات الإسلام – بعد دخوله فيه – عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه ، الذي وقف يوم اليرموك ينادي : من يبايع على الموت ؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام ، وضرار بن الأزور ، وآخرون بلغوا الأربعمائة ، فقاتلوا أمام فسطاط خالد بن الوليد رضي الله عنه ، حتى أُثبتوا جميعاً بين قتيل وجريح .

ومما حصل لهؤلاء الثلاثة في تلك الموقعة أن أحدهم طلب ماء فجيء إليه بشربة ماء ، فلما قدِّمت إليه سمع آخر يقول : ماء ! فقال لحامل الماء : ادفعها إليه ولم يشرب ، فلما دُفعت إلى الثاني سمع آخر يقول : ماء ! فقال: ادفعها إليه ولم يشرب ، وهكذا تدافعوها كلهم من واحد إلى واحد حتى ماتوا ولم يشربها أحد منهم[٢] !! .

إحسان الظن بأخيك

ويجب أن تحسن الظن بأخيك . يقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[٣].

وقال عليه الصلاة والسلام : « إياكم والظنَّ فإن الظن أكذبُ الحديث » رواه البخاري .

ولهذا فإن على الأخ المسلم أن يحمل كل ما يراه من إخوانه على الاحتمال الحسن ، وأن يتذكر دائماً وقبل الحكم على ما يراه من أخيه قولَ الرسول

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ج٣ ص٢٤٠ كتاب البر والصلة .

(٢) التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر .

(٣) سورة الحجرات ، الآية (١٢).

ﷺ: « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرى ما نوى » رواه الشيخان.

صديقك من صدقك

إن نصحك لأخيك المسلم بالكلمة الطيبة والكلام اللطيف دليل على محبتك إياه ، واهتمامك به ، وأنك تتمنى صلاحه وهدايته ، أما إذا لم تقم بأي نصح أو تصرف لتقويمه أو إيقاف ظلمه : فهذا دليل على عدم اهتمامك به ومحبتك له ورحمتك إياه من عقاب رب العالمين ، وهو عمل عدائي غير إنساني حتى لو لم تقصد ذلك ، وهي من الصفات السيئة التي تتنافى وخلق المسلم .

نصح المسلم لأخيه المسلم

والحقيقة الواضحة أنه عندما ينصحك أخوك المسلم ويبين لك خطأك في أمر ما فإن هذا يعني أنه يحبك ، ويهمُّه أمرك ، ويخاف عليك أن تعذَّب بالنار غداً ، ويخشى عليك من عقاب الله ، لأنك أخ مسلم عزيز حبيب إلى قلبه ، أما إذا شاهدك على خطأ ، ولم يبين لك ، ولم ينصحك : فهو عدو لك في الحقيقة لايريد لك الخير ولايهمه أمرك .

فالمفروض على الأخ المسلم عندما ينصحه أخوه أو يمنعه من عمل ما حرم الله : أن يكون سعيداً بأخيه ، وأن يشكره وأن يزداد له حباً واحتراماً ، لأنه أراد له الخير والعافية في الدنيا والآخرة ، ولو أن كل مسلم قام بواجبه حيال إخوانه الآخرين لما وصل الحال إلى هذه الدرجة من السوء .

وجوب النصيحة وقبولها

ولا بد للمسلم من نصح أخيه بلطف ومودة ومحبة ، وأن يكون ذلك بينهما بستر وأدب واحترام ، بدون توبيخ أو تشهير أو إفشاء للعيوب ، لأن ذلك يؤدي أحيانا إلى إشاعة الفاحشة بين المؤمنين ، وهو قبيح ومنهي عنه ،

حيث يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١).

وعلى الأخ المسلم قبول النصيحة من أخيه ، والسرور بذلك ، وقد جعل الحسن البصري التقدم بالنصيحة خصلة ضرورية للمؤمن الذي هو مرآة أخيه ، إن رأى منه ما لايعجبه سدَّده وقوَّمه ووجَّهه وحاطه بالسر والعلانية .

وعن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن النصيحة من إحسان الصلات الإخوانية وواجباتها ، وذلك قوله : من وصل أخاه بنصيحة له في دينه ، ونظر له في صلاح دنياه ، فقد أحسن صلته وأدَّى واجب حقه .

وأما الحارث المحاسبي رحمه الله فقد جعله دليل الحب فقال : واعلم أن من نصحك فقد أحبك ، ومن داهنك فقد غشك ، ومن لم يقبل نصيحتك فليس بأخ لك(٢).

فالمؤمن الصادق يفرح بنصيحة أخيه ، والمداهن المنافق يضجر منها ، وقد وصف الله الكافرين ببغضهم للناصحين ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾(٣).

وللناصح الحق في أن يُسْقط من عينه من يردُّ نصيحته ، وأن يستنَّ بسنة الشافعي رحمه الله التي بَيَّنها في قوله : ما نصحت أحداً فقبل مني إلا هِبْتُه واعتقدت مودته ، ولا ردَّ أحد عليَّ النصح إلا سقط من عيني ورفضته .

وقال سبحانه : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾(٤).

---

(١) سورة النور ، الآية (١٩).
(٢) من « رسالة المسترشدين » للمحاسبي بتحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة.
(٣) سورة الأعراف ، الآية (٧) .
(٤) سورة المائدة ، الآية (٥) .

وقد قال ﷺ : « من موجبات المغفرة : بذل السلام ، وحسن الكلام ». أخرجه ابن أبي شيبة والطبراني وقال : « والكلمة الطيبة صدقة » .

أطره على الحق أطرا

والعفو عن أخيك المسلم في جميع الأمور ، ومحاولة نصحه وتقويمه واجب شرعي ، وسواء كانت زلته في حق الله سبحانه ، أو في حق إخوانه ، أو حق الناس ، وفي كل الأحوال يجب ردُّه رداً جميلاً للحق والصواب ، وإذا كان قد ظَلَم أحداً من البشر فيجب إقناعه بردِّ المظلمة ، وردّ الحق لأصحابه ، والاعتراف بالحق ، وإذا أصّر على الرَّفض والعصيان ولم تنفع معه الحسنى فيجب أَطْره على الحق أطراً ، أي إجباره بالقوة ، وخاصة من قبل عائلته وإخوانه وجماعته ، وردُّ المظلمة لأصحابها ، لأن هذا من صفات المجتمع المسلم .

يقول عليه الصلاة والسلام : « اُنصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً » فقال رجل : يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً ، أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره ؟ قال : « تحجزه أوتمنعه عن الظلم ، فإن ذلك نصره » . رواه البخاري .

العفو وصوره

كذلك : لا بد من العفو عن الزلات والأخطاء التي تحدث من إخوانك بحقك ، فإن من صفات المسلم العفو عن إخوانه ، والعفو عمن أساء إليه ، وخاصة العفو في الدماء ، خاصة إذا كانت غير مقصودة ، كالقتل الخطأ ، وحوادث السيارات ، وخروج الطلقة بدون قصد فأصابت القتيل أو المصاب ، أو القتل شبه العمد ، وكلها لا يجوز فيها القصاص .

فلا بد للمسلم أن يفرق ويميز بين حوادث القتل ، وخاصة إذا كان القتيل دخل ليسرق أو يغتصب أو يعتدي على حياة الآخرين بدون حق ، واكتُشِف أمره ، وقتل لهذا السبب دفاعاً عن النفس ، أو العرض أو المال ، حيث

عجز عن اكتفاء شره بطريقة أخرى ، فلا يجوز القصاص في هذه الحالة .

أما الاستمرار في هذه الفوضى في إباحة الدماء وإزهاق أرواح الأبرياء بدون حق وبدون ذنب سوى أن قريباً لهم قتل آخر : فإن هذا محرم تحريماً قطعياً ، وعليه إثم كبير وغضب من الله ، ومصيره إلى جهنم .

لأن على أولياء القتيل أن يبحثوا عن القاتل الحقيقي ، ويقتصوا منه ، أما أن يقتلوا أخاه أو أباه ، أو ابنه أو أحد أقربائه ، أو جماعته - رغم عدم علاقته بالحادث - فإن هذا من الكبائر وعصيان لأوامر الله ورسوله .

فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[1] .

وسبب نزول هذه الآيات أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه ، وذلك أن عيّاشاً قتل رجلاً كان يعذّبه مع أخيه على الإسلام ، وهو الحارث بن يزيد العامري ، فأضمر له عياش السوء ، فأسلم العامري وهاجر وعياش لا يشعر ، فلما كان يوم الفتح رآه عياش فظن أنه لا زال مشركاً ، فحمل عليه فقتله ، فأنزل الله هذه الآية .

أبو بكر الصديق ومسطح

وأما إذا كان أخوك قد أخطأ بحقك في قول أو عمل فإن الله أمرنا بالعفو

---

(١) سورة المائدة ، الآية (٢).

عن زلات إخواننا ، حيث قال سبحانه : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾[1] .

فهذه الآية نزلت في الصحابي الجليل أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين قطع على نفسه ألاّ يعين مِسْطح بن أُثاثة ، أو ينفعه بشيء ، لاشتراكه في الخوض بحادثة الإفك على السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، والتي أشاعها كبير المنافقين عبد الله بن أُبيّ ابن سلول .

وعندما نزلت هذه الآية ، أشرقت روح أبي بكر الصديق ، وتألَّقتْ نفسه وعفا عن زلَّة مسطح وقال رضي الله عنه : بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، وأعاد إلى مسطح نفقته التي كان يعطيه إياها ، رغم أن مسطح هذا أساء إلى ابنة أبي بكر ، وهي زوجة الرسول الأعظم خاتم الأنبياء والمرسلين ، وهي أم المؤمنين رضي الله عنهم جميعاً .

ومن الطريف : أن أم مسطح كانت تدعو على ابنها المذكور غضباً عليه ، نتيجة تصرُّفه السيء ، وهي التي أبلغت عائشة رضي الله عنها بما كان يقوله ، ثم أنزل الله براءة أم المؤمنين بقرآن يتلى إلى يوم القيامة .

فالإنسان معرّض للخطأ في كل وقت وفي كل حين ، ولذلك أُمر المسلم دوماً بالاستغفار والتوبة إلى الله في كل وقت ، والاعتراف بخطئه وتقصيره ، واستسماحه من إخوانه ، لأن الإصرار على الخطأ ليس من صفات المؤمن ، بل من صفات المتكبرين ، وهناك الدعاء العظيم المشهور الذي علمه سيدنا رسول الله ﷺ للصديق الأكبر رضي الله عنه ، أن يقوله ويدعو به في صلاته : « اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي

---

(١) سورة النور ، الآية (٢٢).

مغفرة من عندك وارحمني ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك إلا خيراً وأن تجد لها في الخير محملاً .

ويقول ابن المبارك رحمه الله : المؤمن يطلب المعاذير ، والمنافق يطلب العثرات[1] .

ابن سيرين يصفح عمن شتمه وظلمه

قالوا عن ابن سيرين : كان إذا أقبل على فراشه نفض فراشه ثم قرأ سورة الإخلاص ثلاثاً ، والمعوِّذات ثلاثاً ، ثم يقول : اللهم اغفر لمن شتمني ولمن ظلمني ولمن سبني . اللهم اغفر لمن فعل ذلك من المسلمين .

رجل من أهل الجنة

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال : « يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة » فطلع رجل من الأنصار تَنْطُفُ لحيته من وَضوئه قد علق نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأول .

فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو ، فقال له : إني لاحيت أبي - أي : غاضبته - فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيتَ أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت ، قال : نعم .

قال أنس : فكان عبد الله يُحَدِّث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تَعَارَّ - استيقظ في الليل - تقلب على فراشه

---

(١) « مختصر تفسير ابن كثير » للشيخ محمد علي الصابوني ٣ : ٣٦٤.

وذكر الله عز وجل وكبَّر حتى صلاة الفجر .

قال عبد الله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الثلاث الليالي ، وكدت أن أحتقر عمله قلت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضبٌ ولا هُجْرة ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » ، فطلعت أنت الثلاث مرات ، فأردت أن آوي إليك ، فأنظر ما عَمَلُك ، فأقتدي بك ، فلم أرك عملت كبير عمل ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟

قال : ما هو إلا ما رأيتَ . فلما وليتُ دعاني فقال : ما هو إلا ما رأيتَ غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه ، فقال عبد الله : هذه التي بلغت بك[1] .

هذا هو الإيمان : لا غلَّ ولا حسد ولا حقدَ ، يقول الله سبحانه : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2] .

ورد في البعض التفاسير أن جارية للإمام زين العابدين كانت تصب عليه ماء الوضوء ، فسقط الابريق على رأسه فشج وجهه فرفع بصره لها فقالت : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ فقال : كظمت غيظي . فقالت : ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ ﴾ فقال : عفوت عنك . فقالت : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فقال : أنت حرة لوجه الله[3] .

اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون

ولما اشتد البلاء على رسول الله ﷺ بعد موت عمه خرج من مكة المكرمة

---

(١) رواه أحمد في « مسنده » ٣:١٦٦ ، وقال المنذري في « الترغيب والترهيب » ٣:٥٤٩ : رواه أحمد - بإسناد على شرط البخاري ومسلم - والنسائي .

(٢) سورة آل عمران ، آية (١٣٤).

(٣) من حاشية الصاوي على الجلالين ج١ص١٦٤.

إلى الطائف لدعوة أهلها إلى الإسلام ، فكذَّبوه وأرسلوا صبيانهم فخذفوه – أي : ضربوه – بالحجارة حتى سالت الدماء من أقدامه ، فكان يمسح الدم عن رجليه ويقول : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » ، وأرسل الله إليه ملك الجبال فقال له : يامحمد هل تريد أن أطبق عليهم الأخشبين ؟ – وهما جبل أبو قُبيس وجبل قُعيقعان ، محيطان بمكة – فقال عليه الصلاة والسلام : « لا ، ولكني أسأل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً » .

المؤمن يتهم نفسه بالتقصير

وفي سيرة سالم بن عبد الله بن عمر علاّمة التابعين رضي الله عنهم أجمعين أن رجلاً زاحمه في مِنى ، فالتفت الرجل إلى سالم وقال له : إني لأظنك رجل سوء ! فقال سالم : ما عرفني أحد إلا أنت . لأن سالماً يشعر في نفسه أنه رجل سوء ، لأن المؤمن يتهم نفسه بالتقصير كلما رآها تعالتْ أو تطاولتْ أو نسِيَت ! كما أنه يلوم نفسه ويحاسبها ، لكن الفاجر والمنافق يزكِّي نفسه أمام الناس .

إصلاح ذات البين

وعلى الأخ المسلم أن يسعى للإصلاح بين المؤمنين قبل أن تستفحل المنازعات وتتضاعف ، وتؤدي إلى ما لايحلّ ، يقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[1] .

وإذا لم يبادَر إلى الإصلاح فوراً سيزداد الأمر خطورة ، وسيستعين كل فريق بأقربائه وجماعته ، فيزداد الأمر سوءاً واشتعالاً وضراوة ، طبقاً للعادات والتقاليد الجاهلية المنافية للإسلام . وهكذا ينتشر العداء بين

---

(١) سورة الحجرات ، آية (١٠).

العائلات ، وتصبح الأمة أشتاتاً متفرقين ، لا همَّ لكل فريق إلا الطعن بالفريق الآخر .

لهذا كان الإصلاح من أعظم الوسائل لإنهاء النزاعات والعداوات بين الأفراد وبين الأسر والقبائل ، ولا يصدر الإصلاح إلا من القلوب النبيلة المملوءة إيماناً وحباً . وإني لأعرف الكثير من العلماء الفضلاء الذين سعوا للإصلاح ونجحوا .

عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « ألا أحدثكم بما هو خير لكم من الصدقة والصيام: صلاح ذات البين. ألاوإن البغضة هي الحالقة»[١] .

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « ثلاثة من لم يكنَّ فيه غُفِر له ما سواها لمن شاء : من مات لا يشرك بالله شيئاً ، ولم يكن ساحراً يتبع السحرة ، ولم يحقد على أخيه »[٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة ؟ » قالوا : بلى قال : « إصلاح ذات البين ؛ وفساد ذات البين هي الحالقة »[٣] .

ولا بد لمن يقوم بهذا العمل من تقوى الله ومراقبته حتى لا يتخطى العدل في الإصلاح ، كما قال سبحانه : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾[٤] .

الأخوة الإسلامية سر عظمة المسلمين ونجاحهم

إن الأخوة في الله تشمل جانباً عظيماً في حياة المسلمين ، فهي رمز عزهم ووحدتهم ، وسر نجاحهم ونهضتهم ، التي جمعت أبناء الإسلام أول مرة ،

---

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » رقم (١٤٨).
(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد ج١ص١٤٩
(٣) رواه أبو داود والترمذي .
(٤) سورة الأنفال الآية (١).

وأقامت دولته ، وعليها ركز رسول الله ﷺ في تأسيس الأمة ، فإذا فقدت هذه الأخوة فهذا يعني دمار الأمة وتفككها ، ولهذا لا بد أن تعود للجسد صحته وعافيته ، فيتطهر من رواسب الجاهلية ويتحرر من كل أثر لعصبية أو جنسية أو إقليمية .

فمن وجد في نفسه فضلاً ومكرمة على أحد من إخوانه المؤمنين ، أو أحس في داخله احتقاراً أو انتقاصاً لواحد منهم - على أساس جنس أو عرق أو لون أو ثروة أو منصب - فليرجع إلى إيمانه يتفقده قبل أن يطلبه فلا يجده .
قال عز شأنه : ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ ﴾[1] .

ودعوى الأخوة والتنطع بها في المجالس والمناسبات أمر يسير ، لكن التزامها واقعاً وسلوكاً أمر غير يسير ، يحتاج إلى جهاد كبير في مقاومة النفس الأمارة بالسوء ، وإرغامها بالوقوف عند حدودها ، والانتصار على الشيطان الذي يجري مجرى الدم في عروق الإنسان ! .

إن الانتصار على الأهواء ، وعلى حب الذات ، وحب الظهور والبروز والتفاخر بالأموال والأولاد ، والمناصب والاستعلاء على الآخرين لن ينجح فيه إلا الفئة المؤمنة الصادقة المملوءة إيماناً ويقيناً بوعد ربها .

إن دعوى الأخوة تحتاج إلى دليل عملي في تدعيم أركانها ، وبرهان صادق في تطبيق حقوقها ، وترسُّم خطاها واقعاً وسلوكاً .

ولهذا المعنى أكَّد الله عز وجل في كتابه العظيم ضرورة التزام الأعمال الصالحة فكرر في كتابه الكريم قوله مرات ومرات : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ . . . إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ . . . فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ . والعمل الصالح هو البرهان الصادق على صدق

---

(١) سورة سبأ الآية (٣٧).

دعوى (لا إله إلا الله) ودعوى تطبيق ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ .

وعن رسول الله ﷺ : « أتدرون من المسلم ؟ » فقالوا: الله ورسوله أعلم ، قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » ، قالوا : فمن المؤمن ؟ قال : « من أَمِنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم »(١) .

وقال : « إن الله يكره أذى المؤمنين »(٢) .

وحدة المسلمين

إن وحدة المسلمين شعوباً وحكومات على أساس إسلامي كامل ، وحدة إسلامية حقيقية كاملة ،بحيث يصبحون أمة واحدة ، وحكومة واحدة : أمر لا بد منه إذا أراد المسلمون العودة إلى دينهم والتمسك بكتاب ربهم وسنة نبيهم ، إذا أرادوا البقاء بعزة وكرامة على هذا الكوكب ، إذا أرادوا أن ينصروا الله الواحد الأحد سبحانه .

إن العمل على وحدة المسلمين يجب أن يكون هدف كل مسلم يؤمن بالله رباً ، وبمحمد نبياً ، وبكتاب الله دستوراً وحكماً وتشريعاً ، وبالإسلام ديناً وعقيدةً .

إن على كل مسلم أن يساهم عملياً في وحدة المسلمين ، وفي الأخوة الإسلامية ، والمحبة الإسلامية بين جميع المسلمين في أنحاء العالم أجمع ، والعمل على زيادة روابط العقيدة بين المؤمنين .

إن عليك أخي المسلم أن تسلّم على إخوانك المسلمين في أي مكان تراهم ، ومن أي جنس أو لون كانوا ، وتشعرهم بمحبتك واهتمامك وأخوّتك .

---

(١) أخرجه الطبراني والحاكم وصححه .
(٢) أخرجه ابن المبارك .

مساعدة أخيك المسلم أفضل من الاعتكاف في مسجد رسول الله ﷺ

فهل أبديت استعدادك مرة لخدمة أحدهم أو تقديم المساعدة له ؟.

يقول ﷺ : « أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس ، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور يدخله على مسلم ، أو يكشف عنه كربة ، أو يقضي عنه ديناً ، أو يطرد عنه جوعاً ، ولأن أمشي مع أخي في حاجة ، أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد - مسجد الرسول ﷺ - شهراً »[١].

الابتسامة لأخيك المسلم

هل حاولت مرة أن تبتسم برقة لأحدهم ، وتزيل العبوس من وجهك .

يقول ﷺ : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » .

ويقول ﷺ :« كل معروف صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طليق ، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك »[٢].

ويقول ﷺ : « تهادَوْا تحابّوا تذهب عنكم الشحناء »[٣].

هل خاطبت أحداً منهم بكلمة : يا أخي ، أو يا بني إذا كان أصغر منك ؟ .

هل حاولت أن تُرشد أحدهم إن كان ضائعاً أو تائهاً ، أو تطعمه إن كان جائعاً ، أو تسقيه إن كان ظامئاً ؟ .

هل حاولت أن تنصر أخاك المسلم سواء بإحقاق الحق ، أو إبطال الباطل، وردع المعتدي ، وإجارة المظلوم ، لأنه لا يجوز ترك أخيك المسلم يكافح وحده في المعترك ، بل لا بد من الوقوف بجانبه ، وإرشاده إن ضل ،

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٩٠٦).
(٢) أخرجه أحمد والترمذي .
(٣) أخرجه مالك في الموطأ .

وحجزه إن تطاول ، والدفاع عنه إن هوجم أو ظُلم ، والقتال معه إن استبيح .

مسؤولية صاحب الجاه والمنصب

وهل حاولت تسهيل أمور إخوانك المسلمين ؟ خاصة إذا كنت ذا جاه في المجتمع ، أو صاحب منصب ، لأن للجاه والمنصب زكاة تؤدى كما تؤدى زكاة المال ، فإذا رزقك الله سيادة في الأرض وتمكيناً بين الناس ، فليس ذلك لتنتفخ وتزهو وتتعالى ، وإنما يسر الله لك ذلك ليربط بعنقك حاجات لا تقضى إلا عن طريقك ، فإذا أنت سهلتها فقد قمت بالحق المفروض عليك ، وأحرزت الثواب الموعود ، وإلا فقد جحدت النعمة .

مساعدة المسلمين

هل حاولت مساعدة المسلمين في أنحاء العالم وخاصة الأقليات الإسلامية ، بالمساهمة في بناء المدارس الإسلامية ، أو الكتب الإسلامية ، عن طريق المنظمات الإسلامية العالمية ، سواء كانت هيئة الإغاثة الإسلامية أو غيرها ؟ .

هل حاولت خلال سفرك وتجوالك أن تزور بلداً إسلامياً أو أقلية مسلمة ، وتتفقد أوضاعها وأحوالها ، وتحاول تقديم مساعدة لأهلها ولمدارسها ومساجدها ، كتأمين مكتبة إسلامية لهم ، أو ترجمة كتاب إسلامي مهم للغتهم لرفع مستواهم الديني .

إن الدولة السعودية تنفق آلاف الملايين سنوياً لتحسين وسائل الحج مساهمة منها في نشر المحبة الإسلامية ، والأخوة الإسلامية ، ولكن مساهمتك شخصياً لها تأثير عظيم قد لا تشعر بها ، ولا تقدرها حق قدرها .

المساهمة بالابتسامة ، وبالكلمة الطيبة ، وبالحديث العذب ، وبالتحية

الصادقة ، وتقديم المساعدة الشخصية في إرشادهم وتوجيههم وإسعافهم ومساعدتهم واحترامهم .

إن هذا التصرف الشخصي له تأثير عظيم في نشر المحبة الإسلامية ، وقد يؤدي إلى إزالة المفاهيم السيئة والاعتقادات الخاطئة التي قد تكون ترسبت في أعماقهم نتيجة الدعايات العكسية من أعداء الدين في بلادهم .

وإياك أن تسخر من إخوانك المسلمين ، أو تحتقرهم أو تحتقر أجناسهم أو تستهزىء بأشكالهم أو ألوانهم ، أو تسمح لأحد أياً كان أن يفعل ذلك فإن فعلت ذلك أو بعضه فقد ارتكبت جريمة وإثماً بحق نفسك ، وأسأت إلى دينك وعقيدتك ، وأخطأت بحق بلدك وولاة أمرك .

إن إشعارك للمسلمين بمحبتك واحترامك واهتمامك ومساعدتك لهم من أعظم الواجبات ، وأفضل القربات ، ومن العبادات التي أمر بها الله ورسوله .

يقول عابد الحرمين الفضيل بن عياض : لأنْ يلاطف الرجل أهل مجلسه ويحسن خلقه معهم خير له من قيام ليله وصيام نهاره . وهذا بيان لما روته عائشة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن المؤمن ليُدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار »[1].

* * * * *

---

(٢) المشكاة ج٣ص١٤٠٩.

الفصل الرابع عشر
من صفات المجتمع المسلم

يقول الله سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1] .

يقول الشهيد سيد قطب - رحمه الله - في كتابه « في ظلال القرآن » :

إنها دعوة للمؤمنين باسم الإيمان ، بهذا الوصف المحبب إليهم ، والذي يميزهم ويُفْرِدهم ، ويصلهم بالله الذي يدعوهم. . . دعوة للذين آمنوا أن يدخلوا في السلم كافة. . . .

وأول مفاهيم هذه الدعوةِ أن يستسلم المؤمنون بكلياتهم لله ، في ذوات أنفسهم ، وفي الصغير والكبير من أمرهم ، أن يستسلموا الاستسلام الذي لاتبقى بعده بقية ناشزة من تصور أو شعور ، ومن نية أو عمل ، ومن رغبة أو رهبة ، لاتخضع لله ولاترضى بحكمه وقضاه ، استسلام الطاعة الواثقة المطمئنة الراضية ، الاستسلام لليد التي تقود خطاهم وهم واثقون أنها تريد بهم الخير والنصح والرشاد ، وهم مطمئنون إلى الطريق والمصير ، في الدنيا والآخرة سواء .

ويقول في موضع آخر :

ومعرفة المؤمن بأن غاية الوجود الإنساني هي العبادة ، وأنه مخلوق ليعبد

---

(١) سورة البقرة ، الآيات (٢٠٨،٢٠٩).

الله . . . من شأنها - ولا شك - أن ترفعه إلى هذا الأفق الوضيء ، ترفع شعوره وضميره ، وترفع نشاطه وعمله ، وتنظف وسائله وأدواته ، فهو يريد العبادة بنشاطه وعمله ، وهو يريد العبادة بكسبه وإنفاقه ، وهو يريد العبادة بالخلافة في الأرض وتحقيق منهج الله فيها ، فأولى به ألا يغدر ولا يفجر ، وأولى به ألا يغش ولا يخدع ، وأولى به ألا يطغى ولا يتجبر ، وأولى به ألا يستخدم أداة مدنسة ولا وسيلة خسيسة ، وأولى به ألا يستعجل المراحل ، وألا يتعسف الطريق ، وألا يركب الصعب من الأمور ، فهو بالغٌ هدفه من العبادة بالنية الخالصة والعمل الدائب في حدود الطاقة . . . ، ومن شأن هذا كله ألا تثور في نفسه المخاوف والمطامع ، وألا يستبد به القلق في أية مرحلة من مراحل الطريق ، فهو يعبد في كل خطوة ، وهو يرتقي صعداً إلى الله في كل نشاط وفي كل مجال .

وشعور المؤمن بأنه يمضى مع قدرِ الله ، في طاعةِ الله ، لتحقيقِ إرادة الله . . . ، وما يسكبه في هذا الشعور في روحه من الطمأنينة والسلام والاستقرار ، والمضيِّ في الطريق بلاحيرة ولاقلق ولاسخط على العقبات والمشاق ، وبلاقنوط من عون الله ومدده ، وبلاخوف من ضلال القصد أوضياع الجزاء . . . ، ومن يحس بالسلام في روحه حتى وهو يقاتل أعداء الله وأعداءه ، فهو إنما يقاتل لله ، وفي سبيل الله ، ولإعلاء كلمة الله ، ولايقاتلُ لجاهٍ أو مغنم أو نزوة أو عرض ما من أعراض هذه الحياة .

كذلك شعوره بأنه يمضي على سنة الله مع هذا الكون كله ، قانونُه قانونُه ، ووجهته وجهته ، فلاصدام ولاخصام ، ولاتبديد للجهد ولابعثرة للطاقة ، وقوى الكون كله تتجمع إلى قوته ، وتهتدي بالنور الذي يهتدي به ، وتتجه إلى الله وهو معها يتجه إلى الله .

والتكاليف التي يفرضها الإسلام على المسلم كلها من الفطرة ولتَصحِيحِ

الفطرة ، لاتتجاوز الطاقة ، ولا تتجاهل طبيعة الإنسان وتركيبه ، ولا تهمل طاقة واحدة من طاقاته لا تطلقها للعمل والبناء والنماء ، ولا تنسى حاجة واحدة من حاجات تكوينه الجثماني والروحي لا تلبِّيها في يسر وفي سماحة وفي رخاء. . . ، ومن ثم لا يحار ولا يقلق في مواجهة تكاليفه ، يحمل منها ما يطيق حمله ، ويمضي في الطريق إلى الله في طمأنينة وروح وسلام .

والمجتمع الذي ينشئه هذا المنهج الرباني ، في ظل النظام الذي ينبثق من هذه العقيدة الجميلة الكريمة ، والضمانات التي يحيط بها النفسُ والعرضُ والمالُ كلها مما يشيع السلم وينشر روح السلام .

هذا المجتمع المتوادُّ المتحاب المترابط المتضامن المتكافل المتناسق ، هذا المجتمع الذي حقَّقه الإسلام مرة في أرقى وأصفى صوره ، ثم ظل يحقِّقه في صور شتى على توالي الحقب ، تختلف درجة صفائه ، ولكنه يظل في جملته خيراً من كل مجتمع آخر صاغتهُ الجاهليةُ في الماضي والحاضر ، وكل مجتمعٍ لوثته هذه الجاهلية بتصوراتها ونظمها الأرضية .

هذا المجتمعُ الذي تربطه آصرة واحدة - آصرة العقيدة - حيث تذوب فيها الأجناس والأوطان ، واللغاتُ والألوان ، وسائر هذه الأواصر العَرَضية التي لا علاقة لها بجوهر الإنسان. . . .

هذا المجتمع الذي يَسْمَعُ الله يقول له : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾والذي يُرَى صورته في قول النبي الكريم : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسدِ إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسدِ بالحمى والسهر » . رواه مسلم .

هذا المجتمع من آدابه : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾[1] ،

---

(١) سورة النساء ، الآية (٨٦).

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[1]، ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[2]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[3]، ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾[4].

هذا المجتمع الذي من ضماناته : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾[5]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ... ﴾[6]، و . . . « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله ». رواه الشيخان .

ثم هذا المجتمعِ النظيفُ العفيف الذي لا تشيع فيه الفاحشة ، ولا يتبجح فيه الإغراء ، ولا تروجُ فيه الفتنةُ ، ولا ينتشر فيه التبرجُ ، ولا تتلفت فيه الأعين على العورات ، ولا ترف فيه الشهوات على الحرمات ، ولا ينطلق فيه سُعَار الجنس وعُرَامة اللحم والدم كما تنطلق في المجتمعات الجاهلية قديماً وحديثاً . . . .

هذا المجتمع الذي تحكمه التوجيهات الربانية الكثيرة ، والذي يسمع الله - سبحانه - يقول : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ

---

(١) سورة لقمان ، الآية (١٨).
(٢) سورة فصلت ، الآية (٣٤).
(٣) سورة الحجرات ، الآية (١١).
(٤) سورة الحجرات ، الآية (١٢).
(٥) سورة الحجرات ، الآية (٦).
(٦) سورة النور ، الآية (١٩).

أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾، ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾، ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1].

والذي يخاطب فيه نساء النبي – أطهر نساء الأرض في أطهر بيئة في أطهر زمان – : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[2].

وفي مثل هذا المجتمع تأمَنُ الزوجة على زوجها ، ويأمَنُ الزوج على زوجته، ويأمَنُ الأولياء على حرماتهم وأعراضهم ، ويأمَنُ الجميع على أعصابهم وقلوبهم ، حيث لا تقع العيون على المفاتن ، ولا تقود العيونُ القلوبَ إلى المحارم ، فإما الخيانة المتبادلة حينذاك وإما الرغائب المكبوتة وأمراض النفوس وقلق الأعصاب. . . ، بينما المجتمع المسلم النظيف

---

(١) سورة النور ، الآيات (١٩، ٢، ٤، ٣٠، ٣١).

(٢) سورة الأحزاب ، الآية (٣٣).

العفيف آمن ساكن ، ترف عليه أجنحة السلم والطهر والأمان ! .

أخيراً إنه المجتمع الذي يكفل لكل قادرٍ عملاً ورزقاً ، ولكل عاجزٍ ضمانة للعيش الكريم ، ولكل راغبٍ في العفةِ والحصانةِ زوجة صالحةً ، والذي يعتبر أهل كل حي مسئولين مسئولية جنائية لو مات فيهم جائعٌ ، حتى ليرى بعض فقهاء الإسلام تغريمهم بالدية .

والمجتمع الذي تكفل فيه حريات الناس وكرامتهم وأموالهم بحكم التشريع ، بعد كفالتها بالتوجيه الرباني المطاع ، فلا يؤخذ واحد فيه بالظِّنَّة ، ولا يتسور على أحد بيته ، ولا يتجسسُ على أحدٍ فيه متجسسٌ ، ولا يذهب فيه دم هدرا والقصاص حاضر ، ولا يضيع فيه أحد ماله سرقة أو نهبا والحدود حاضرة .

المجتمع الذي يقوم على الشورى والنصح والتعاون ، كما يقوم على المساواة والعدالة الصارمة التي يشعر معها كل أحد أن حقه منوط بحكم تشريع الله لا بإرادة حاكم ، ولا هوى حاشية ، ولا قرابة كبير.

وفي النهاية. . . المجتمع الوحيد بين سائر المجتمعات البشرية ، والذي لا يخضع البشر فيه للبشر ، إنما يخضعون حاكمين ومحكومين لله ولشريعته ، وينفذون حاكمين ومحكومين حكم الله وشريعته ، فيقف الجميع على قدم المساواة الحقيقية أمام الله رب العالمين وأحكم الحاكمين ، وفي طمأنينة وفي ثقة وفي يقين. . . .

هذه كلها بعض معاني السلم الذي تشير إليه الآية وتدعوا الذين آمنوا للدخول فيه كافة ، ليسلموا أنفسهم كلها لله ، فلايعود لهم منها شيءٌ ، ولايعود لنفوسهم من ذاتها حظٌ ، إنما تعود كلها لله في طواعيةٍ وفي انقيادٍ وفي تسليم. . . .

ولا يدرك معنى هذا السلم حق إدراكه من لا يعلم كيف تنطلق الحيرة ،

وكيف يعربد القلق في النفوس التي لاتطمئن بالإيمان ، في المجتمعات التي لا تعرف الإسلام ، أو التي عرفته ثم تنكرت له ، وارتدت إلى الجاهلية ، تحت عنوان من شتى العنوانات في جميع الأزمان . . . هذه المجتمعات الشقية الحائرة على الرغم من كل ما قد يتوفر لها من الرخاء المادي والتقدم الحضاري ، وسائر مقومات الرقي في عُرفِ الجاهليةِ الضالةِ التصورات المختلة الموازين .

ولما دعا الله الذين آمنوا أن يدخلوا في السلم كافة . . . حذرهم أن يتبعوا خطوات الشيطان ، فإنه ليس هناك إلا اتجاهان اثنان ، إما الدخول في السلم كافة ، وإما اتباع خطوات الشيطان ، إما هدى وإما ضلال ، إما إسلام وإما جاهلية ، إما طريق الله وإما طريق الشيطان ، وإما هدى الله وإما غواية الشيطان . . . وبمثل هذا الحسم ينبغي أن يدرك المسلم موقفه ، فلا يتلجلج ولا يتردد ولا يتحير بين شتى السبل وشتى الاتجاهات .

إنه ليس هناك مناهج متعددة للمؤمن أن يختار واحداً منها ، أو يخلط واحداً منها بواحد . . . كلا ! إنه من يدخل في السلم بكليته ، ومن لا يسلم نفسه خالصةً لقيادة الله وشريعته ، ومن لا يتجرد من كل تصورٍ آخر ومن كل منهج آخر ومن كل شرعٍ آخر . . . إن في هذا سبيل الشيطان ، سائر على خطوات الشيطان . . . .

ليس هناك حلٌ وسطٌ ، ولا منهج بينَ بينَ ، ولا خطة نصفها من هنا ونصفها من هناك ! ، إنما هناك حق وباطلٍ ، هدى وضلال ، إسلام وجاهلية ، منهج الله أو غواية الشيطان ، والله يدعو المؤمنين في الأولى في الدخول في السلم كافة ، ويحذرهم في الثانية من اتباع خطوات الشيطان ، ويستجيش ضمائرهم ومشاعرهم ، ويستثير مخاوفهم بتذكيرهم بعداوة

الشيطان تلك العداوة الواضحة البينة ، التي لا ينساها إلا غافل ، والغفلة لا تكون مع الإيمان[١] .

(١) من كتاب « في ظلال القرآن » لسيد قطب .

الفصل الخامس عشر
عقيدة المسلم
والهدف من وجوده على الأرض

إن المطلوب من الناس لكي يصبحوا مؤمنين أن يعبدوا الله مخلصين له الدين ، وليس مجرد أن يعرفوا أن لهم رباً ، أو أنَّ ربهم واحد ، فقد كان الشيطان يعرف ذلك .

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[1] .

وكل عمل أَمر الله به ورسوله يعتبر عبادة ، والإخلاص هو الشرط المطلوب لكي تصح العبادة ، وتصبح مقبولة عند الله ، وليس كافياً أن تقول فقط : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، لأن لهذه الكلمة شروطاً وقواعد ، لا بد من اتباعها ، ومنها : اتباع حكم الله ونبذ العادات الجاهلية وتحكيم شرع الله .

يقول الله سبحانه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[2] .

والرسول ﷺ أُمر بالدعوة والتبليغ . قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾[3] .

---

(١) سورة الحجر ، الآيات (٣٩،٤٠).

(٢) سورة النساء ، الآية (٦٥).

(٣) سورة النحل ، الآية (١٢٥).

إن هذه الأمة الإسلامية ليست أمة عنصرية ولا عرقية ، كدعوى بني إسرائيل الذين قالوا إنهم شعب الله المختار .

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾[١] .

إن العقيدة الصحيحة في اليوم الآخر مبنية على أن الله لا يظلم أحداً ، ولا يحابي أحداً كذلك .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[٢] .

واجب المسلم في تحكيم شريعة الله في كل أمر وشأن

إن تحكيم شريعة الله في كل أمر ، وفي كل شأن ، وفي كل قضية هو السعادة الحقيقية للمؤمن على هذه الأرض ، حيث البركة والطمأنينة ، وحين تحكم الجاهلية وتحكم الآراء والأهواء والشهوات والطاغوت يَظْهر الفساد في الأرض ، وينتشر القتل ، وسفك الدماء ، وأكل الأموال بالباطل ، وهتك الأعراض ، وتنتشر الجرائم ، وتفقد الأمانة ، وينتشر الظلم ، ويصبح الناس أعداء لبعضهم البعض ، ويبتليهم الله بالذل والمهانة ويفقد الأمن وتعم الفوضى .

واقع المسلمين اليوم

لا يحتاج المسلم الواعي ليدرك أن واقع المسلمين اليوم هو أسوأُ ما مرَّ بهم في تاريخهم كله ، ولا يحتاج إلى كبير جهد ليدرك أن أوضاع المسلمين من السوء بحيث تجعلهم أسوأ بكثير ، حتى من الجاهلية المحيطة بهم ، فالتخلف

---

(١) سورة المائدة ، الآية (١٨).

(٢) سورة الزلزلة ، الآيات (٧،٨).

المزري بهم في الحياة الاقتصادية ، والاجتماعية ، والعلمية والعسكرية والخلقية قد بلغ مداه !! وهذا الضعف المزري لا أمام القوى العالمية وحدها بل أمام أصغر القوى وأضألها في آسيا وأفريقيا ، فهي تستأسد على المسلمين، وتقيم لهم المذابح بين الحين والحين ، كما قال خاتم الأنبياء والمرسلين : « يُوشِك أن تَدَاعى عليكم الأمم كما تَدَاعى الأَكَلة إلى قصعتها » ، قالوا : أَمِن قِلَّة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال :« بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غُثاء كغُثاء السيل ، ولينزعن الله مهابتكم من صدور أعدائكم ، وليقذفنَّ في قلوبكم الوَهَن » ، قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : « حبُّ الدنيا وكراهية الموت »[1].

الإصرار على العنصرية والقبلية يعني الذل والمهانة والإبادة

ومن الأسباب الرئيسية لذلك : هذه العنصرية الرهيبة ، التي تجعل المسلمين تَذبح وتَقتل بعضها البعض ، إننا بتمسكنا بهذه العادات نرتكب جريمة بحق أنفسنا ، وبهذا الأسلوب ندمر حياتنا بأيدينا ونقضي على أنفسنا، إن التمسك بالعنصرية عمل انتحاري يؤدي إلى سفك الدماء في سبيل الطاغوت ، إنه يدل على الغباء والجهل الرهيب ، إنه الدمار والكره والحقد والعداء ! إنه يفرق بين المسلمين ، ويفرق بين القرى والمدن ، ويجعل لكل منها حدوداً وعلامات كحدود الدول .

إنها تؤدي إلى الخوف والرعب والبلاء وفقدان الرحمة والشفقة . إنها تؤدي إلى المصائب وإلى كل ما هو سيء حتى بين الأرحام والأقرباء ، فيفرق بينهم، ويدمرهم ، ويجعلهم يعيشون في خوف ورعب وقلق ! .

إن البعض يعتقد أنهم خلقوا من نوع خاص يختلف عن البشر الموجودين

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود .

على الأرض ! وربما يعتقدون أن لهم قوة خارقة على الآخرين ، ومميزات غير موجودة لدى الشعوب الأخرى ! .

إنهم يعيشون في خيالاتهم وأوهامهم ، مصِّرين على غَيهم وضلالهم بدون أن يقف العقلاء والعلماء الموقف المشرِّف الذي يوقف هذه المهزلة البشرية التي تحدث ! .

لقد حاول البعض إقناع الناس بالتوقف عن هذا العبث ولكنهم قلة لا تكفي .

إلى أين أيها العنصريون

لقد قاتلتم وسفكتم الدماء في سبيل الأهواء والشهوات وفي سبيل الشيطان، وفي سبيل أن يسيطر رجل أو رجال عنصريون على مقاليد الأمور، لقد سخروكم لمعصية الله واقتراف الآثام والموبقات في سبيل الجنس والعرق والقبيلة .

لقد خسرتم دنياكم وآخرتكم وبُؤْتُم بغضب الله وعقابه ، إن هؤلاء الذين قادوكم لهذا السبيل قد ضحكوا عليكم وخدعوكم وكذبوا عليكم وهم في أعماقهم يعلمون أنكم في منتهى الغباء والجهل ، وسيتبرؤن منكم ومن أعمالكم يوم لا ينفع مال ولا عصبية ولا قبيلة .

لقد قدمتم المثل السيء والقدوة القبيحة ، ليس للمسلمين فقط بل للبشرية جمعاء ، حيث مكنتم أعداء الإسلام من الاستهزاء بنا وبديننا نتيجة حماقتكم وشهوتكم ونفوسكم المريضة .

يجب أن تعلموا أنه لن ينتصر أحد منكم بعنصريته وعرقيته ، ولو قرأتم التاريخ لأخذتم العبرة ولاقتنعتم بخطئكم وحماقتكم .

ألم يأن لكم أن تعلموا أن من يدفعكم لهذا السبيل هو عدوٌ لكم ، وأنه يخطط لضلالكم وبقائكم جهلة مهانين مدمرين ولن تقوم لكم قائمة

إلابالعودة للأخوة الإيمانية التي أمر الله بها ورسوله ، فإن شئتم فإن طريق الهداية والسعادة وخير الدنيا والآخرة واضح كالشمس أمامكم مفتوح على مصراعيه ، وباستطاعتكم وُلُوجُه واختياره ، أما إذا أصررتم على الضلال والانحراف فإن هذا شأنكم ، ولن تضروا إلا أنفسكم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الافتخار بالانتساب لمحمد

إن المسلمين يفتخرون جميعاً بانتسابهم لمحمد عليه الصلاة والسلام ، فهو إمامنا وأستاذنا وزعيمنا عليه الصلاة والسلام لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام !.

كنا قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام في الظلمات والجهل ، كان أجدادكم وأجدادنا قبل (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وثنيّون يعبدون الأصنام والحيوانات والكواكب !.

كان العرب قبل الإسلام في غاية الجهل والانحطاط ، القويُّ يأكل الضعيف ، والقبيلة القوية تحارب القبيلة الأخرى ، فتستولي على نسائها وأطفالها كما تستولي على أنعامها وحيواناتها ، فجاء عليه الصلاة والسلام فأشرقت الدنيا بنوره بعد أن كانت مظلمة ، أتى إلى الأمة الضائعة المبعثرة الجاهلة الجاحدة الظالمة ، أتى إلى جدِّي وجدِّك فجمعهم تحت مظلة (لا إله إلا الله) .

ماذا فعلت العنصرية لنا

هل ألَّفت العنصرية بين قلوب المسلمين ؟ وهل نشرت الحب والإخاء والرحمة بين المسلمين كما يأمر به الإسلام ؟ وهل أوقفت قتل الناس لبعضهم البعض وخطفهم واستباحة دمائهم ؟!!.

وهل أوقفت العداء المنتشر بين العائلات والأسر والأفراد ووحَّدت بينهم؟ .

فلنعد إلى ديننا العظيم قبل أن يسلِّط الله علينا الأعداء والظلمة فيدمِّرَنا ويهلكنا نتيجة ظلمنا وإسرافنا على أنفسنا . ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[1] .

مفهوم لا إله إلا الله

لقد توهم البعض أنهم إذا نطقوا بأفواههم (لا إله إلا الله محمد رسول الله) بدون أن يفهموا معناها ، وبدون أن يعرفوا مقتضياتها ، وبدون أن يطبِّقوا شروطها ، وقاموا ببعض العبادات فقد طبقوا الإسلام كلَّه ، وفازوا برضاء الله ، ولا مانع بعد ذلك أن يكذبوا على الناس ، ويغشّوهم ويخدعوهم ويخلفوا وعودهم ، فهم لا يخلصون في عملهم ، ولا يؤدون أماناتهم ، ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، ولا يعملون على وقاية أنفسهم وأهليهم من النار باجتناب ما حرم الله ، ولا يهتمون بأمر المسلمين ، ولا ينفقون ولا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم للدعوة في سبيل الله ، ولا يرحمون بعضهم البعض ، ولا ينصرون المظلوم ، بل يجبنون عن إيقاف الظالم ومقاومة الجرائم ، ويتفاخرون بجنسهم وأصلهم وأموالهم ووظائفهم ، ويتكبرون على الله وعلى الناس ، ثم يعتقدون في أنفسهم أنهم أدوا العبادة .

متى يأتي النصر

ومن الأوهام كذلك : أنهم توهموا أنهم ما داموا مسلمين - على المعنى الذي يفهمونه - فسينصرهم الله ، وسيوفقهم ، وسيقضي لهم حوائجهم ، وينجح مقاصدهم ، مهما يكن حالهم ، ومهما تكن حقيقة أعمالهم !! .

---

(١) سورة الكهف ، الآية (٢٩).

لقد قال الله للمؤمنين : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[1] .

لقد هُزِم المؤمنون وفيهم رسول الله ﷺ في معركة أحد حين عصوا أمر الرسول ﷺ .

وهزم أغلبهم يوم حنين وفيهم رسول الله كذلك ، حين أعجبتهم كثرتهم وقال بعضهم : لن نغلب اليوم من قلة ! وبقي الرسول ﷺ في قلة ، وانتصر على المشركين قبل عودة كثير من المنهزمين ، حدث هذا وهم خير القرون ، فكيف بأوضاعنا الراهنة الغارقة في البدع والمعاصي ؟!! .

أفكان الله ناصرهم وهم لا ينصرونه لمجرد دعواهم أنهم مؤمنون ؟! أفكان الله موفقهم وهم يعصونه ولا يقومون بواجبهم نحوه ؟! أفكان ينجح مقاصدهم وقلوبهم مشغولة عن ذكره غافلة عن أمره ونهيه ؟! .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[2] .

* * * * *

---

(١) سورة محمد ، الآية (٧).

(٢) سورة النساء ، الآية (٤٠).

الفصل السادس عشر
تحكيم الإسلام في أمور الحياة كلها

إن المسلمين إذا أرادوا أن يكونوا مسلمين حقاً عليهم أن يحكِّموا الدين والعقيدة في أمورهم كلها ، وفي كل قضية أو أمر يعرض لهم ، فيجب البحث عن الحكم الإسلامي ، والحل الإسلامي ، والتشريع الإسلامي ، وعليهم الابتعاد عن الرأي والعاطفة والاتجاهات العنصرية والعِرْقيّة والقَبَلية وترك عادات وتقاليد الأسرة والقبيلة المنافية للإسلام ، وبهذا نحقق خيرات الأخوة الإيمانية ، ونتخلص من أضرار العنصرية وأوبئتها .

متى تكون الطاعة ومتى يكون العصيان

إن عليهم أن يصروا على حكم الإسلام كما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، ورفض أي اعتقاد أو رأي أو حكم ، حتى لو كان هذا الرأي صادراً من زعماء القبيلة ، أو من آبائهم أو من أمهاتهم ، لأن على المسلم أن يجعل ولاءه لله ورسوله فقط .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحبَّ وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية ، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة ». رواه البخاري ومسلم .

كتاب الله وسنة رسوله أولاً

لهذا فإن كل جماعة أو رابطة أو أفراد يحكِّمون رأيهم وعاداتهم وتقاليدهم وعواطفهم وأهواءهم دون الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله هو قرار باطل ، ولا بد من العودة إلى خيرة البشر وأقدر الناس على فهم كتاب الله وسنة رسوله ، وهم علماء الأمة الأتقياء ، الذين اتخذوا هذا الدين منهاجاً

وهدفاً في حياتهم ، ولا بد من اختيار العلماء العاملين العابدين الأتقياء ، المطبِّقين لهذا الدين ، الذين تعلَّموا العلم الإسلامي لوجه الله سبحانه ، علماء عقيدة ، لا علماء رزق ودنيا ، علماء لا يخافون في الحق لومة لائم ، وهم كثيرون ولله الحمد في كل مكان .

الهدف من تعلم العلم

يقول الرسول ﷺ : « من تعلَّم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة » . يعني ريحها [١] .

وأنا لا أقصد علماء في منطقة معينة ، وإنما أتكلم بصفة عامة ، لأن بعض العلماء في العالم الإسلامي يشاهدون المنكر أمام أعينهم ويسمعون ما يتنافى مع الإسلام ، ومع هذا لا يوضحون ولا يبينون ما أمر الله به ، وذلك خوفاً من عداء الناس وغضبهم ، والرسول ﷺ يقول : « من سئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار »[٢] .

إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرى ما نوى

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استُشهد ، فأُتي به فعرَّفه نعمته فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ! ولكنك قاتلت لأن يقال جريء ، فقد قيل ، ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار .

ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه ، وقرأ القرآن ، فأُتي به فعرَّفه نعمته فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك

---

(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

(٢) رواه أبو داود والترمذي .

القرآن . قال : كذبت ! ولكنك تعلمت ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ ، فقد قيل ، ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار .

ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال ، فأُتي به فعرَّفه نعمته فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيلٍ تحبُّ أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ! ولكنك فعلت ليقال : هو جواد ، فقد قيل ، ثم أُمر به فسحب على وجهه ، ثم أُلقي في النار». رواه مسلم .

وحين سئل رسول الله ﷺ : أيُّ الناس أفضل ؟ قال :« أتقاهم لله ، وأوصلهم لرحمه ، وآمَرُهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر »[١] .

والأغرب من هذا أن بعضهم يتمسَّك بالعنصرية والعصبية ، إما لجهله أو لتجاهله عما قرره الله ورسوله ، وهذا منتهى الظلم في حق نفسه وحق دينه . « والظلم ظلمات يوم القيامة » . كما ورد في الحديث .

مسئولية العلماء وفضلهم

إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وهم مسئولون أمام الله في إظهار وإيضاح حكم الشريعة في كل أمر وشأن ، وهم يعتبرون أئمة المسلمين ومرجعهم وموجِّهيهم ومرشديهم ، كما أن المسلمين مكلفون باتباع علمائهم والاقتداء بهم ، لأنهم خيرة الأمة ومصلحوها وقادتها .

عن أبي أمامة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي »[٢] .

---

(١) رواه أحمد والطبراني .

(٢) رواه الترمذي .

وعن زياد بن حدير قال : قال لي عمر : هل تعرف ما يهدم الإسلام ؟ قال : قلت : لا ، قال : يهدمه زلة العالم ، وجدال المنافق بالكتاب ، وحكم الأئمة المضلِّين .

والمسلم مسئول عن تصرفاته ، بل مسئول عما يشاهده ويسمعه ، خاصة إذا كان يسيء للإسلام والمسلمين ، أو يسيء إلى إخوانه المؤمنين ، وهو مكلف بإزالة الظلم والضرر عنهم ، وبما يحفظ أرواحهم ودماءهم وأموالهم وأعراضهم .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته : فالإمام الذي على الناس راعٍ ، وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ على أهل بيته ، وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، وهي مسئولة عنهم ، وعبد الرجل راعٍ على مال سيده ، وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته » . متفق عليه .

إن العلماء قادة الأمة في كل زمان ومكان ، وهم خيرة البشر ومصابيح الهدى ، إذا صلحوا صلحت الأمة ، وإذا أخلصوا عملهم لله هدى الله بإخلاصهم وبصدق نياتهم كثيراً من الناس .

مراقبة المؤمن لله تعالى في تصرفاته

هذا ، وإن انتماء المسلم للإسلام يفرض عليه أن يكون ولاؤه لله ولرسوله ولعقيدته ودينه ، وهذا من مستلزمات (لاإله إلا الله) .

روى الطبراني في « المعجم الكبير » بإسناد حسن ، إلى أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « من أحبَّ لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله : فقد استكمل الإيمان » .

ولن يجد عبد طعم الإيمان وإنْ كثرتْ صلاته وصيامه وهو على غير

ذلك ، وقد صارت مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يجدي على أهلها شيئاً .

قال الله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[١] .

من هم أعداؤنا ومن هم إخواننا

فالمؤمنون لا يوالون المشركين والكفار والعلمانيين والملحدين ، بل يعتبرونهم أعداء وظلمة وطواغيت حتى يؤمنوا بالله وحده ، ويشمل هؤلاء كل من يقف ضد الإسلام ، وحارب الإسلام ، ومبادى الإسلام ، وحملة الإسلام ! حتى لو كانوا آباءنا وأبناءنا وأقرباءنا ! ومن أهل قريتنا أو مدينتنا .

يقول الله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ﴾[٢] .

والمؤمنون يوالون الفئات المؤمنة المخلصة لهذا الدين ، ويحبونهم وينصرونهم ويعتبرونهم كالجسد الواحد ، مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم وبلادهم حتى لو كانت في أقصى بقاع الأرض .

الأمة الإسلامية ليست أمة عنصرية أو عرقية أو قومية

إن هذه الأمة الإسلامية ليست أمة عنصرية ولا عرقية ، كدعوى بني إسرائيل ، وليست منبثقة من عصبية جنس ، ولا انتماء لأرض معينة ،

---

(١) سورة الممتحنة ، الآية (٤).

(٢) سورة التوبة ، الآية (٢٣).

كعصبية القومية الحمقاء ! إنها خير أمة لأنها خيرية أعمال ، خيرية قِيَم ، إن الأمة الإسلامية أفضل باعمالها ، بمبادئها ، بإيمانها بالله ، لذلك فهي ليست حكراً على شعب معين ، ولا عنصر معين ، ولا دم معين ، إنما هي ملك لكل مسلم آمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، وعمل بمقتضى الإيمان ، أياً كان جنسه ، أو لغته ، أو أرضه ، أو منشؤه ، كما كانت ملكاً لبلال الحبشي ، وصهيب الرومي وسلمان الفارسي ، وعلى المستوى نفسه الذي كانت فيه ملكاً للمؤمنين من قريش ، وإنما يتفاضل الناس بالتقوى .

ومما خطب به ﷺ يوم حجة الوداع ، والجمع العظيم لأصحابه ، قال : « ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى »[١] .

ولذلك أيضاً لم تكن صفة لاصقة بشخص ، ولا شعب ، ولا عنصر معين ، كدعوى بني إسرائيل أنهم ما زالوا شعب الله المختار ، وقد كفروا بالله ورسله ، وارتكبوا من الموبقات والسيئات والانحرافات ما ارتكبوا ، وكدعوى كل قومية أنها أفضل الأمم مهما ارتكبت من الجرائم ! .

بل تذهب هذه الخيرية وهذه الأفضلية وهذه الميزة عن الأمة – كما هو حال أكثر الشعوب الإسلامية اليوم – إنْ هي نكلت عن رسالتها ، وابتعدت عن عقيدتها ، ولم تقم بتكاليفها ، ولا ينطبق عليها هذا الوصف إلا إذا عادت للعمل بمقتضياتها ، ولا تسترد استحقاقها لها حتى تتوقف عن انحرافاتها ومفاسدها[٢] .

---

(١) رواه أحمد .

(٢) من كتاب « أحوال العالم المعاصر » لمحمد قطب بتصرف .

وحدة الأمة الإسلامية

وهناك أمر هام أكّدته الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وهو أن هذه الأمة الإسلامية أمة واحدة ، أي يجب أن تكون بلداً ودولةً وشعباً واحداً ، ومرجعاً لخليفة واحد ، وهذا ليس رأياً أو اجتهاداً ، بل هو حكم وتشريع إسلامي لا يحتاج إلى تأويل أو شبهة .

فالله سبحانه و تعالى يقول : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[1] .

لقد حرم الله على المسلمين أن يكونوا مجزئين ومتفرقين وأن يكونوا شِيَعاً وأحزاباً وفرقاً. فقال سبحانه :

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[3] .

وقال سبحانه : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[4] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ .

فكيف يكون المؤمنون إخوة وبلادهم مقسّمة إلى مناطق محدَّدة وحدود لا يجوز تجاوزها ، وأغلب هذه الحدود وضعت من قبل المستعمرين الكفار !!.

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية (٩٢).
(٢) سورة آل عمران ، الآية (١٠٣).
(٣) سورة آل عمران ، الآية (١٠٥).
(٤) سورة التوبة ، الآية (٧١).

وكل بلد له سلطة مستقلة تفرض على الشعب أحكاماً وأنظمة تتعارض مع الإسلام ومع أخوة الإسلام ، وبعضهم ينادي بالعروبة أو القومية أو الاشتراكية أو الوطنية أو القومية التركية أو الباكستانية أو الصومالية إلى آخر السلسلة .

الدولة الإسلامية هي التي تعتبر كل مسلم في أنحاء المعمورة من رعاياها ، وجواز السفر لديها هو الجواز الإسلامي ، وجيشها هو الجيش الإسلامي ، وهي التي تغضب وتثور إذا انتهكت حرمة المسلم في أي مكان من العالم ، وهي التي يهمها حياة المسلمين في كل مكان ، وتعليم وإرشاد المسلمين في كل مكان مهما كان لونهم أو جنسهم .

الدولة الإسلامية هي التي تعادي أعداء الإسلام حتى لو كانوا من قريش، ويهمها أمر المسلمين حتى لو كانوا في أقصى الأرض .

الوحدة الأوربية

إن عقلاء النصارى وقادتهم في أوروبا مثلاً يتجمع قادتهم وشعوبهم لتوحيد بلادهم ، رغم اختلاف مذاهبهم ولغاتهم ، ذلك لأنهم اكتشفوا أن وحدة بلادهم وشعوبهم تؤدي إلى مزيد من الاستقرار الاقتصادي والسياسي ، وإلى مزيد من القوة والنفوذ في المجال العسكري والعمق الاستراتيجي ، وأعظم هيبة ومقدرة ونفوذاً على دول العالم الأخرى .

من شروط التجنس بالجنسية الأمريكية

وهذه أمريكا مثلاً فهي تسمح لكل فرد من البشر أن يقيم في أراضيها ويتجنس بجنسيتها إذا كان يحمل مبلغاً من المال ، أو لديه خبرة في أي مجال من المجالات يفيد به أمريكا ويرفع من مستواها إقتصادياً أو عسكرياً أو علمياً .

تعدد أنواع البشر في أمريكا

وهؤلاء وأولئك لايفعلون ذلك على أساس ديني ، بل يعتقدون أن هذه القوانين والأنظمة تؤدي إلى عظمة البلد وزيادة قوته في كل المجالات ، والشعب الأمريكي بالذات مؤلَّف من جميع أجناس العالم تقريباً ، أما سكان أمريكا الأصليون من الهنود الحمر فقد أبيدوا من قبل السلطات الأمريكية ، ولم يبق منهم إلا نسبة قليلة جداً انصهرت مع القادمين الجدد ولذا فإنك تجد الشعب الأمريكي أجناساً مختلفة ومتنوعة من البشر بأجناسها وألوانها ينادون جميعاً بعظمة أمريكا ، فمعبودهم أمريكا ، وإلههم أمريكا ، وحتى حروبهم لا تكون إلا لمصلحة أمريكا !!.

المسلمون والوحدة

بينما المسلمون دينهم يأمرهم بالوحدة والتجمع والتكتل ليكونوا جسداً واحداً وصفاً واحداً كالبنيان المرصوص ، والقرآن يؤكد ذلك بآيات كثيرة والأحاديث النبوية كذلك ، ومع هذا فالمسلمون نائمون لا يفكِّر في ذلك إلا قلة ضئيلة منهم ، بل الأدهى من هذا أن نجد فئات أو فرقاً أو طوائف أو أقليات تنتسب إلى الإسلام ، ثم تنادي بالعنصرية والعصبية والقبلية أو الشعوبية !.

في الصومال يتقاتلون في سبيل القبيلة ! وفي باكستان يقتلون بعضهم أحياناً في سبيل القبيلة ، فالبنجابي والسندي وغيرهم كلٌّ يشعر بأنه الأفضل .

وفي أفغانستان أيضاً رغم تمسكهم بالإسلام وحرصهم عليه نجد البعض يتجه للعنصرية ، ويقاتل في سبيل القَبَلِيَة ، مما أدى لحدوث كثير من المشاكل والمنازعات بسبب العنصرية والقبلية المنتشرة في البعض منهم .

وفي بلدان كثيرة من العالم الإسلامي فئات كثيرة ممن يعتقد بهذه التفاهات والسخافات نتيجة جهلها وانحطاط مستواها الفكري والخُلُقي والإنساني !.

ألست معي أخي المسلم في أننا نحن المسلمين نستحق أكثر مما نحن فيه من

هوان ومذلّة ، نتيجة تقاعسنا عن إقامة الحق ، والجهر بالحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتطبيق شرع الله ، وعدم إيقافنا لهذه السخافات !.

وحدة الأمة الإسلامية فريضة شرعية

أغلب المسلمين اليوم يفتخر كل منهم بالانتماء لبلده الذي ولد ونشأ فيه ، وبالجنسية التي يحملها ، وباللغة التي ينطق بها ، بل إن بعضهم يفتخر بقوميته التي تدل على عرقيته ، وأنه يتميز أو يتفوق على الشعوب الأخرى بمزايا الجنس أو الشعب أو العادات أو التقاليد ! وأصبح ينظر للآخرين من غير جنسه نظرة الازدراء أو نظرة التفوق والاستعلاء ! ونسي أنه مسلم وأن دينه وعقيدته تفرض عليه أن يؤمن بأن جميع المسلمين إخوة ، وأن عليهم أن يتحابوا ويتعاونوا ويتحدوا مهما تباعدت بلدانهم ، واختلفت لغاتهم وألوانهم ، وأن وحدتهم - شعوباً وحكومات ليكونوا دولة واحدة وحكومة واحدة وجيشاً واحداً - ركن من أركان الإسلام يجب العمل له ، وأن عليهم جميعاً أن يعملوا بكل ما لديهم من جهد وطاقة لتحقيق هذا الهدف العظيم ، لأن فيه حياتهم وعزهم ومجدهم وقوتهم .

يقول سبحانه في كتابه الكريم : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا . . . وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[2] .

---

(١) سورة الأنبياء ،اية (٩٢).
(٢) سورة آل عمران ، من الآيات (١٠٣،١٠٥).

ويقول سبحانه : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[١].

إن تجزئة العالم الإسلامي إلى قوميات وحكومات عرقية أو شعوبية ، وانفصاله إلى أجزاء مستقلة ودويلات متعددة ، عملٌ لا يقره الإسلام ولا يعترف يه .

وهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الخليفة الرابع يصر على وحدة الأمة الإسلامية وحدتها في دينها ، ووحدتها في الأرض ، ووحدتها في الحكومة ، ووحدتها في الخلافة والقيادة ، فيجهز جيشاً ويدعو للجهاد لإجبار أمير الشام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه على التنحي عن الإمارة ، وإطاعة أمر عزله عن إمارة الشام تفادياً لانفصال ذلك الجزء عن المنطقة الإسلامية ، وذلك عندما رفض معاوية رضي الله عنه باجتهاد منه إنفاذ أمر العزل إلا بعد القصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه .

وكان أهل الشام يتمنون أن يبقى علي رضي الله عنه خليفة على البلاد التي تحت يده ويترك بلاد الشام لهم .

قال عبد الواحد الدمشقي : قال : نادى حوشب الحميري علياً رضي الله عنه يوم صفين فقال : انصرف عنا يا ابن أبي طالب فإننا ننشدك الله في دمائنا ودمك ، ونخلي بينك وبين عراقك وتخلي بيننا وبين شامنا وتحقن دماء المسلمين ، قال علي رضي الله عنه : هيهات يا ابن أم ظليم ، والله لو علمت أن المداهنة تسعني في دين الله لفعلت ، وكان أهون علي في المؤنة ، ولكن الله لم يرض من أهل القرآن بالسكوت والإدهان ، إذا كان الله يعصى وهم يطيقون الدفاع والجهاد حتى يظهر أمر الله[٢].

---

(١) سورة التوبة ، آية (٧١).

(٢) نقلاً من كتاب « حياة الصحابة » ٢:٣٦ طبع دار الحديث بالقاهرة ، وعزاه إلى « الحلية » ١:٨٥ ، و« الاستيعاب » ١:٣١٥ .

وهذا الحسين بن علي رضي الله عنه يتنازل عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه في سبيل بقاء وحدة الأمة الإسلامية ووحدة البلاد الإسلامية بكاملها ، رغم أنه أفضل من معاوية باتفاق أهل السنة والجماعة ، ومع أنه كان مسيطراً على بلاد كثيرة ولديه جيش قوي .

ولكنه تقديراً منه رضي الله عنه لأهمية وحدة الأمة الإسلامية ووحدة بلاد المسلمين ، وحرصاً على عدم إراقة الدماء المسلمة تنازل عن الخلافة وعادت للأمة الإسلامية وحدتها بقيادة خليفة واحد بقيادة معاوية رضي الله عنه ، وسمي ذلك العام بعام الجماعة .

عن أبي الغَريف قال : كنا في مقدمة الحسن بن علي رضي الله عنهما اثني عشر ألفاً تقطر أسيافنا من الحدة على قتال أهل الشام وعلينا أبو العمرطة ، فلما أتانا صلح الحسن بن علي ومعاوية - رضي الله عنهم جميعاً - كأنما كسرت ظهورنا من الحرد والغيظ ، فلما قدم الحسن بن علي الكوفة قام إليه رجل منا يكنى أبا عامر سفيان بن الليل ، فقال : السلام عليك يا مُذِلَّ المؤمنين ! فقال الحسن : لاتقل ذلك يا أبا عامر ، لم أُذِلَّ المؤمنين ولكني كرهت أن أقتلهم في طلب الملك[1] .

فالخليفة الراشد علي بن أبي طالب حارب ودعا للجهاد في سبيل وحدة المسلمين ، وابنه الحسن تنازل عن الخلافة في سبيل وحدة المسلمين .

ولعل من الحكم الربانية لتلك الفتنة تأكيد الحكم الشرعي عملياً على وحدة الأمة الإسلامية ووحدة بلادها تحت حكومة واحدة وإلزام المسلمين بهذا الحاكم .

---

(١) رواه الحاكم ٣:١٥٧ ، وابن عبد البر في « الاستيعاب » ١:٣٧٢ نحوه ، والخطيب البغدادي كذلك . كما في « البداية » ٨:١٩ .

وهكذا تحقق الحديث النبوي الشريف بحق سيدنا الحسن رضي الله عنه حيث قال خاتم الأنبياء والمرسلين : « إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين . رواه البخاري .

ومن أدلة فرضية الوحدة الإسلامية قوله ﷺ : « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه » . رواه مسلم .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما ».

وهذا أبو بكر الصديق الخليفة الراشد رضي الله عنه أفضل الصحابة بعد رسول الله ﷺ يخطب يوم سقيفة بني ساعدة فيقول : « وإنه لا يحل أن يكون للمسلمين أميران ، فإنه مهما يكن ذلك يختلف أمرهم وأحكامهم ، وتتفرق جماعتهم ، ويتنازعوا فيما بينهم ، هنالك تترك السنة ، وتظهر البدعة ، وتعظم الفتنة ، وليس لأحد على ذلك صلاح »[١].

وعندما قال رجل من الأنصار : منا رجل ومنكم رجل ! قال عمر رضي الله عنه : سيفان في غمد واحد ؟! إذاً لا يصطلحان[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام : « أيها الناس عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة » رواه أحمد .

وقال : « لن تجتمع أمتي على ضلالة أبداً فعليكم بالجماعة ، وإن يد الله على الجماعة »[٣].

---

(١) رواه البيهقي في « سننه » ٨ : ١٤٥ .
(٢) « حياة الصحابة » ٢ : ١٦٦ .
(٣) رواه الطبراني عن ابن عمر .

وقال : « من عمل في الجماعة فأصاب قبل الله تعالى منه ، وإن أخطأ غفر الله له ، ومن يبتغي الفرقة فأصاب لم يتقبل الله منه وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار »[١] .

وروى الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً : « من فارق المسلمين قِيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه ، ومن مات ليس عليه إمام فميتته ميتة الجاهلية، ومن مات تحت راية عمية يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبية فقتلته جاهلية » .

وجاء في « الأحكام السلطانية » إذا عقدت الإمامة لإمامين في بلدين لم تنعقد إمامتهما ، لإنه لا يجوز أن يكون للأمة إمامان في وقت واحد وإن شذ قوم فجوزوه » .

والمهم أن وحدة العالم الإسلامي وحدة حقيقية فريضة شرعية ، وكل مسلم مطالب بالعمل لها والدعوة إليها ، وأن من سعى إلى تفرقة المسلمين و تجزئة العالم الإسلامي يعتبر آثماً . نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوحد أمتنا الإسلامية على كتاب الله وسنة رسوله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ضرورة العمل لتحقيق الوحدة الإسلامية

إن فقدان الشعور بالوحدة الإسلامية وعدم العمل الجدي على الوحدة الإسلامية بين المسلمين أجمع ، وتشجيع العنصرية والعصبية بكافة أنواعها سيؤدي إلى دمار وفناء المسلمين وإقامة المذابح بينهم .

وقد بدأت هذه المذابح فعلاً كما بدأت هذه المكائد والخطط من قِبَل كل دول العالم غير الإسلامي لإبادتنا ، فهل آن لنا أن نستيقظ ؟! .

---

(١) رواه الطبراني عن ابن عباس .

الاهتمام بالمسلمين في كل مكان في العالم

لقد كان قادة المسلمين الأوائل لا يهدأ لهم بال إذا أُسرت فئة أو أفراد من المسلمين من قبل الكفار حتى يطلق سراح هؤلاء الأسرى بأي وسيلة كانت.

حتى في عهد الحجاج الذي ظلم وبغى ، عندما علم بوجود أعداد من النساء المسلمات في سجون المشركين في بلاد السند ، جهز جيشاً ضخماً لإطلاق سراحهم بالقوة ، ولنشر الدعوة الإسلامية في تلك البقاع ، ولقد تم ذلك فعلاً وأنقذت النساء السجينات .

وعلى عهد المعتصم عندما علم بأن امرأة مسلمة أسيرة في سجون الروم بعمورية تقول : وامعتصماه ! جهز جيشاً كبيراً قاده بنفسه إلى بلاد الروم لإنقاذ هذه المرأة المسلمة وزميلاتها .

والأمثلة كثيرة جداً .

السلطان صلاح الدين الأيوبي قاهر الصليبيين

إن التاريخ ليحدثنا ويؤكِّد لنا أن كل تجمع إسلامي حدث في الماضي هدفه إقامة الحق ، وإبطال الظلم ، والدعوة إلى الله سبحانه : كان نتيجته الانتصار الساحق والفوز المبين .

وهذا صلاح الدين الأيوبي الكردي عندما أقام الدولة الإسلامية ، وسحق أعداء الدين من العنصريين والعصبيين والقوميين ، وأنشأ الجيش الإسلامي المؤلَّف من كل العناصر الإسلامية المؤمنة بأجناسها وألوانها تمكَّن من سحق جيوش أوروبا بكاملها ، جيوش الصليبيين الظلمة الذين أتوا لاستعباد المسلمين وإبادتهم ، وذبحوا عشرات الألوف من المسلمين عند دخول جيوشهم بيت المقدس ، حتى إن دماء المسلمين وصلت للرُّكب ، كما يقول المؤرخون ، واستعمروا فلسطين لأكثر من تسعين عاماً ، ثم حرَّرها هذا القائد الكردي المسلم ، عندما أعلنها إسلامية نقية خالصة .

العثمانيون والوحدة

والدولة العثمانية العظيمة عندما طبقت الإسلام ، واندمجت كافة الشعوب الإسلامية تحت رايتها ، ورفعت راية العدل والمساواة ، وجعلت كلمة الله هي العليا : تساقطت دول أوروبا تحت أقدامها ، ودخل الإسلام في كثير من المناطق في روسيا والصين ، وفي ألبانيا ويوغسلافيا ، حيث يذبحون الآن ! وفي اليونان ، ومناطق كثيرة أخرى .

انهيار الدولة العثمانية بإدخال القومية والعنصرية عليها

وبعد ذلك عندما انحرفوا عن الإسلام ، واستلم الحكم الضباط العسكريون الطغاة من الشباب الذين درسوا في أوروبا ، ونادوا بالقومية والوطنية والطورانية ، وبدَّلوا دين الله ، وألَّهوا أتاتورك بعد ذلك : سلَّط الله عليهم الكفرة فعادوا أذلَّة مهانين .

قال الله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ﴾[1] .

ودول كثيرة في الهند وأفريقيا وآسيا قامت على أساس إسلامي نقيّ ، فأعزَّها الله ونصرها ، وأذلَّ أعداءها ، إلى أن غيَّرت وبدلت ، فأعادها الله سيرتها الأولى .

قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2] .

القوميون والعروبة

---

(١) سورة النور ، الآية (٥٥).
(٢) سورة الأنفال ، الآية (٥٣).

إن العرب - يا أيها القوميون - لم تقم لهم قائمة إلا بفضل الإسلام ، ونبي الإسلام ، ولم يكونوا يؤمنون بقومية ولا وطنية ، إنما كان نظامهم وعقيدتهم السلب والنهب ، والقتل وسفك الدماء ، كانوا قبائل متعددة يهاجمون بعضهم ، ويقتلون بعضهم ، ويسلبون بعضهم البعض ، حتى إن عقائدهم كانت في منتهى الانحطاط ! منهم من يعبد الحجر ، ومنهم من يعبد الشجر ، ومنهم من يعبد الكواكب ، وحتى أخلاقهم كانت في غاية الانحطاط أيضاً باستثناء قريش التي كانت تتميز عن القبائل الأخرى في بعض الأمور .

العرب بعد اعتناق الإسلام

ولكنهم بعد اعتناقهم لهذا الدين أصبحوا أطهر أمم الأرض ، وأعظم أمم الأرض ، نقاءاً وخلقاً وعدلاً ، ليس بعروبتهم ولا بأصلهم ولا بعصبيتهم ، بل بعقيدتهم وإسلامهم ، ارتفعوا من الحضيض إلى الثريا ، ومن الظلام إلى النور ، ومن الموت إلى الحياة ، ومن الذلة إلى الرفعة ، ومن الكره والحقد ، والحسد والقتل ، وسفك الدماء ، إلى الرحمة والمحبة والمواساة وحبّ الخير والهداية لجميع بني البشر .

عادات اليهود وعقائدهم

انظروا إلى اليهود إنهم يطبقون عقيدتهم المنحرفة في كل شيء ، وفي كل أمر حتى على المستوى العالمي ، والمستوى الدولي ، يقولون : إن عقيدتنا اليهودية لا تسمح بذلك ، وإن التلمود ينص على كذا ، أو يأمر بكذا !! .

ولا يمكن إقرار أي نظام أو مبدأ إلا بموافقة علمائهم وحاخاماتهم .

ثم انظروا إليهم وإلى حكمائهم وساستهم ، فهم يضعون الرمز اليهودي على رؤوسهم بكل فخر واعتزاز ، في كل الاجتماعات والمؤتمرات الدولية

والعالمية ، وهم يهتمون برعاياهم اليهود مهما كان جنسهم أو لونهم أو شعوبهم أو بلدانهم .

لقد بذلوا جهوداً جبارة لإحضار يهود الفلاشا السود من السودان والحبشة ، وقدَّموا وسائط ورشاوي عن طريق وزراء من دول وسيطة ، وكذلك محطات أو مطارات تمويهية أو بديلة أو مؤقتة في سبيل إحضار هؤلاء الناس الذين يؤمنون بعقيدتهم .

كذلك اهتموا بإحضار اليهود العرب من سوريا ومصر واليمن والمغرب وبذلوا في ذلك جهوداً ، وأنفقوا أموالاً طائلة ، ومع هذا تصُرّ فئات منا على القومية العربية التي تجمع اليهودي العربي ، والنصراني العربي ، والملحد العربي ، ولو كان أبو جهل ، وأبو لهب ، وأمية بن خلف- لعنهم الله - وزملاؤهم من مشركي قريش بينكم لسخروا منكم ومن قوميتكم .

انظروا واعتبروا أيها العنصريون والشعوبيون والقوميون والقبليون والعِرْقيون والوطنيون المنتسبون إلى الإسلام ! انظروا إلى اليهود كيف يهتمون بكل من ينتسب لليهودية ، وبكل من يؤمن باليهودية ديناً وعقيدةمهما كان جنسه ، ومهما كان شعبه ، ومهما كان لونه وبلاده ، ويقيمون الدنيا ويقعدونها إذا اضطهد واحد منهم في اي مكان في العالم ، أو ظُلم ، ويبذلون له كل غالٍ ورخيص ، لا لشيء إلا لأنه يهودي مثلهم وهم لا يفعلون ذلك لفائدة يرجونها ، أو لخبرة يكتسبونها منه ، بل لأنه يهودي ودينهم يأمرهم بذلك .

بل الأعجب من هذا أنهم يهتمون به حتى بعد مماته ، ويحرصون أشد الحرص على إحضار جثته إلى بلادهم التي اغتصبوها وسرقوها !!.

الوطن واليهود الروس

انظروا إلى اليهود الروس الذين وُلِدوا وعاشوا في الاتحاد السوفيتي المنهار

لمئات السنين ، ومرت عليهم عهود الطغيان والظلم والبطش الشيوعي ، وهم لا يزالون مخلصين لعقيدتهم ، حريصين على الانضمام إلى إخوانهم في العقيدة والدين ، ملبِّين نداء زعمائهم وعلمائهم اليهود في الانضمام إليهم في الدولة اليهودية مهما كلفهم ذلك من مشقة !! .

إذاً أين خرافة الوطن والوطنية بالنسبة لهؤلاء ؟! أليست الوطنية والوطن بالنسبة إليهم على الأقل كلاماً فارغاً أجوفَ ؟ أليست العقيدة الدينية أهم من ذلك بكثير ؟ .

أليس هذا دليلاً على أن التجمع الحقيقي للأمة لا يكون إلا على أساس العقيدة والمبدأ ، لا العنصرية والشعوبية والعرقية ؟ .

إخلاص يهود أوروبا وأمريكا لعقيدتهم

وقل نفس الشيء بالنسبة لبقية يهود العالم . . . انظروا إلى اليهود في أوروبا وأمريكا ، وهم يسخِّرون كل ما لديهم من أموال ونفوذ وسلطة في إمداد إخوانهم في بلادنا المغتصبة : فلسطين ، على حساب أوطانهم وبلادهم الأصلية التي ولدوا فيها ، وأصبحوا أثرياء من خلالها .

بل لا مانع لديهم من التجسس على حكومتهم في أوطانهم المزيفة ، واستغلال أموالهم ونفوذهم ومحطاتهم التلفزيونية وأفلامهم السينمائية لصالح الدولة اليهودية ، والعقيدة اليهودية ، وتشويه الإسلام والمسلمين ، والسخرية منهم ، وتصويرهم بأحط الصفات وأبشع الصور .

انظروا إلى اليهود وهم يبذلون كل ما لديهم من جهد لإقامة الدولة اليهودية ، كما تأمرهم بذلك كتبهم المحرَّفة ، ويهدمون كل شيء حول المسجد الأقصى بحثاً عن الآثار لإقامة هيكل سليمان المزعوم .

النصارى العرب

وانظروا أيضاً وتفكروا في النصارى العرب الذين نشأوا في البلاد العربية ،

أو النصارى الذين وُلدوا ونشأوا في البلاد الإسلامية ، نجد أن ولاءهم للزعامات النصرانية في الخارج ، سواء كان في الفاتيكان ، أو أماكن أخرى حسب مذهبهم ، فهم يتقيدون بتعليمات قسيسيهم ورهبانهم وزعمائهم من النصارى حتى لو كان هذا على حساب أوطانهم ، بل لا يترددون في إحداث الفتن والاضطرابات لتحقيق أهدافهم ، بل إن أكثر من تسعين بالمائة منهم من الذين أنشأوا الأحزاب الشيوعية والماسونية في العالم الإسلامي هم من النصارى ثم العلمانيين !

فأين ذهبت وطنية هؤلاء ؟! إنهم عرب أقحاح ، وأجدادهم عرب ، فلماذا يعملون على تدمير أوطانهم والاتصال بالخارج ، وتلقي المساعدات للعمل على إحداث المشكلات والبلبلة في أوطانهم ؟ ثم نصِرّ نحن المسلمين أو فئة منّا على التمسك بعنصريتنا وقوميتنا ووطنيتنا !.

نعم لا يزال كثير منا نحن المسلمين مصرّاً على قوميته وعنصريته ، ووطنيته ، وشعوبيته ، وقبليته ، ثم يتساءل البعض : لـمَ لا ينصرنا الله ونحن مسلمون؟ ونقول صباحاً ومساءاً : لا إله إلا الله محمد رسول الله!!.

نريد النصر من عند الله ونحن نقتل بعضنا البعض ، ونبيد بعضنا البعض في سبيل شيطان القبيلة والوطن والجنس والقومية !.

النصارى يوصون بثرواتهم إلى الكنيسة

إن نسبة كبيرة من النصارى يوصون قبل موتهم بأن تصبح كل ثرواتهم - أو نسبة كبيرة منها - ملكاً للكنيسة التي ينتمون إليها ، وبعض هذه الثروات تقدر بمئات الملايين ، وبعضها بآلاف الملايين .

الدعوة للنصرانية

ذهبت مرة إلى بريطانيا لدراسة اللغة الإنكليزية هناك ، وفي يوم دخل شاب يتبعه عدة فتيات إلى فصلنا الدراسي ، وانتشر الجميع بين الطلبة

واختارني الشاب ليقنعني بكل أدب ولطف ورقة بحضور اجتماع ما ، وفهمت منه - بصعوبة - أن الهدف من الاجتماع هو دراسة الكتاب المقدس ، وقد أرشدني الشاب لهذه الكلمة من القاموس ، ولما كنت مبتدئاً في تعلم اللغة الإنكليزية في ذلك الوقت ، فقد ترجمت الكلمة لنفسي على أنها دراسة القرآن الكريم ، فأبديت موافقتي وزودني الشاب بعنوان مفصل ، مع مخطط دقيق للعنوان ، وأنا في دهشة لهذا الاهتمام غير الطبيعي ، بالإضافة إلى جهلي وصعوبة فهمي للغة الإنكليزية .

وذهبت فعلاً ، وكان ذلك في مدينة كامبرج ، واكتشفت أن هؤلاء الناس من المبشرين النصارى ، فقررت البقاء لمعرفة طرقهم وأسلوبهم ، وكان المجتمعون في قاعة كبيرة يبلغون أكثر من سبعمائة رجل وامرأة ، ينتمون لجميع دول العالم ، بمختلف أجناسهم وألوانهم بما فيهم اليابانيون والصينيون والروس والأوروبيون والأفارقة والآسيويون .

كما وجدت مئات الفتيات والشبان الإنكليز المشهورين عادة بالعنصرية وباحتقارهم لجميع بني البشر خاصة الملوّنين والسود.

وجدت هؤلاء الفتيات والشبان يخدمون هؤلاء الغرباء بكل أدب ورقة ولطف وتواضع ، ويقدمون لهم الحلويات والمشروبات غير المحرمة ، وبعد انتهاء تناول المشروبات والحلويات ، تم تشكيل فرق يرأسها شباب متمكنون من النصرانية -كما يبدو- لدراسة أو قراءة صفحات من (البايبل) وهو كتاب بديل عن الإنجيل ، ولكل مذهب من مذاهب النصرانية (بايبل) خاص يختلف عن الآخر ، وهناك عشرات من نسخ (البايبل) المتناقضة ، ويقوم أحد المدعوين بقراءة جمل من (البايبل) ثم يعقبها بشرح أو نقاش من رئيس الجلسة مع بقية المجتمعين ، وقد يستغرق النقاش نصف ساعة أو أكثر .

ثم يدعونك بعد ذلك إلى وجبة عشاء دسمة للغاية تكلف أكثر من خمسين ريالاً ، ثم يرجونك بأدب جم ولطف زائد أن تزورهم في الاجتماع التالي ، حيث إن اجتماعهم يعقد مرتين في الأسبوع .

وإذا لم تحضر أرسلوا لك شاباً أو فتاة لتدعوك لاجتماعهم ، وهم مستعدون لخدمتك ومرافقتك لأي خدمة تطلبها ، حتى لو كانت شراء لوازم أو أعمال تجارية ، وحتى إيجاد عمل ومورد رزق ! .

إن هؤلاء المبشرين الذين يعتقد بعضهم أن المسيح عليه السلام هو الإله ، وآخرين منهم يعتقدون أنه ابن الإله ، وفرق كثيرة تدور حول هذا الاعتقاد تبتعد عنه حيناً وتقترب أحياناً ، هؤلاء الناس رغم سخافة آرائهم وبهتان اعتقادهم ، فإنهم يبذلون كل ما لديهم من جهد ووقت في سبيل نشر دينهم الباطل ، وقد بدلوا طرقهم واستراتيجيتهم منذ عشرات السنين في التبشير ، وأخذوا يشوهون الدين الإسلامي بالأكاذيب والخرافات .

علماء وهميون يعتنقون النصرانية

بل ألفوا عشرات الكتب التي تتضمن أن كثيراً من علماء المسلمين وفقهائهم اعتنقوا النصرانية كذباً ، ويخترعون لهذه الشخصيات الأسماء ، ويضعون صورهم في تلك الكتب بملابس عربية ، وأزياء تتفق مع عدة بلدان إسلامية مختلفة ، بل الأدهى من ذلك أن هذه الشخصيات الوهمية تقوم بسرد قصتها والمراحل التي مرت بها قبل اعتناقها النصرانية ، وينشرون هذه الكتب بين الجهلة من المسلمين خاصة بين الأقليات المسلمة في آسيا وأفريقيا .

ومن تخطيطاتهم أيضاً : أنهم يهيئون كثيراً من شبابهم وفتياتهم النصارى، سواء كانوا أوروبيين ، أو عرباً نصارى أو من مختلف بلاد العالم ، ليمثّلوا

بإتقان أنهم كانوا مسلمين محافظين أتقياء ، ثم هداهم الله إلى النصرانية ، وهذا من مكائدهم وخططهم .

ويحدث هذا عادة في الحفلات في مختلف الجامعات ، أو خلال الرحلات ، أو المحاضرات ، إنهم يخططون لكل شيء ، ويعملون حساب كل شيء ، ويدرسون حالة (الضحية) من كافة النواحي ، وعن ميولها المادية والعاطفية ، وإن لم يستجب لهم أغرقوه بالمخدرات وبوسائل كثيرة .

وقد يحدث فعلاً أن يتحول شباب أو فتيات إلى النصرانية ، ولكنهم في الحقيقة لم يكونوا مسلمين حقيقيين من قبل ، بل كانت أسماؤهم إسلامية فقط ، ولكنهم لا يعرفون شيئاً عن الإسلام ، وهذا نتيجة المواد الدراسية المقررة في كثير من البلدان الإسلامية ، حيث يعلمون الطلبة كل ما يتناقض مع الإسلام ، وكل ما يشوه الإسلام كذلك .

إنهم يبذلون كل ما لديهم من طاقة وجهد في سبيل نشر مذهبهم ، مستغلين جهل هؤلاء الناس بالإسلام ، ومستغلين أيضاً إهمال المسلمين - وخاصة الأغنياء والقادرين منهم - لإخوانهم في تعليمهم الدين بفتح المدارس والمعاهد الإسلامية ، ونشر الكتب الإسلامية المختلفة بلغتهم ، وإنقاذهم من البؤس والشقاء .

وكثيراً ما نشاهد فتيات أوروبيات في غاية الأناقة والجمال ، وبملابس راقية ، يقومون بخدمة المسلمين في حالات المجاعة والقحط بإطعامهم نساء ورجالاً وأطفالاً ، وتنظيفهم وحملهم ، وإسعافهم وإغاثتهم ، غير مبالين بالأمراض المنتشرة ، والروائح العفنة ، بل وبدون تقزز أو ملل ، بل بنشاط وهمة لا تعرف الكلل ، وابتسامة مشرقة لا تفارق محياهنّ ، كل ذلك في سبيل نشر النصرانية ، وإقناع المسلمين وغير المسلمين باعتناق دينهم ! وكان المفروض أن يقوم بهذا العمل المسلمون من الدول الأخرى .

ومن هنا ندرك مدى الجريمة التي نرتكبها نحن المسلمين بحق أنفسنا ، وبحق ديننا ، عندما نهمل إخواناً لنا في العقيدة والدين يموتون من الجوع والأمراض ، بدون أن نبذل أي جهد تجاههم ، سواء كان بأموالنا أو بأجسامنا ، أو بمجهوداتنا أو بعلمنا ، أو بإرشاداتنا ، بل نعمل عكس ذلك بعنصريتنا وقوميتنا وشعوبيتنا ، مع أن إسلامنا يأمرنا أن نكون إخوة ، وأن نكون كالجسد الواحد ، وأن نكون كالبنيان المرصوص .

فماذا فعلنا نحن المسلمين تجاه ديننا وعقيدتنا ؟ وما هي الأعمال التي قمنا بها في سبيل نشر الدين الإسلامي والتعريف به بين بني البشر ؟ .

المراكز الإسلامية في العالم وضرورة دعمها

إن المراكز الإسلامية في أوروبا وأمريكا وبقية دول العالم تقف شبه مشلولة ، لضعف إمكانياتها وضآلة ما لديها من وسائل للتعريف بالإسلام العظيم ، بالرغم من كل ما تبذله مملكتنا وشعبها .

فهل ساهمتَ - أخي المسلم - في رفع مستواها ، وتقوية إمكانياتها في تقديم الكتب الخاصة بالدعوة للإسلام بين غير المسلمين ، أو المساهمة في طبعها أو دفع رواتب بعض المدرسين أو الدعاة ، أو نفقات التدريس ، أو إنشاء مكتبة إسلامية بلغة ذلك البلد ، أو ترجمة كتاب إسلامي بلغتهم ؟! .

تعدد وسائل الدعوة وطرقها

إن وسائل الدعوة كثيرة جداً ، وفي استطاعتك أن تختار منها ما يناسبك ويناسب ظروفك ، فالجهاد الإسلامي لا يعني القتال في كل الأحيان والظروف ، بل يعني أيضاً الجهاد بإنفاق المال في سبيل الدعوة الإسلامية ، سواء كان عن طريق نشر الكتب الخاصة بالدعوة للإسلام بين غير المسلمين، أو نشر الكتب الخاصة بين المسلمين أنفسهم أو إنشاء المكتبات الإسلامية في العالم الإسلامي خاصة ، وفي العالم أجمع بصفة عامة .

أو إمداد المراكز الإسلامية بما تحتاجه من دعم ، أو القيام بنفسك بالدعوة إلى الله في أي مكان من العالم ، أو إغاثة المسلمين المنكوبين وتعليمهم وإرشادهم ، أو إنشاء المدارس والمعاهد الإسلامية ، أو إصدار الصحف والنشرات الإسلامية ، أو إعمار بيوت الله وإنشاء حلقات للقرآن الكريم فيها ، أو إنشاء الإذاعات الإسلامية أو الأفلام الإسلامية ، وبثها من المحطات التلفزيونية في أنحاء العالم باللغات المختلفة .

إن مجال العمل الإسلامي والدعوة الإسلامية مفتوح للجميع ، خاصة في بلاد أفريقيا ، وفي بلدان الاتحاد السوفيتي سابقاً ، وفي ألبانيا ويوغسلافيا السابقة ، وحتى في أمريكا وأوروبا ، وفي جميع أنحاء العالم .

* * * * *

الفصل السابع عشر
التفاضل بين الصحابة رضي الله عنهم

لقد اتفق العلماء من أهل السنة والجماعة على أن أفضل المسلمين من هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ أبوبكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم جميعاً وذلك للأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ ومنها :

قال ﷺ : « خير هذه الأمة بعد نبيها أبوبكر ثم عمر » .

وقال ﷺ : « اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر » .

وقال ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » .

وفي « صحيح مسلم » أن أصحاب النبي ﷺ كانوا في سفر فقال ﷺ : « إن يطع القوم أبابكر وعمر يرشدوا » .

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال : وُضع عمر على سريره فتكتَّفه الناس يدعون ويثنون ويصلون عليه قبل أن يرفع وأنا فيهم فلم يرعني إلارجل قد أخذ بمنكبي من ورائي فالتفت فإذا هو علي ، وترحم على عمر وقال : ما خلَّفتُ أحداً أحب إلي أن ألقى الله عز وجل بعمله منك . وايم والله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك وذلك أني كنت كثيراً ما أسمع النبي ﷺ يقول : جئت أنا وأبو بكر وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر . فإن كنت أرجو وأظن أن يجعلك الله معهما .

وفي « صحيح البخاري » عن محمد بن الحنفية أنه قال لأبيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه : يا أبت من خير الناس بعد رسول الله ﷺ ، قال : يا بني أوما تعرف ؟ قلت : لا ، قال : أبو بكر ، قلت : ثم من ؟ قال : عمر . ويروى هذا عن علي بن أبي طالب ، من نحو ثمانين وجهاً وأنه كان يقوله على منبر الكوفة ، بل قال : لا أُوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلاجلدته حدَّ المفتري ، فمن فضَّله على أبي بكر وعمر جلد بمقتضى قوله رضي الله عنه ثمانين سوطاً .

وكان سفيان يقول : من فضل علياً على أبي بكر فقد أزرى بالمهاجرين، وما أرى أنه يصعد له إلى الله عمل وهو مقيم على ذلك .

ومن أسباب نشوء بعض الفرق التي وقفت موقفاً عدائياً من كبار الصحابة هو قيام بعض اليهود باعتناق الإسلام نفاقاً ، وعلى رأسهم عبد الله بن سبأ ورفاقه ، وكان لهم دور رئيسي في ظهور تلك الفرق وإحداث تلك الفتن في أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه وأثاروا الجهال بدسائسهم وفتنهم[1] .

ولم يبدأ مذهب التشيع بالظهور إلا في أوائل القرن الثاني للهجرة ، وبدأ التشيع يظهر بوضوح بعد مقتل الإمام الحسين رضي الله عنه .

وكان التشيع يعني حب آل البيت واحترامهم وتأييدهم وهو شعور يشترك فيه كل المؤمنين بدون منازع ، باستثناء الخوارج الذين كفَّروا علياً وقاتلوه بغياً وجهلاً .

إلاأن التشيع بدأ ينحرف عن مساره إلى الغلو في علي ، وكان ذلك في عام ٣٢٩ هـ ، كما بدأ بانتقاد الصحابة رضي الله عنهم لعدم تفضيلهم لعلي في الخلافة ، ثم بدأ يتطور إلى أن وصل إلى ماهو عليه الآن ، وقد اعتاد

---

(١) من كتاب « عبد الله بن سبأ » للشيخ العودة .

الشيعة على تربية أبنائهم من الصغر على كره الخلفاء الراشدين وشتمهم باستثناء علي رضي الله عنهم جميعاً .

وقال الإمام مالك وغيره من أئمة العلم : هؤلاء طعنوا في أصحاب رسول الله ﷺ ليقول القائل : رجل سوء كان له أصحاب سوء ، ولو كان صالحاً لكان أصحابه صالحين ، وأيضاً فهؤلاء الذين نقلوا القرآن وشرائع الإسلام وأوامر النبي ﷺ وسنته ، وكذلك نقلوا فضائل علي وغيره فالقدح فيهم يوجب أن لايوثق بما نقلوه من الدين ، وحينئذ فلاتثبت فضيلة لالعلي ولا لغيره ، لأن فضائل علي إنما نقلها الصحابة الذين تقدح فيهم الرافضة بما يفترونه عليهم من أنهم طلبوا الرئاسة وقاتلوا على ذلك .

والقرآن الكريم أثنى على الصحابة في غير موضع كقوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ .

وقوله سبحانه : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ .

وقد ثبت في « صحيح مسلم » عن النبي ﷺ أنه قال : « لايدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » .

وفي الصحيحين عن ابي سعيد أن النبي ﷺ قال : « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهباً مابلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفَه ».

وقد ثبت عنه في الصحيحين من غير وجه أنه قال : « خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ».

وهذه الأحاديث مستفيضة ومتواترة في فضائل الصحابة والثناء عليهم ، وتفضيل قرنهم على من بعدهم من القرون ، فالقدح فيهم قدح في القرآن والسنة[1].

والسؤال الهام الذي يجب أن يطرح على تلك الفرق ، أو أن على تلك الفرق أن تطرحه على نفسها ، ليتبين لها الحق : مَن أعلم بحقيقة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ؟ هل هم جميع المؤمنين في عهدهم الذين هم أفضل الناس وقرنهم أفضل القرون ؟ أم فرق التشيع التي نشأت بعدهم بأكثر من ثلاثمائة سنة ، لو تمعنت هذه الفرق بهذا الأمر وإلى أنه لم تقم أية حركة أو اعتراض عند اختيارهم والبيعة لهم منذ توليهم حتى ما بعد وفاتهم لمئات السنين باستثناء ماحدث في أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه لو تمعنوا وتفكروا في ذلك لتوصلوا إلى الحق في هذه المسألة .

ثم أن هناك نقطة هامة وهي أنه لم يكن على عهد الصحابة وخاصة الخلفاء الراشدين جنداً دائمين كالشرطة اليوم ، أو الأجهزة السرية والعلنية التي تنشئها الدول للمحافظة على كيانها ، حتى إن إقامة الحدود كانت تتم من قبل كافة المسلمين المحيطين بولي الأمر ، كذلك كان لدى الصحابة حرية الاعتراض ، وحرية القول ، وحرية النقاش في حدود الدين ، حتى

---

(١) « مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية » ٤ : ٤٢٩-٤٣٠ .

إن الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه يقول في أول خطبته :

« أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسددوني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلاطاعة لي عليكم ».

ويقول في خطبة أخرى :

« أيها الناس إني شيخ كبير ، فاستعملوا عليكم من هو أقوى مني على هذا الأمر وأضبط له » ، فضحكوا وقالوا : لا نفعل أنت صاحب رسول الله ﷺ في المواطن ، وأحق بهذا الأمر ، فقال : « أما إذا أبيتم فأحسنوا طاعتي ومؤازرتي ، واعلموا أنما أنا بشر ومعي شيطان يقربني ، فإذا رأيتموني غضبت فقوموا عني ، لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم ، واتبعوني ما استقمت فإن زغت فقوموني »[١].

وعندما وقف أمير المؤمنين عمر يخطب على المنبر مرة ويقول :

اسمعوا رحمكم الله ، فقام إليه سلمان فقال : والله لا نسمع ، والله لا نسمع ، فيسأله أمير المؤمنين : ولم يا أبا عبد الله ؟ ، فقال : يا عمر تفضلت علينا في الدنيا ، فرقَّت علينا بُرْداً بُرْداً وخرجت تخطب في حلَّة منها - أي أنك أخذت اثنين من البرد - ، وعندها يثبت له أمير المؤمنين أنه أخذ برد ابنه ، ولا يغضب ولا يثور بل يقول لسلمان : لقد عجلت علي يا أبا عبد الله .

كذلك موقفهم العظيم عندما تقاتلوا بعد مقتل عثمان رضي الله عنه ، ففريق يصر على عقاب قتلة عثمان فوراً ، وفريق يرى التأني وتأجيل النظر في ذلك لخطورة الثائرين ، ويقود الفريقَ الأخير - وهو المصيب للحق -

---

(١) « مختصر الموافقة » للزمخشري ، بواسطة « أبو بكر الصديق » للطنطاوي ص ٢٧٦ .

أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب ، وهذا يدل على إحساسهم العميق بمسؤليتهم أمام الله في إنفاذ الشرع وتطبيق الدين في جميع الأحوال والظروف ، وعلى عظمة إيمانهم وأنهم لا يخافون في الحق لومة لائم ، وهو اجتهاد اتفق عليه الصحابة بما فيهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه على أن كلاً منهم يؤجر حسب اجتهاده ونيته .

وقد ثبت على أن القتال الذي حدث لم يكن على الإمامة ، بل في كيفية القصاص من قاتلي عثمان رضي الله عنه .

ويجب أن نوضح هنا أن الصحابة الذين اشتركوا في القتال باجتهاد منهم لا يتجاوز عددهم المائة ، فعن عبد الله ابن الإمام أحمد قال: حدثنا أبي حدثنا إسماعيل بن علي حدثنا أيوب السختياني عن محمد بن سيرين قال : هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله عشرة آلاف ماحضرها منهم مائة !! [١].

والصحابة رضي الله عنهم لايسكتون على باطل ولا يقرون مايتنافى مع الدين مهما كان بسيطاً ، فهل أمثال هؤلاء بما فيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقرون أي خطأ خاصة في اختيار الخليفة وهو أهم عمل في الدولة الإسلامية ! .

والغريب العجيب أن بعض كتب الشيعة نفسها تثبت فضل أبي بكر وعمر وأن بيعتهم تمت بموافقة ورغبة جميع المهاجرين والأنصار .

فقد جاء في كتاب « نهج البلاغة » وهو من الكتب المعتمدة لديهم لأنه من تأليف علمائهم ، وقد جمع خُطَب علي رضي الله عنه ، يقول فيه أمير المؤمنين بعد أن بويع بالخلافة :

بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه ،

---

(١) « منهاج السنة » ٦: ٢٣٦-٢٣٧ .

فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضى ، فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ماخرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين[١] .

ويقول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وهو يصف الصحابة رضوان الله عليهم ومن نفس كتاب « نهج البلاغة » الذي يعتمده الشيعة : لقد رأيت أصحاب رسول الله ﷺ وآله فما أرى أحداً يشبههم ، لقد كانوا شعثاً غبراً ، وقد باتوا سجداً وقياماً يراوحون بين جباههم وخدودهم ، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم ، كأن بين عيونهم رُكَب المِعْزى من طول سجودهم ، إذا ذكر الله هملت عيونهم حتى تبل جيوبهم ، ومَادُوا كما يَمِيد الشجر يوم الريح العاصف خوفاً من العقاب ورجاء الثواب[٢] .

ولنستمع لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يتحدث عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه نقلاً عن كتاب « نهج البلاغة » : لله بلاء عمر ، فقد قوَّم الأمد ، وداوى العمد ، خلف الفتنة ، وأقام السنة ، ذهب نقي الثوب ، قليل العيب ، أصاب خيرها ، وسبق شرها ، أدى إلى الله طاعته ، واتقاها بحقه ، ورحل وتركهم في طرق متشعبة لا يهتدي فيها الضال ، ولا يستيقن فيها المهتدي[٣] .

ويستشير أمير المؤمنين عمر بن الخطاب علي بن أبي طالب رضي الله عنهما للخوض لقتال الفرس بنفسه - الفرس دولة من الدول الكبيرة التي سحقها الإسلام على عهد عمر ، وكان مقرها إيران والعراق اليوم - فيقول

---

(١) « نهج البلاغة » ٣ : ٧ .
(٢) « نهج البلاغة » ١ : ١٩ .
(٣) « نهج البلاغة » ٢ : ٢٢٢ .

له علي رضي الله عنه : العرب اليوم وإن كانوا قليل فهم كثيرون بالإسلام وعزيزون بالاجتماع ، فكن قطباً واستدر الرحى بالعرب وأَصْلِهِمْ -دونك- نار الحرب ، إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا : هذا أصل العرب ، فإذا قطعتموه استرحتم فيكون ذلك أشدَّ لكَلَبهم عليك وطمعهم فيك . . . ، وأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ، وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة[١] .

ويقول الدكتور موسى الموسوي في كتابه القيم « الشيعة والتصحيح » أو « الصراع بين الشيعة والتشيع » وهو من علماء الشيعة ، وألف هذا الكتاب القيم ليبين انحرافات الشيعة وأخطاءهم بهدف تصحيحها ، يقول جزاه الله خيراً : وهناك شيء جدير بالاهتمام لابد من التركيز عليه لتفنيد كل الروايات التي ذكرها بعض رواة الشيعة في تجريح الخلفاء الراشدين بما فيهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وهو أن الإمام الصادق الذي يعتبر رئيس ومؤسس المذهب الجعفري الإمامي الاثني عشري قال مفتخراً وفي مواطن عديدة : أولدني أبوبكر مرتين ، فالإمام الصادق ينتهي نسبه إلى أبي بكر رضي الله عنه عن طريقين ، عن طريق والدته فاطمة بنت قاسم بن أبي بكر ، وعن طريق جدته أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر التي هي أم فاطمة بنت قاسم بن محمد بن أبي بكر .

ولكن الغريب أن رواتنا سامحهم الله رووا عن هذا الإمام الذي يفتخر بجده أبي بكر روايات في تجريح هذا الجد لا تعدُّ ولا تحصى ، فهل يعقل أن يفتخر الإمام بجده من جهة ويطعن فيه من جهة أخرى ؟ ، إن مثل هذا الكلام قد يصدر من السوقي الجاهل ، ولكن معاذ الله أن يصدر من إمام

---

(١) « نهج البلاغة » ٢ : ٣٠ .

يعتبر أفقه وأتقى أهل عصره وزمانه[١] .

وهذا الكتاب « الشيعة والتصحيح » قد بين مؤلفه - وهو من علماء الشيعة - أخطاء الشيعة وانحرافاتهم ومنها الإساءة للخلفاء الراشدين وسبهم والغلو النظري والعملي لآل البيت وعصمتهم ، وضرب المقامات في يوم عاشوراء والزواج المؤقت والرجعة والبداءة وغيرها .

وقد اخترنا هذه الأدلة من كتاب « الشيعة والتصحيح » لتكون حجة عليهم ولإقناعهم بالتوقف عن الإساءة للصحابة رضوان الله عليهم ، والغلو بآل البيت ، وكذلك اعتقاداتهم الأخرى ممايؤكد وجود تناقض واضح في كتبهم وبالتالي وجود دور كبير لأعداء الإسلام في إدخال هذه المعتقدات على مذهب الشيعة ، وكذلك إنشاء مذهب الإسماعيلية والنصيرية والدروز .

وقد روى عبد الرزاق وسعيد بن منصور في « سننه »[٢] وابن أبي عمر وسفيان عن عمرو بن دينار عن محمد بن علي بن الحنفية أن عمر بن الخطاب خطب إلى علي ابنته أم كلثوم ، فذكر له صغرها ثم قال له علي : أبعث بها اليك ، فإن رضيت فهي امرأتك ، فأرسل بها إليه فكشف عن ساقيها ، فقالت : لولا أنك أمير المؤمنين لصككت عينيك[٣]وعندما أعلمت أباها بذلك أخبرها رضي الله عنه بأن أمير المؤمنين أصبح زوجها .

هذا ومن أعظم الأدلة التي لا تزال موجودة حتى الآن وإلى قيام الساعة

---

(١) « الشيعة والتصحيح » للدكتور موسى الموسوي .

(٢) ص ٥٢٠-٥٢١.

(٣) « الأحاديث الصحيحة » ص١٥٦ وعلق الشيخ الألباني على ذلك بقوله : ثم تزوجها عمر رضي الله عنه ورزقت منه ولدين ، زيد ورقية ، كما في كتاب « الإصابة » ومنه استدركت هذه الزيادة .

على فضل الشيخين الجليلين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأنهما أفضل الصحابة في هذه الأمة هو دفنهما بجانب نبي هذه الأمة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ برضا وموافقة جميع الصحابة بدون استثناء بما فيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ولم تذكر كتب التاريخ برمتها أن أحداً من الصحابة على مختلف طبقاتهم قد اعترض على دفن الشيخين الجليلين بجانب الجسد الطاهر سيد البشر محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .

والعجيب أيضاً أنه لم يفكر أو يحاول أحد من كبار الصحابة وخاصة من المنتسبين للأسرة النبوية الشريفة المطهرة رغم أهميتهم وعلو مكانتهم بنص الأحاديث : في أن يدفنوا بالقرب منهم .

أليس هذا اعترافاً وإقراراً من جميع أفراد الأمة في ذلك الوقت الذي هو أفضل القرون : بفضلهم وعلو مكانتهم ؟!

عن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » . رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :
« النجوم أَمَنَةٌ للسماء ، فإذا ذهبت النجوم أتى أهل السماء ما يوعدون ، وأنا أَمَنَة لأصحابي ، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون ، وأصحابي أَمَنَة لأمتي ، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون » رواه مسلم .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يهديهم إلى طريق الحق وأن يجمع كلمة المسلمين على الهدى ، ولاحول ولاقوة إلابالله العلي العظيم .

الخـــاتـمـة

إن العمل الحقيقي لإنشاء المجتمع المسلم المترابط ، هو أول عمل قام به خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ عند وصوله للمدينة ، وذلك بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، ولن يقوم للمسلمين قائمة ، ولن يصبحوا أمة عظيمة قوية يخافها الأعداء ، ويرهبها الأصدقاء ، إلا بالعودة إلى دينها وعقيدتها ، وأهم نقطة للبدء في ذلك هو تعميق الشعور بالأخوة الإسلامية ، وزيادة الإيمان واليقين بالمحبة الإسلامية ، والترابط الإسلامي ، والتجمع الإسلامي للمسلمين في جميع أنحاء المعمورة .

استغلال جميع الوسائل والإمكانيات للدعوة

إن على المسلمين - كلٌّ حسب مقدرته ومؤهلاته ، سواء كانت مادية أو علمية أو اجتماعية - أن يستغلَّ كل ما لديه من وقت ومال وعلم ومعرفة في نشر الأخوة الإسلامية ، والمحبة الإسلامية ، وأن تُستغل أيضاً كافة الوسائل والإمكانيات المتوفرة من إذاعات وتلفزيون وصحافة ووسائل التعليم والمحاضرات وخطب الجمعة في تأكيد وتعميق هذا الشعور العظيم ، في ترابط الأمة : محبة وأخوة ومساواة ، وأن الأفضل والأكرم هو للأتقى ، هو للأكثر عبادةً ، والأكثر عملاً لهذا الدين ، والأكثر تطبيقاً لهذا الدين ، والأكثر اهتماماً بالدعوة إلى الله بين البشر .

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ فعمَّ وخصَّ فقال : « يا معشر قريش أَنْقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار . يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار ، فإني والله لا أملك لكم

من الله شيئاً ، إلا أن لكم رحماً سأَبُلُّها ببلالها » .

لا بد من إزالة رواسب الجاهلية ، ورواسب القبلية والشعوبية من القلوب ، وجعلها خالصة لله سبحانه في ولائها وفي عملها ، وفي حبها وفي إيمانها وعقيدتها .

البشر جميعاً خلقوا من نفس واحدة ، فلماذا يتميزون ويتفاوتون ويتفاضلون في أجناسهم وأعراقهم؟! إن التفاضل لا يكون إلا بالعمل الصالح ، وبالأخلاق وبالاستقامة وبالإخلاص واليقين .

يقول سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[١] .

شروط العضوية في الأمة الإسلامية

إن الله سبحانه وتعالى قد بعث محمداً ﷺ للناس جميعاً ، بل للعالَمِيْن الإنس والجن ، تأكيداً للوحدة الإنسانية لجميع بني البشر ، وجعل كل من يؤمن بهذا الدين عضواً في هذه الأمة الإسلامية فور إيمانه بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبالقرآن دستوراً ، وبمحمد نبياً ورسولاً .

ولهذا فإن وطن المسلم وبلاد الإسلام هي بلاد المسلمين أجمع ، وكل بلد وكل منطقة فيها مسلمون يشعر المسلم بينهم بالمحبة والأمن والسلام ، فلا يخاف كيدهم ولا يخشى بطشهم ، ولا خيانتهم ، ولا غدرهم ولا ظلمهم ، فإن حدث له من بعضهم شيء من ذلك قامت الفئة المؤمنة في الدفاع عنه ، ورد حقوقه إليه ، ومنع الظلم عنه ، وعقاب من أساء إليه .

---

(١) أول سورة النساء .

هذا هو القانون الإسلامي المعروف لكل من درس الإسلام وشريعة الإسلام .

ما معنى وحدة المسلمين

ومادام الإسلام يأمرهم أن يكونوا كالجسد الواحد وكالبنيان المرصوص وألزمهم بحب بعضهم البعض ، واعتبرهم إخواناً : فإن معنى ذلك أن تكون بلادهم بلداً واحدة ، وإمكانياتهم واحدة ، ملكاً للجميع ، كل واحد وكفاءته ومقدرته في خدمةالدولة الإسلامية والولاء لله سبحانه ولرسوله وللأئمة المسلمين وعامتهم .

وقد يقول بعض المثبّطين والإنهزاميين والعنصريين والقوميين : إن الدعوة إلى الوحدة الإسلامية والأخوة الإسلامية والمحبة الإسلامية في هذا الوقت ، وعلى أساس إسلامي نقي : شيء مضحك للغاية ، لأنه من المستحيلات ومن السخافة بذل الجهود وإضاعة الوقت في ذلك ، لأننا لم ننجح في وحدة العرب ، فكيف ننجح في وحدة المسلمين ؟! .

ونجيب : إن الدعوة إلى هذه المبادى أمر يقتضيه الدين والعقيدة ، ونجاحها ليس بأيدي البشر ، بل بيد الله سبحانه وتعالى ، وقديماً قال القائل :

وعلي أن أسعى وليـ ـس عليَّ إدراك النجاح

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1] .

فالله سبحانه هو الذي يؤلف القلوب ، ويؤاخي بين المؤمنين ، ويوحد

---

(١) سورة الأنفال ، الآيات (٦٢، ٦٣).

كلمتهم وقلوبهم ، ويزيل العداوة والضغائن من قلوبهم ، هذا إذا صدقنا العمل وأخلصنا النيات ، وطهرنا القلوب ، وجعلنا أعمالنا خالصة لله ، وبذلنا كل ما نستطيع من جهد ، وقاومنا الانحراف والشهوات والأهواء والعصبيات ، فإن الله سبحانه سيحقق ذلك - إن شاء الله - الآن أو في الأجيال المقبلة ، وليس شرطاً أن يتحقق ذلك خلال سنوات ، والمهم أن نبذل الجهود ونقوم بواجبنا حيال ما يأمرنا به ديننا وعقيدتنا .

الوحدة العربية

أما الوحدة العربية : فلن تكون هناك وحدة عربية إلا على أساس الإسلام ، أما وحدة القومية أو العنصرية فلن تتم ، وستصاب دوماً بالفشل والخذلان كما هو واقع الآن ، لأنها وحدة بدون عقيدة ، وبدون هدف ، وبدون رسالة ، وكلنا نعرف حال العرب قبل الإسلام حيث كانوا أعداء لبعضهم البعض ، متفرقين مشتتين ، ولم يصبحوا أمة إلا بفضل الإسلام ، حيث جعلهم الله أعظم الأمم وأفضلها ، بعقيدتهم وإسلامهم ، وليس بعروبتهم أو قوميتهم ، فلما تركوا الدين عادوا إلى سيرتهم الأولى .

يقول سبحانه : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾[١] .

ألم يقل الرسول ﷺ للأنصار رضي الله عنهم يوم حنين : « ألم أجدكم ضُلاّلاً فهداكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي ، وأعداء فألف بين قلوبكم ؟ » .

عدم وحدة المسلمين معناه الدمار والذل والإبادة

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٠٣).

إن بقاء البلدان الإسلامية متفرقة مشتتة منفصلة عن بعضها ، تُحكَم شعوبها بالأهواء والشهوات ، وبالقوانين المنافية للإسلام ، عمل يتنافى مع العقيدة الإسلامية ، ومدعاة لغضب رب العالمين ، وسيحاسبنا الله على تقصيرنا في ذلك ، سواء كنا أفراداً أو جماعات أو حكومات أو مسؤولين ، لأن علينا جميعاً أن نعمل على وحدتنا وتماسكنا ، ونستغل كافة إمكانياتنا في ذلك ، لأن تفرقنا معناه دمارنا وإبادتنا من قبل أعدائنا ، ومن السهل ابتلاعنا والسيطرة علينا ، وإذلالنا وقهرنا .

إن حياة الإنسان محدودة ، ولا بد أن تنتهي حياته في وقت محدد ، وهو مسئول عن هذه الفترة من حياته وما قدمه لدينه وعقيدته ، ومدى إخلاصه وولائه لله سبحانه وتعالى ولرسوله .

لذا فلندعوا للوحدة ، ولندعوا للمحبة والأخوة بين المسلمين في العالم أجمع ، قولاً وعملاً وتعليماً وخلقاً وإغاثة في كل وقت ، محتسبين ذلك عند الله ، سائلين منه التوفيق والسداد .

التخطيط ضد المسلمين

إن أخشى ما تخشاه الدول الكبرى هو أن يتحد المسلمون ويتفقوا ويعودوا لدينهم وعقيدتهم ووحدتهم ، ولذلك أنشأوا المعاهد والجامعات لدراسة أوضاع المسلمين وعقائدهم ، وألقوا المحاضرات التي تشوه الدين الإسلامي من كافة نواحيه ، ومن مراكز الاستشراق الرئيسية الآن في أمريكا جامعة برنستون ، قسم دراسات الشرق الأدنى ، وقد أسس هذا القسم فيليب حتي الذي جاء إلى برنستون بتدبير من الرئيس الأمريكي نيكسون وصديقه بابارد

دوج ، من الجامعة الأمريكية ببيروت ، بالاشتراك مع المؤسسات التنصيرية الأمريكية[١] .

وأغلب القائمين عليه من اليهود ، بالإضافة لمؤتمرات التبشير التي تعقد بصفة دائمة .

إنهم يعملون ليل نهار لرسم الخطط وتدبير المكائد ، وتأليف الكتب ، للإبقاء على المسلمين متفرقين متنافرين ، متعادين متنازعين مختلفين في كل شيء ، حتى إنهم كانوا يتوقعون الحرب الأهلية الصومالية منذ أمد بعيد وعلى أساس قَبَلي أيضاً .

إنهم يخططون لكل شيء حتى إلى ما بعد عشرات السنين ، ولعلنا نذكر أن الحدود التي يضعها المستعمرون بين الدول قبل رحيلهم يكون القصد منها إحداثَ الفتن والقتال بين الجانبين .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم * بسم الله الرحمن الرحيم :

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[٢] .

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[٣] .

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[٤] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[٥] .

---

(١) راجع كتاب « آفاق الاستشراق الأمريكي » لمازن مطبقاني .
(٢) سورة آل عمران ، الآية (١٠٣).
(٣) سورة آل عمران ، الآية (١٠٥).
(٤) سورة الصف ، الآية (٨).
(٥) سورة الرعد ، الآية (١١).

﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾[١] .

وقال رسول الله ﷺ : « . . . وأنا آمركم بخمس أمرني الله بهن : الجماعة ، والسمع ، والطاعة ، والهجرة ، والجهاد في سبيل الله ، فمن فارق الجماعة قِيد شبر خلع الإسلام من رأسه إلا أن يرجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جُثَا جهنم » قيل : وإن صام وصلى ؟ قال : « وإن صام وصلى ، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين ، عباد الله »[٢] .

* * * * *

أيها الطالب فخـراً بالنسب   إنمـــــا الناس لأم ولأب

هل تراهم خلقوا من فضة   أو حديد أو نـحاس أو ذهـب

أو ترى فضَّـلهم في خلقهم   هل سوى لحم وعظم وعصب

إنمـــا الفضـــل بدين وتقىً   وبأخــــــلاق كرام وأدب

ذاك من فاخـــر في الناس به   فاق من فـــاخر منهم وغلب

فإذا كنا نتطلع إلى الوحدة والائتلاف والمحبة والتعاون ، فإن هذا يقتضي منا أن نخلع أنفسنا من عصبياتنا وقبلياتنا وأهوائنا ، وننظر إلى واقعنا نظرة عدل وإنصاف ، نظرة مجردة عن الأهواء والأغراض ، فلا نضع على أعيننا نظارة المصلحة الحزبية ، أو نظارة الصراع على الزعامة والقيادة ، بل يجب أن

---

(١) سورة المائدة ، الآية (٢).

(٢) أخرجه الترمذي وصححه .

يكون ولاؤنا لله فقط ، وإخلاصنا لديننا وعقيدتنا وليس لشيء آخر .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * * * *

المصادر والمراجع

- أحوال العالم المعاصر ، لمحمد قطب .

- أخبار عمر ، للطنطاوي .

- الأخوة ، لجاسم ياسين .

- الأدب المفرد ، للبخاري .

- أهل الذمة ، لأبي الأعلى المودودي .

- التاريخ الإسلامي ، لمحمود شاكر .

- تاريخ الأمم والملوك ، للطبري .

- الترغيب والترهيب ، للمنذري .

- تفسير الطبري .

- تفسير ابن كثير .

- سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للألباني .

- سيرة ابن هشام .

- السيرة النبوية الصحيحة ، للدكتور أكرم ضياء العمري .

- العرب والإسلام ، للشيخ أبي الحسن الندوي .

- في ظلال القرآن ، لسيد قطب .

- كنز العمال ، للمتقي الهندي .

- مبدأ الأخوة في الله ، لمصطفى القضاة .

- مجموعة مؤلفات محمود فؤاد الطباخ .

- محاضرة للشيخ أحمد القطان .
- محاضرة للشيخ عايض القرني .
- محاضرة للشيخ يوسف القرضاوي .
- المشكاة ، للخطيب التبريزي .
- المكتوبات ، لبديع الزمان النورسي .
- مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، لا بن الجوزي .
- الولاء والبراء في الإسلام ، محمد بن سعيد القحطاني .

* * * * *

الفهرس

* * * * *